دراســات
فى
تاريخ العصور الوسطى

٢

الاستاذة الدكتورة

إسمــت غنيــم

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

ورئيس قسم العلوم الاجتماعية

جامعة الاسكندريـة

١٩٩٦

دراســات

فى

تاريخ العصور الوسطى

٢

الاستاذة الدكتورة

إســـمــت غنيـــم

أستاذ تاريخ العصور الوسطى

ورئيس قسم العلوم الاجتماعية

جامعة الاسكندريـة

١٩٩٦

بســـم اللـــه الرحمـــن الرحيـــم

يحتوى هذا الكتـاب على أربعة أبحاث مختلفة فى الموضوع وفى الفترة الزمنية ، ولكنها كلها تشترك فى شيء واحد هو انها تبحث جميعها فى تاريخ العصور الوسطى .

والبحث الاول يتناول عصر الامبراطور جستنيـان ٥٢٧ - ٥٦٥ م والانجازات التى تمت فى عصره .

والبحث الثانى يتناول عنصر الآفار وما سببوه من متـاعب فى منطقة البلقان ووسط أوروبا حتى تم لشارلمـان القضاء عليهم .

اما البحث الثالث فيبحث فى وضع المرأة فى الغرب الاوروبى فى العصور الوسطى ، ثم دراسة مقارنة مع مركزها فى الاسلام .

والبحث الرابع والاخير يتناول معركة هامة كانت لها نتائج خطيرة وهى معركة منزيكرت فى ١٠٧١ م وجرت هذه المعركة بين الامبراطورية البيزنطية والأتراك السلاجقة المسلمين وانتهت بانتصار حاسم للسلاجقة وتم أسر الامبراطور البيزنطى .

أرجو ان تكون هذه الابحاث ذات فائدة للدارسين والباحثين فى تاريخ العصور الوسطى .

والله الموفق

أ.د. اسمت غنيم

اغسطس ١٩٩٦



امبراطورية جستنيان

امبراطورية جستنيان

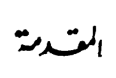
الدكتور
إسمت غنيم
جامعة الإسكندرية

١٩٨٢



دار المعارف

المحتويات


المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

لعل أنسب اسم يطلق على الدولة الرومانية الشرقية فى الفترة الزمنية الممتدة من عام ٥٢٧ — ٥٦٥ م. هو «امبراطورية جستنيان» لان هذه الامبراطورية لم تكن هى نفسها الامبراطورية الرومانية القديمة ، كما انها لم تكن كذلك الامبراطورية البيزنطية بحدودها التى عرفت بها خلال الشطر الاكبر من العصور الوسطى ، بل انه لم تمضى على وفاة جستنيان اكثر من ثلاث سنوات حتى تغيرت حدود هذه الامبراطورية بالفتح اللومباردى لشمال ايطاليا .

فهذه الامبراطورية امتدت بفضل جهود جستنيان واستمرت قائمة فى عهده ، وبدأت حدودها تتغير بعد وفاته .

والواقع ان جستنيان يحتل مكانة خاصة فى تاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية ، فهو الامبراطور الرومانى الشرقى ، ذو الافكار والميول اللاتينية الغربية ، ومن ثم فقد اختلف المؤرخون المعاصرون والمتأخرون زمنيا ، فى تقييم هذا الامبراطور بأفكاره ومبادئه السياسية وما بذله فى سبيل الامبراطورية من جهود ، أنصفه فريق منهم وهم قليلون ، واتهمه الفريق الآخر وهم الاغلبية ، رفعه بعضهم الى القمة ، وهوى به البعض منهم الى الحضيض .

وفى هذا البحث نحاول ان نصل الى الحقيقة التاريخية المجردة عن هذا الامبراطور والانجازات التى حققها للامبراطورية خلال حكمه .

ويمكن القول ان عصر امبراطور عظيم مثل جستنيان ، استحوذ من

التاريخ البيزنطى على فترة امتدت لأكثر من ثمانية وثلاثين عاما (١) ،انجز خلالها العديد من الاعمال والمشروعات فى الداخل والخارج ، يصح ان يؤرخ له فى مجلد وليس فى بحث صغير مثل هـذا البحث ، والجـزء الثانى من كتاب المؤرخ الانجليزى بيورى Bury وعنوانـه :

History of the later Roman Empire

يقع فى ٤٩٤ صفحة ، خصصها كلها للكلام عن عصر جستنيان وحده وهناك كتاب للمؤرخ باركر Barker عن عصر جستنيان أيضا وعنوانه :

Just inian and the later Roman Empire.

ويقع هو الآخـر فى ٣١٣ صفحة ، وغيرهم ممن تناولوا عصر هـذا الامبراطور بتفصيلات وافيـة ويستطيع أى باحث فى عصر جستنيان ان يرجع الى كتبهم للاستفادة منها .

اما بالنسبة لبحثى هذا ، فأننى لست بصدد معالجة عصر جستنيـان فى حـد ذاتـه بقدر ما أنا حريصـة على ان أوضح الحقـائق التاريخيـة للرد على النقد الذى وجه إليـه من جانب الغالبيـة العظمى من المؤرخين ، أى أننى اتناول الخطوط العريضة فى أعمال هـذا الامبراطـور ، دون الدخول فى التفاصيل الدقيقة ، بشكل يخدم الهدف الذى اسعى إليه .

---

(١) حكم جستنيان منذ ارتقائه العرش وحتى وفاته مدة ثمانية وثلاثين عاما وسبعة شهور ، وثلاثة عشر يوما ، راجع :

Gilbon : The Decline and Fall of the Roman Empire, London, 1976, vol 4, p. 151.

ويرجع الفضل فى تسجيل الأحداث التاريخية الخاصة بعصر جستنيان إلى اثنين من المؤرخين المعاصرين ، هما بروكوبيوس Procopius وأجاثياس Agathias . وينتمى بروكوبيوس فى الأصل إلى مدينة قيصريه فى فلسطين ، وقد رافق القائد بلبزاريوس أثناء حملاته العسكرية ، وكان شاهد عيان لمعظم الأحداث التى رواها فى مؤلفه الذى يعرف باسم «التاريخ السرى» Historia Arcana ، ويعطى فيه تفصيلا لحروب جستنيان ضد الفرس ، الواندال ، القوط ، ومختلف الأحداث حتى سنة ٥٥٤ م . كما ضمنه كذلك قذفا على جستنيان وثيودورا وبلبزاريوس وزوجته . ولذلك لم ينشر هذا الكتاب أثناء حياته . ويقول المؤرخ رانسيمان «بروكوبيوس وإن كان كتابه المعنون « التاريخ السرى » انما هو مجموعة شتى من الخوض فى السير و الاعراض إلا أنه ينبغى أن يوضع بسببما دونه عن حروب الأمبراطور ، فى مصاف عظماء المؤرخين فى جميع العصور ، فقد كانت لغته قوية ، وحكمه واضحا ، ووصفه للاشياء حيا» (١) .

ولبروكوبيوس كتاب آخر عن المبانى والحصون يسمى De Aedificiis الغالب أنه كتبه فى الفترة من ٥٥٣ — ٥٥٥ م . وقد أثنى فيه على

---

(1) Runciman, S. : Byzantine Civilisation, Seventh impression, 1975, p. 243.
Dolger, F. : Byzantine Literature, C.M.H. vol. IV, part II, ed. Hussey, 1967, p. 228.

الإمبراطورر جستنيان لانشائه العديد من المبانى اللازمة لكل الأغراض من الكنائس حتى القناطر والتحصينات (١) .

أما معاصرة المتأخر اجاثياس الذى ولد فى عام ٥٣٦م وتوفى فى عام ٥٨٢ م ، فهو كذلك مؤرخ مرموق ، ولكنه كان على نقيض بروكوبيوس فقد كان شاعرا ، وكثيراً ما كان استعماله للاسلوب البلاغى يطغى على كتابته ، ويغلف معانيه بغشاوة كالضباب أحيانا (٢) .

وتاريخه الذى يعرف باسم Historiarum دون فيه الأحداث التى وقعت فى الفترة الزمنية الممتدة من عام ٥٥٢ — ٥٥٨ م ، ثم أكمل الأحداث من عام ٥٥٨ — ٥٨٢ م . وقد نشر مؤلفه هذا فى مجموعة بون البيزنطية Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae. التى نشرت فى عام ١٨٢٨ م فى ألمانيا .

كذلك كانت الاستفادة كبيرة من الطبعة الجديدة للجزء الرابع من مجموعة كمبردج للعصور الوسطى Cambridge Medieval History التى أشرفت على نشره الأستاذة جوان هسى Joan Hussey أستاذة تاريخ العصور الوسطى بجامعة لندن ، وظهرت هذه الطبعة الجديدة فى عامى ١٩٦٦ — ١٩٦٧ . وينقسم هذا الجزء إلى مجلدين ، الاول خاص بالتاريخ السياسى ، والثانى خاص بالتاريخ الحضارى للدولة البيزنطية .

---

(1) Dolger : op. cit,. p. 228.
Runciman : op. cit., p. 243.

(2) Dolger : op. cit., p. 228.

هذا بالاضافــة لمؤلفات فازيلييف Vasiliev ، واستروجورسكى Ostrogorsky ، وجيبــون Gibbon ، وبيــورى Bury ورانسيان Runciman ، وغيرهــم من المؤرخــــين الذين تناولوا عصر جستنيان سواء فى كتب مستقلــة أو فى فصــول داخل كتب تبحث فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية بصفة عامـــــة .

ولعلنى بهذا البحث أكون قد أضفت شيئا جديـدا الى المكتبــة العربيــة يمكن ان يقدم الفائدة العلمية للباحثين فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية .

والله الموفـــــق ،

اسمت غنيم

لوران

٩ مارس ١٩٨٢ م

الفصل الأول

المؤثرات المحيطة بجستنيان

- آراء بعض المؤرخين فى جستنيان .

أهم مستشارى ومعاونى الامبراطور :

ثيودورا

نارسيس

بليزاريوس

تريبونيان

يوحنا القبدوقى

- المشاكل الداخلية التى واجهته فى بداية عهده .

يقول المؤرخ فيشر عن جستنيان : « إن امبراطوراً طفحت دخيلته بالغيرة وامتلأ رأسه بالغرور، واتصفت أخلاقه بالتردد وهو مع ذلك لايتهيب الدخول فى مشروع مهما عظم ولايستصغر عملا من أعمال الإدارة مهما صغر، ولايستهين طيرة مهما هانت ،ولايعتبر أمراً بعيد المنال مهما بعد ، لا يستطيع أن يثير الإعجاب فى نفس أحد ».(١)

ولم يكن هذا هو النقد الوحيد الذى تعرض له جستنيان من جانب المؤرخين فقد تعرض هذا الامبراطور للكثير من النقد . وخاصة فيما يتعلق بأفكاره السياسية الخاصة باستعادة السيادة الرومانية على الأقاليم الغربية التى استولى عليها البرابرة الجرمان واعتبروا سياسته فى هذا الميدان وهما عسير التحقيق ، باهظ التكاليف ، وأنها كانت ترفاً وضرراً ،وإن ضررها كان أكثر من نفعها ، وأن جهوده العسكرية فى الغرب كانت من أجل تحقيق أطماعه الشخصية، وأنه رغم أن حروبة فى الغرب قد كلفت الإمبراطورية الكثير من المال والرجال ، إلا أن نتائجها لم تكن دائمة وأن فتوحاته هذه قد انهارت بعد وفاته.(٢)

وقبل أن نناقش هذه الآراء ،ونوضح مدى صحتها ، يجب أن نستعرض

---

(١) فيشر : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى ، الطبعة السادسة ، دار المعارف بمصر ، الجزء الأول ، ص ٥٨ .

(٢) انظر على سبيل المثال المراجع التالية :

Vasiliev : History of the Byzantine Empire, (324 - 1453) Wisconsin press, U.S.A. 1973, vol I, pp. 141 - 142.

Diehl : Byzance, Grandeur et Decadence, paris, 1928, 0 p. 8.

فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، حـ ١ ، ص ص ٥٢ – ٥٣ .

عمر كمال توفيق : تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، دار المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ ص ٦٠ .

العرينى : الدولة البيزنطية ، (٣٢٣ – ١٠٨١) القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٦٩ .

نبيه عاقل : الامبراطورية البيزنطية ، دمشق ، ١٩٦٩ ، ص ٧٦ .

عصر هذا الإمبراطور ، وجهوده فى الداخل والخارج والانجازات التى حققها للامبراطورية ، حتى يكون حكمنا صحيحا مبنيا على الحقائق التاريخية الواضحة .

يرجع الفضل فى ظهور جستنيان على مسرح الأحداث السياسية إلى عمه جستين الذى تختلف الآراء فيما يتعلق بأصله . فالبعض ينسبه إلى الأصل الصقلبى والبعض يقول أنه من أصل رومانى أو ألبانى ، على أن الأرجح أن أصله يرجع إلى جماعة من المتبربرين الذين كانوا يقطنون رقعة موحشة منعزلة اطلق عليها تباعا اسم داردانيا ثم داكيا ثم بلغاريا . وقد بقيت اللغة اللاتينية فى هذا الإقليم لغة التخاطب بين الناس دون سائر أقاليم البلقان الأخرى. (١)

وكان جستين وضيع الاصل ، وكان يعمل فى فلاحة الارض فى بلدة ، ثم فكر فى ان يجرب حظه فى العاصمة القسطنطينية ، فهاجر اليها مع بعض اصدقائه ، والتحق بالخدمة فى الجيش حيث اظهر كفاءته كجندى باسل ، فألحق بالحرس الإمبراطورى ، وظل يتقدم حتى أصبح قومس Comes إحدى فرق الحرس، وكانت كل مؤهلات جستين محصورة فى كونه جندياً باسلا وجاهلا ماعداها من صفات ، فقد كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، متطفلا

---

(1) Barker : Justinian and the later Roman Empire, london, 1966, pp. 64 - 65.

Gibbon : The Decline and Fall of the Roman Empire, london, 1976, 4, pp. 146 - 147.

فيشر : تاريخ أوربا العصور الوسطى ، حـ ١ ، ص ٤٦ .

اسد رستم : الروم فى سياستهم وحضارتهم وديانتهم وثقافتهم ، دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٥ ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، ص ص ١٦٥ — ١٦٦ .

(٢) القومس هو الرائد الذى يقود الفرقة العسكرية المكونة من ثلاثمائة إلى أربعمائة جندى أنظر Runciman; Byzantine civilisation p. 139.

على السياسة جاهلا علم اللاهوت ، كما كان مسناً حين وقع عليه الاختيار بتدبير لايزال غامضاً ، ليتولى العرش بعد وفاة الأمبراطور أنستاسيوس فى عام ٥١٨م.

وقد عاش جستين حتى صار أمبراطوراً دون أن ينجب ولداً ، لذا فقد تبنى إبن أخ له من نفس موطنه ، وأطلق عليه إسم رومانى هو جوستنيانوس Justinianus وهورينى الاصل مثله إستقدمه فى حداثته إلى القسطنطينية ، وعنى بتثقيفه وتهذيبه وكانت اللغة الأصلية لجستنيان هى اللاتينيـة ، لكنه كان يتكلم اليونانية بلهجة رديئة وحين تولى جستين العرش كان جستنيان قد انهى دراسته وأصبح على دراية كبيرة بالسياسة وكافة الشئون اللازمة لمن يعمل فى الحكم ، وصار المساعد الأيمن لعمه جستين ،وفى عام ٥٢٥ أضفى عليه لقب قيصر Caesar وفى إبريل ٥٢٧ منحه لقب Augustus وأعلنه خليفته على العرش البيزنطى(١)

وبعد أن توفى جستين فى أول أغسطس ٥٢٧ . تولى جستنيان الحكم .وكان فى الخامسة والأربعين من عمره ، صهرته الخبرة ، وحنكته التجارب ، وكان يفتح بابه لكل الناس ، وينصت إلى شكاواهم ، وكان مهذباً بشوشاً ، قادراً على التحكم فى انفعالاته . ومما عرف عنه أنه كان عزوفاً عن الطعـام ، وكثيراً ما كان يقضى يومين دون أن يتناول طعاماً ، وفى فترات الصوم الرسمية كان يقنع بالماء والخضراوات ، ولم يكن تحكمه فى نومه أقل صرامـة من تحكمه فى طعامه . فقد كان لايستريح إلا ساعة واحدة وكان أشد مايدهش أمناء القصر أن يرونه سائراً فى أرجائه وسط الليل أو مكباً على دراسة التقـارير التى يرفعها

---

(1) Barker : Justinian and the later Roman Empire. p. 66.
Bréhier : Vie et mort de Byzance, paris, 1969, pp. 30 - 31.
Gibbon : The decline and Fall of the Roman Empire, vol 4, pp. 146-148.

اليه الموظفون بالدولة حتى يلوح ضوء النهار ، وكان من نتيجة ذلك أن لقبوه « بالإمبراطور الساهر» (١).

وكان جستنيان شديدالإعجاب بمواهبه ومؤهلاته ،شديد الثقة فى عظمته ، ولكنه رغم هذا كان يحترم آراء مساعديه ومستشاريه ، وأهمهم زوجته الأمبراطورة ثيودورا ، والقائدان اللامعان بلزاريوس ونارسيس اللذان حقق جستنيان عن طريقهما الكثير من الانتصارات والفتوحات للامبراطورية وتريبونيان المساعد الأيمن للامبراطور فى مجال التشريع ويوحنا القبدوقى الذى كان مسئولا عن الشئون الإدارية والمالية .

فيما يتعلق بثيودورا فهى إبنة لأحد القيارصة ، وكان يعمل مروضاً للدببة بالسيرك وقد إكتسب شهرة كبيرة فى هذا الميدان حتى أطلق عليه إسم (سيد الدببة) The mastei of the bear وقد ولدت ثيودورا بالقسطنطينية فى عام ٥٠٠م وكانت الإبنة الوسطى لوالديها ، وكانت أختها الكبرى تدعى كوميتو Comito والأخت الصغرى تدعى أنسطاسيا Anastasia ولم يمتد الأجل بوالدهن طويلا فتوفى تاركاً بناته الثلاثه وأمهن دون مورد رزق ، وكانت كبراهن لا تتعدى سنها وقتذاك السابعة من العمر . ورغم حداثة سنهن إلاأن أمهن دفعتهن للعمل على المسرح لكسب العيش ، وقد نالت الشقيقات الثلاث تعاطف شعب القسطنطينية بعد أن أدخلن السرور إلى قلبه.

ولم تكن ثيودورا تتقن الرقص أوالغناء أوالعزف على الناى مثل شقيقتاها

---

(1) Procopius : Historia Arcana, ed. Haury, leipzig, 1906, pp. 80 - 81.
Barker : op. cit., p. 67.
Gibbion : op. cit., pp. 365-366.

أنظر كذلك الصورة رقم (١) للأمبراطور جستنيان .

ولكنها برعت فى فن آخر يعرف حـاليا باسم البانتوميم The Pantomime وهوفن التمثيل الصامت ، فكانت تقوم بتأدية حركات معينة دون أن تنطق بكلمة واحدة واختارت لنفسها تمثيل دور المهرج (البلياتشو) . وكلما انتفخت أوداج الممثلة الصغيرة وشكت فى حركات مضحكة من الضربات التى كانت تكال لها ، ضج مسرح القسطنطينية بالضحك ودوى بالتصفيق والاستحسان . وكان جمال ثيودورا مصدر اطراء وثناء دائماً ، وكانت قسمات وجهها رقيقة ومتناسقة ، كما كانت بشرتها رغم شحوبها نوعاً ما ، مشربه بلون طبيعى وكان أهم ما يميز وجهها عيناها الممتلئتان بالحيوية ، واللتان تعبران على الفور عما يدور فى نفسها من احساس(١) .

وهكذا عرف عن ثيودورا الجمال والرشاقة والذكاء وسرعة الخاطر ، وقد دفعها الفقر والجو الملىء بالإنحلال والفساد الذى عاشت فيه ، إلى الإنحراف ، ويسرد المؤرخ المعاصر بروكوبيوس العديد من القصص والحكايات عن صولات وجولات ثيودورا فى هذا الميدان ، ويقول انها كانت مصدر التسلية بالقسطنطينية كما كانت مصدر العار لها كذلك ، وأنه كان يتنحى عن طريقها ويتفادى لقاءها كل من يرغب فى تجنب الفضيحة أو الإغراء(٢) .

على أن ثيودورا لم تلبث ان هجرت العاصمة البيزنطية ، وصاحبت Ecebolis حاكم ولاية شمال افريقية إلى مقر عمله ، حيث أمضت هناك بضع سنوات ، ثم عادت من جديد إلى العاصمة عن طريق مصر ثم سورية وآسيا الصغرى ، ويقول بروكوبيوس ان كل مدينة مرت بها فى طريق

---

(١) أنظر الصورة رقم (٢) للامبراطورة ثيودورا .

(2) Procopins : Historia Arcana, ed. Hauıy, pp. 60 - 61.

عودتها قد أعجبت واستمتعت بالقبرصية الجميلة ذات المواهب المتعددة(١).
المهم انها ما أن وصلت للعاصمة حتى غيرت من مسار حياتها ، فقد ابتعدت عن المسرح واعتزلت الناس وأمضت وقتها فى غزل الصوف . وأبدت اهتماماً كبيراً بالمسائل الدينية واتصفت بالتعقل والإتزان .

ولعل المرء يتساءل عن السبب فى هذا التغيير الشامل الذى طرأ على حياة ثيودورا . ان بروكوبيوس يدعى بأن السبب فى ذلك يرجع إلى أنها فى طريق عودتها لبيزنطة رأت فيما يرى النائم انها ستكون زوجة لملك قوى . ووعياً منها بما ينتظرها من عظمة وجلال عادت من آسيا الصغرى إلى القسطنطينية واصطنعت بما لها من قدرة فائقة على التمثيل هذه الشخصية الأكثر حشمة ووقاراً .

وإن كنت أرجح أن تكون ثيودورا قد تأثرت واقتنعت بالتعاليم الدينية بعد اختلاطها بالرهبان ورجال الدين اللذين حفلت بهم الولايات الشرقية من الامبراطورية أثناء عودتها إلى القسطنطينية ،وفى اعتناقها لمذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح، ودفاعها عن هذا المذهب وهو المذهب الذى ساد فى الولايات الشرقية من الإمبراطورية ما يؤيد ذلك .

وقد رآها جستنيان وهى على هذه الصورة فبهره جمالها ، ولم يكن جستنيان قد وصل للعرش الامبراطورى بعد ، وقد أراد الزواج بها ، ولكن حالت عقبات دون اتمام هذا الزواج . ذلك أن القوانين الرومانية كانت تحرم صراحة زواج عضو مجلس السناتو (الشيوخ) من أية إمرأة ذات أصل وضيع ، كما أن الإمبراطورة Eûphemia زوجة عمة الإمبراطور

(1) Procopins : op. cit., pp. 27 - 28.

جستين ، وهى من أصل ريفى ومتمسكة بالتقاليد الصارمة ، رفضت تماماً أن يتزوج ابن أخ زوجها ووريثه فى العرش الإمبراطورى من هذه المرأة ذات التاريخ الحافل بالرذيلة ، كما أن والدة جستنيان وتدعى Vigilantia عارضت هى الأخرى هذا الزواج بشدة .

لكن جستنيان لم ييأس وقد ساعده القدر على ذلك حين توفيت الإمبراطورة Euphemia فزالت بذلك أكبر العقبات أمام زواجه من ثيودورا . فسن جستنيان قانوناً باسم الإمبراطور جستين الثانى أبطل به القانون القديم ، ونص هذا القانون الجديد على « فتح باب التوبة الصادقة أمام النساء التعيسات اللاتى دنسن أنفسهن على المسرح ، وأجيز لهن عقد القران المشروع على أبرز الشخصيات الرومانية » .

وهكذا أتيح لجستنيان على طريق هذا القانون الجديد الزواج من ثيودورا وتم ذلك فى عام ٥٢٢م .

ومنذ تزوجها جستنيان وحتى وفاتها فى عام ٥٤٨م . وهى تمارس نفوذاً كبيراً على زوجها ، وحين آل العرش إلى جستنيان فى عام ٥٢٧م بعد وفاة جستين الثانى ، توجها بطريرك القسطنطينية كإمبراطورة مثلما توج جستنيان إمبراطوراً ، وقد أجلسها جستنيان على العرش شريكاً متكافئاً مستقلا فى السيادة على الإمبراطورية ، وفرض على حكام الولايات والموظفين الإداريين تأدية يمين الولاء لجستنيان وثيودورا معاً على النحو التالى : « إمبراطورينا المقدسين الورعين جستنيان وثيودورا شريكته فى العرش » .

وفى كثير من الأحيان كانت تستقبل السفراء الأجانب وتنعم عليهم

بالهدايا « كما لو كانت تحكم الإمبراطورية الرومانية » على حد تعبير بروكوبيوس »(١) .

وكان لثيودورا مصادر مالية عديدة منها ضياع كثيرة فى آسيا الصغرى يديرها مشرف كبير يعرف باسم : Curator divinae domus serenissimae Augustae وكان جستنيان حريصاً على أن يزيد من أملاك ثيودورا فمنحها هبات ضخمة بمناسبة زواجهما وكان ضمن هذه الهبات القصر الذى كان يقيم فيه جستنيان قبل اعتلائه العرش والمعروف بقصر هورميسداس Hormisdas .

وإن كان بروكوبيوس متبعاً نفس الأسلوب الذى سار عليه فى مهاجمة ثيودورا يقول نأنها كان لها اهتماماً خاصاً بكل ما له صلة بالإتجار فى اعراض النساء ، الا ان الثابت انها قومت الكثير من الاخطاء ، ويرجع إليها الفضل فى إصدار القانون الصارم الذى يحظر الإتجار فى الفتيات الصغيرات هذا الأمر الذى كان يعد من أكثر الأعمال رواجاً آنذاك . ذلك أن الوكلاء كانوا يجوبون ولايات الإمبراطورية يجمعون الفتيات الصغيرات تحت سن العاشرة ، بعد أن يغروهن بالحياة الرغدة والملابس الأنيقة ، ويدفعون إلى ذويهن القليل من المال تعويضاً لهم عن بناتهم ، وبعد أن يصلوا بهن إلى العاصمة يجبرونهن على الإشتغال فى بيوت الدعارة . وقد بذلت ثيودورا جهدها من أجل العمل على إنقاذ أولئك الفتيات من أيدى هؤلاء التجار ، بعد أن دفعت إليهم الكثير من مالها الخاص .

---

(1) Procopius : Historia Arcana, pp. 24, 30.
Bury : History of the later Roman Empire, vol 2, p. 30.
Barker : op. cit, pp. 69 - 70.
Gibbon : the Decline and Fall of the Roman Empire, vol 4, pp. 153 - 157.

أما المومسات التائبات ، فقد خصصت لهن ثيودورا قصراً على الشاطىء الآسيوى للبوسفور غير بعيد عن ساحل البحر الأسود ليكون مأوى يكفل لهن الحياة الشريفة وعرف هذا القصر باسم Metanoia or Repentance ويحاول بروكوبيوس أن يبخس من قدر هذا العمل النبيل الذى قامت به ثيودورا فيدعى أنهـا قـد نزلت إلى سوق القسطنطينية مـع مجموعة كبيرة من الحرس وأمرتهم بجمع النساء الساقطات . فجمعوا حوالى خمسمائة منهن وأرسلتهن إلى قصر Metanoia وأجبرتهن على تغيير طريق حياتهن بالقوة . وقد ألقت بعضهن بأنفسهن من النوافذ المرتفعة فلقين حتفهن ، ولهذا فهو يحملها مسئولية موتهن(١) .

وهكذا يتضح التناقض فى أقوال بروكوبيوس ، ففى الوقت الذى يتهمها فيه بالإتجار فى أعراض النساء ، يوضح انها تحاول ابعاد النساء الساقطات بالقوة عن ممارسة هذه المهنة وارسالهن إلى قصر التائبات .

والواقع أننى اتفق مع المؤرخ فازيلييف Vasiliev الذى يؤكد أن بروكوبيوس كان حريصاً على أن يسىء إلى سمعة جستنيان وثيودورا ولهذا فهو راو مغرض يجب أن نتقبل روايته بشىء من الحذر(٢) .

وقد أتاح لها الدخل الضخم الخاص بها ، اعداد جهاز سرى يخضع لسلطانها ، وبلغ بها الأمر أحياناً انها كانت تحبط أعمال وكلاء الإمبراطور ، ثم لا يفوتها بعد ذلك أن تسترضى جستنيان . وكان ذووا الحظوة لديها هم وحدهم الذين تولوا مناصب ولاة المدن وقادة الجند والبطاركة والبابوات ،

---

(1) Procopuis, Historia Arcana, P 17.
Bury : History of the later Roman Empire, pp. 21 - 32.

(1) Vasiliev : History of the Byzantine Empire, vol, 1, p. 132.

أما أعداؤها فكانوا يعزلون أو يقضى عليهم . ويقول المؤرخ شارل ديل إن ثيود ورا اتصفت بالتطرف الشديد فى علاقاتها فكانت لا تعرف الحد الوسط . فهى إما شديدة العداء أو شديدة الود .(١) أما المؤرخ موص فيقول إن إلزامها لرجال البلاط السجود أمامها وجعل ذلك من المراسم الإمبراطورية . وفى الوقاحة المتعمدة التى كانت توجهها إليهم . تعويضاً وانتقاماً لنفسها من المعاملة المهينة التى لقيتها من أبناء طبقتهم(٢) .

وقد برز نفوذها الهائل فى المسائل الدينية . وقد سبق أن أوضحت أنها كانت تميل إلى الكنيسة المونوفيزيتية الآخذة بمذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، وكان جستنيان يدين بمذهب الطبيعتين ، ويوم تعرضت الكنيسة المونوفيزيتية للإضطهاد على يده ، هرع إلى ثيود ورا رجال الدين والرهبان من أصحاب هذا المذهب المونوفيزيتى وقد بذلت لهم ثيود ورا الحماية . وعملت جاهدة على إخفائهم بشتى الوسائل ، ومن طريف ما يذكر فى هذا المجال ، أن أحد هؤلاء وهو البطريرك انثيموس بحث عنه جستنيان فى كل مكان لمحاكمته على هرطقته دون أن يعثر له على أثر وبعد وفاة ثيودورا فى عام ٥٤٨م ، دخل جستنيان إلى جناحها بالقصر الإمبراطورى لأمر ما . وإذا به وجهاً لوجه أمام البطريرك انثيموس ، واتضح أن ثيودورا قد خبأته فى إحدى الغرف الداخلية بجناحها الخاص بالقصر الإمبراطورى لمدة اثنى عشرة سنة(٣) .

---

(1) Diehl : justinian's Government in the East, in C.M.H. ed. Bury, great Britain, 1976, vol II, p. 26.

(٢) موص : ميلاد العصور الوسطى ، ص ١٧٢ .

(3) Diehl : justinian's Government in the East, p. 45.
Runciman : Byzantine Civilisation. p. 191.

ومهما يكن . فإنه مما لا جدال فيه أن ثيودورا كانت أبعد نظراً وأكثر إدراكاً من جستنيان للخطر السياسى الذى تتعرض له الملكية إذا اضطرت الأقاليم الرئيسية إلى التمرد بسبب اضطهاد عقائدها الدينية ، وبفضل مشورة ثيودورا انتهجت الدولة فى أنسب الأوقات سياسة التسامح وتقديم التنازلات التى كانت ضرورية لمنع وقوع هذه الكارثة .

وهكذا أثبتت ثيودورا كفاءة ممتازة ومقدرة كبيرة فى تصريف شئون الإمبراطورية . ويعود إليها الفضل فى احتفاظ جستنيان بعرشه بعد أن وقفت بحزم وصمود أمام تلك الزوبعة التى كادت أن تقضى عليه والتى تمثلت فى الفتنة المعروفة باسم نيقا Nika كما سيتضح من عرضنا للأحداث المقبلة .

أما عن نارسيس (٤٧٨ – ٥٧٣م) فقد ولد فى إرمينيا . وكان طواشياً ضئيل الحجم . ولكنه لطيف وأنيق المظهر . وكان فى البداية رئيساً للطواشية Sacellarius فى الحرس الإمبراطورى . ثم أصبح كبير الحجاب : Praepositus Sacri Culiculi ونظراً لأنه كان طواشياً ، فقد كان لا يطمع فى العرش الإمبراطورى ، وكان ذلك سبباً فى حسن العلاقات بينه وبين جستنيان .

وقد شارك نارسيس فى القضاء على فتنة نيقا فى ٥٣٢ . كما شارك فى الحروب التى قام بها جستنيان فى إيطاليا ضد القوط الشرقيين مع زميله بليزاريوس . وفى عام ٥٣٩ استدعى نارسيس إلى القسطنطينية ، ثم غادرها فى صيف ٥٥١ على رأس القوات التى ذهبت إلى البلقان لمقاتلة قبائل الهون والجبيد واللومبارد . وفى نفس العام ذهب إلى إيطاليا لمواصلة القتال ضد

القوط الشرقيين بقيادة زعيمهم توتيلا Totila الذى هزمه نارسيس ، ثم واصل حروبه فى شمال إيطاليا ضد الألمان والفرنجة والبرجنديين الذين هاجموا شمال إيطاليا ، وأقر السيادة الإمبراطورية هناك ، وحكم إيطاليا وأبدى الكثير من العنت والظلم تجاه الأهالى ، كما تشدد فى جمع الضرائب منهم ، وفى عام ٥٧٦ استدعاه الإمبراطور جستين الثانى ، الذى عاقبه بعد أن اتهمه بأنه السبب فى إغراء اللومبارد على مهاجمة شمال إيطاليا. على أن ما مر به من أحداث فى أواخر حياته لم يحجب عن الأنظار ما بذله من جهود فى خدمة الإمبراطورية وخاصة أثناء حياة الإمبراطور جستنيان(١) .

وبالنسبة لبليزاريوس ، فهو يعتبر من أشهر القادة فى التاريخ البيزنطى كله ، ولد فى عام ٥٠٥م . وكان صديقاً للإمبراطور جستنيان ، كما أن زوجته أنتونينا Antonina كانت صديقة للإمبراطورة ثيودورا . وقد بدأ بليزاريوس يلمع فى ميدان العسكرية فى موقعة دارا عام ٥٣٠م . ثم عين قائداً للشرق ، وفى عام ٥٣٢ تمكن بالتعاون مع نارسيس من القضاء على فتنة نيقا ، ثم أرسله جستنيان فى عام ٥٣٣ إلى شمال إفريقية حيث تم له القضاء على مملكة الواندال بها ، وأسر زعيمهم وعاد به إلى القسطنطينية ، وبعد الاحتفال بانتصاره ، أرسل إلى إيطاليا فى محاولة استعادتها للإمبراطورية من يد القوط الشرقيين على أن العلاقات لم تلبث أن ساءت بينه وبين الإمبراطور جستنيان بعد أن علم أن القوط الشرقيين فى إيطاليا يرغبون فى تتويج بليزاريوس امبراطوراً عليهم ، فاستدعاه جستنيان إلى القسطنطينية

---

(١) Vasiliev : op. cit., vol. I. pp. 137, 173.
Ostrogorsky : op. cit. pp. 70 — 73.
J. M. Hy. : Narses, Encyclopedia Britannica, 1965, U. S. A., vol. 16, p. 35.

بحجة الحاجة إليه لقتال الفرس الذين هاجموا الحدود الشرقية للإمبراطورية على أن معاودة القوط الشرقيين للحرب ضد النفوذ الإمبراطورى اضطر الإمبراطور جستنيان لإرساله من جديد لإيطاليا ، ثم استدعاه فى عام ٥٤٩ . وفى عام ٥٥٩ قاتل بلبزاريوس البلغار الذين هاجموا أسوار العاصمة البيزنطية وأجلاهم عنها .

ونظراً لشجاعة بلبزاريوس فى القتال وسيطرته التامة على الجنود رغم تعدد عناصرهم ، ولكرمه وإنسانيته ، فقد تعلق به الجنود لدرجة كبيرة أثارت مخاوف جستنيان ، مما جعله لا يطمئن إليه ولا يثق به . ومن ثمة فقد اتهمه بالتآمر ضده وتم القبض عليه وسجنه فى عام ٥٦٢ م .

ويقال إن بلبزاريوس قضى الفترة الأخيرة من حياته فى فقر وبؤس ، حتى اضطر للتسول بعد أن فقد بصره . ولكن هذه الرواية غير حقيقية ؛ لأن الثابت أن جستنيان عفى عنه فى عام ٥٦٣ م وقربه إليه حتى وفاة الإمبراطور فى ٥٦٥(١) .

وبخصوص تريبونيان Tribonianus ، فقد ولد فى إقليم بامفيليه ، على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، وفى البداية اشتغل بمهنة المحاماة فى القسطنطينية . وكان نبوغه ومهارته فى المحاماة مما لفت نظر جستنيان إليه ، فقر به وصار تريبونيان يتمتع بعطف الإمبراطور ، الذى عينه فى ٥٢٨ فى منصب رئيس دواوين الموظفين ...

---

(1) Gidbon : op. cit., vol 4, pp. 360 - 364.
Vasiliev : op cit. vol. I, pp. 135 — 137.
Ostrogorsky : History of the Byzantine State, pp. 70 — 72.
T. A. R. : Belisarius, Encyclopedia Britannica, U. S. A., 1965. vol. 3, p. 438.

Magister officiorum وفى سنة ٥٣٠ م عينه وزيراً للقضاء ...
Quaestor Sacripalatii « حارس القصر المقدس » . وفى عام ٥٣٢ عزله من هذا المنصب تنفيذاً لرغبة الجماهير أثناء فتنة نيقا . لكنه أعاده لمنصبه مرة أخرى فى عام ٥٣٤م . وظل يشغل هذا المنصب حتى وفاته فى ٥٤٥م .

وقد هاجم المؤرخ بروكوبيوس تريبونيان واتهمه بالرشوة والإلحاد . ويبدو أن اهتمام تريبونيان بالفلسفة . والفلك . والتقويم كان وراء هذا الإتهام . على أن الإهتمام الأكبر لتريبونيان كان بالقانون وقد أوكل إليه جستنيان مهمة الإشراف على الإصلاحات التشريعية التى تمت فى عهده(١) .

أما يوحنا القبدوقى . فهو مواطن من مدينة قيصرية فى إقليم قبادوقيا بدأ حياته كرجل دين فى خدمة رئيس العسكر . وبطريق الصدفة تعرف به جستنيان . فعينه فى وظيفة (مراقب الحسابات) Logothete لمراقب مقيمى وجامعى الضرائب فى الولايات . ولم يلبث أن رقى حتى أصبح يشغل وظيفة (الوالى البريتورى) Praetorian prefect وكان ذلك قبل سنة ٥٣١م .

ولم يكن يوحنا يملك المؤهلات الأساسية التى تؤهله للقيام بواجبات هذه الوظيفة . إذ أنه لم يتلق قدراً كافياً من التعليم . وبالكاد كان يقرأ ويكتب . لكن ذلك لم يكن يهم الإمبراطور جستنيان فى شىء . طالما أن يوحنا كان يمتلك المؤهلات الأكثر أهمية فى نظر الإمبراطور . فقد كان

---

(1) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, pp. 70 - 75.
Vasiliev : op. cit., vol I. pp. 142 - 143.
Runcinan : Byzantine Civilisation, pp. 38, 75.
J. A. C. T. : Tribonian, in Encyclopedic, Britarnica vol 22 p. 466.

موهوباً بل داهية فى إبتكار الأساليب المختلفة من أجل جمع المال من الشعب المغلوب على أمره . وكان يوحنا يوصف بأنه من أذكى وأجرأ الرجال فى عصره . كما وصف كذلك بأنه معدوم الضمير ، ففى الوقت الذى كان يمد الإمبراطور بما يحتاجه من المال جمع لنفسه ثروة طائلة . فقد كان « لا يخشى الله ولا يحترم الرجال » .

وقد قاست الولايات وخاصة ولايتى ليديا lydia وقيليقية Cilicia من أساليب الابتزاز التى مارسها يوحنا القبدوقى ومساعده الذى يدعى يوحنا أيضاً والذى أطلق عليه الأهالى اسم Maxilloplumacivs أى (المنتفخ الاوداج) وقد زار يوحنا فيلادلفيا Philadelphia . عاصمة ليديا . ولم يترك اناء أو زوجة أو طفل أو صبية فى منزل إلا واستولى عليهم .

وقد جنى جستنيان ثمار سياسة الابتزاز هذه . فأمده يوحنا القبدوقى بما احتاجه من الأموال ، ولذلك كان الإمبراطور على استعداد لأن يغمض عينيه ويتغاضى عن أسلوب يوحنا فى الإبتزاز .

لكن الإمبراطورة ثيودورا كانت تكن الكراهية ليوحنا . وربما يرجع ذلك إلى تعاطفها مع الطبقات الفقيرة التى طحنها يوحنا وسحقها تحت وطأة المطالبة المستمرة بالأموال وقد أخذت ثيودورا توضح لجستنيان أن استمرار يوحنا القبدوقى فى ظلمه للأهالى على هذا النحو سيعرض مركز الإمبراطور للخطر .

وهكذا ، وبإيعاز من ثيودورا نفى يوحنا القبدوقى إلى قزيقوس على ساحل البحر الأسود ، وحدث أن قتل أسقف قزيقوس وكان يدعى Eusebius وقد اتهم يوحنا بقتله نظراً لما كان بين الرجلين من عداء .

وقبل أن يتم القبض على يوحنا ، نجح فى الفرار إلى مصر ولكن السلطات البيزنطية تتبعته إلى هناك وتم القبض عليه وإرساله إلى القسطنطينية لمحاكمته ، وقد حاولت ثيودورا جاهدة أن تلصق به تهمة القتل حتى يتم قتله والتخلص منه ، ولكن نظراً لعدم ثبوت الأدلة عليه فقد سجن فقط ، وظل بالسجن حتى وفاة ثيودورا فى ٥٤٨ . وبعد وفاتها أطلق جستنيان سراحه وعاش بالعاصمة البيزنطية بعد أن انخرط فى سلك رجال الدين(١) .

كان هؤلاء أهم مستشارى ومساعدى الإمبراطور جستنيان ،الذى مكنته بصيرته النافذة من اكتشاف مواهب كل واحد منهم فى ميدان تخصصه ، وقد اعتمد الامبراطور على مشورتهم وجهودهم لتنفيذ الإنجازات الضخمة التى تمت فى عهده . وقد ظهرت جهودهم بصورة واضحة منذ بداية عهده . وأثناء الفتنة التى حدثت فى عام ٥٣٢م .

تعرف هذه الفتنة باسم Nika (٢) وهى كلمة يونانية معناها (النصر) كان المتظاهرون يهتفون بها أثناء ثورتهم . وإذا بحثنا عن أسباب هذه الفتنة وجدنا أنها أسباباً متعددة . بعضها دينى نشأ عن اضطهاد من اعتنق مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح ، وبعضها سياسى ، إذ أن أبناء أخ الإمبراطور السابق انستاسيوس اعتبروا جستين وجستنيان مغتصبين لحقهم فى الحكم ، وبعض هذه الأسباب كان عاماً يتعلق بثقل عبء الضرائب على الشعب . ذلك أن جستنيان قد اعتمد على تريبونيان فى القضاء . ويوحنا القبدوقى فى الإدارة ، وطغى الإثنان وتجاوزا الحد فى إبتزاز الأموال ، وفى فرض

(1) Bury : History of the later Roman Empire, vol 2, pp. 36 - 37 58 - 59.
Barker : justinian and the later Roman Empire, pp. 72 - 75.

(٢) Nika هى آلهة النصر عند اليونان ، وتمثل عادة على صورة فتاة مجنحة تحمل بأحدى يديها أكليلا وباليد الأخرى سعفة نخيل .

الضرائب على الشعب الذى انتفض ثائراً على هذه الأوضاع ، وكان أكثر الثائرين هم أفراد حزبى الزرق والخضر ، ولمعرفة المزيد عن هذين الحزبين ينبغى العودة قليلا إلى الوراء . حين أسس الإمبراطور قسطنطين الأكبر مدينة القسطنطينية فى عام ٢٢٣ م . أنشأ بها ملعباً كبيراً عرف باسم الهيبدروم Hippodromius أصبح مسرحاً للسياسة ولجميع مظاهر الحياة العامة فى العاصمة . وكان بالملعب الكاثيسمة Kathisma أى لوج الإمبراطور ، وكان العرش العظيم الذى أقيم فى وسط هذا اللوج ، هو المكان الذى يطل منه الإمبراطور على شعبه فى مختلف المناسبات ، وكان يقام فى الهيبدروم سباق للخيل ، وكان سائقو عربات السباق يتزينون بواحد من أربعة ألوان ، الأخضر أو الأزرق أو الأبيض أو الأحمر . والغالب أنها تقابل العناصر الأربعة المعروفة وهى : الأرض (الخضراء) والماء (الأزرق) والهواء (الأبيض) والنار (الحمراء)(١) .

وبمرور الوقت أصبحت هذه الأحزاب الرياضية أحزاباً سياسية واجتماعية ، وانضم البيض إلى الخضر ، والحمر إلى الزرق . فأصبح فى العاصمة حزبان فقط هما : الخضر والزرق . وكان الخضر من الطبقات السفلى الذين كانت تشملهم الإمبراطورة ثيودورا بعطفها ، على حين كان الزرق يمثلون الطبقات العليا فى المجتمع البيزنطى .

ورغم أن هذين الحزبين كانا متنافسين ، إلا أنهما اتحدا ضد جستنيان وقاما بالثورة ، وانطلقا إلى الهيبدروم ، وخرجت جموعهم منه يخربون ويحرقون ويصيحون « نيقا » ، وتعرضت أجمل المبانى وأروعها للإحراق

Vasiliev : History of the Byzantine Empire, Vol. I, pp. 144— 145 (1)

والتدمير ، وكانت كنيسة آيا صوفيا ضمن تلك المبانى . واضطر جستنيان لمفاوضتهم ، وعزل تريبونيان ويوحنا القبدوق ، ولكن الثائرين لم يهدأوا ، بل نادوا بابن أخ الإمبراطور السابق انستاسيوس امبراطوراً .

وعندما تحرج مركز جستنيان جمع مستشاريه وشاورهم فى الفرار من العاصمة ، وأجمعوا على ذلك . لكن الإمبراطورة ثيودورا خالفتهم فى الرأى وواجهت الموقف فى صمود وشجاعة . وقد أورد المؤرخ بروكوبيوس نص العبارة التى خاطبت بها ثيودورا جستنيان . قالت : « يستحيل على الفرد وقد جاء إلى هذه الدنيا ، أن يبقى حياً أبد الدهر ، فلا بد أنه سوف يموت ، ولكن من يمارس السلطة لا يطيق النفى ، وإن ترغب أيها الإمبراطور أن تنقذ نفسك ، فليس هناك ما يمنعك ، فالبحر قريب ، والسفن مجهزة ، والمال موفور . ولكن تريث قليلا وسل نفسك : ألن تندم بعد فرارك ووصولك إلى ملجأ أمين فتود لو كنت آثرت الموت على الأمان ؟ أما أنا فلا زلت أتمسك بالمثل القديم الذى يقول : « إن العباءة الإمبراطورية هى خير الأكفان »(١) .

وقد تأثر جستنيان بهذا الموقف الشجاع من جانب ثيودورا ، فأوعز إلى نارسيس بأن يقضى على وحدة المتظاهرين ، فتم التفاهم بينه وبين الزرق ، فى حين أمر بليزاريوس بأن يخضعهم بالقوة . ففاجأهم فى الهيدروم وفتك

---

(1) Procopius : De bello persico, ed Havry, vol. 1, p. 130.
Ostrogorsky : op. cit. pp. 72 — 73.
Vasiliev : op. cit. pp. 154 — 157
Bury : op. cit., p. 45
Barker : op. cit, p. 88

بهم فتكاً ، وقتل آلافاً منهم ، أما أقرباء انستاسيوس فقد تم إعدامهم ، وبذلك رسخت أقدام جستنيان وثبتت سلطته(١) .

---

(١) بخصوص فتنة نيقا أنظر المراجع التالية :

Barker : justinian and the later Roman Empire, pp. 82 - 91.
Bury : History of the later Roman Empire, vol. 2, pp. 39 — 48.
Diehe:justinian The Imperial restoration in the west, in c. M.H. ed. Bury, vol 11, pp. 9 - 11.
Ostrogorsky : op. cit. pp. 72 — 73.
Vasiliev : op. cit., pp. 154 — 157.

أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ص ١٧٠ – ١٧١ .
عمر كمال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص ص ٤٦ – ٤٨ .
العريني : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص ص ٦٩ – ٧١ .

الفصل الثانى

جستنيان والمثالية الرومانية

- البرابرة الجرمان وكيفية استيلائهم على الممتلكات الرومانية بالغرب .
- استرجاع جستنيان لولايات شمال إفريقية ، إيطاليا ، وأسبانيا .
- الصراع مع الفرس .
- الأخطار التى هددت الجبهة الشمالية .

لقد اتجه جستنيان بأنظاره نحو أقاليم الإمبراطورية فى الغرب ، التى كانت تحت أيدى البرابرة الجرمان ، وبذل كل جهده فى سبيل استرجاع هذه الأقاليم من جديد لسلطان الإمبراطور الرومانى الشرقى ، وكان فى سعيه الحثيث هذا وتصميمه على استرجاع هذه الأقاليم إنما نحقق بذلك المثالية الرومانية(١) .

وقبل أن نعرض للجهود التى قام بها جستنيان لاسترجاع ممتلكات الإمبراطورية الغربية التى استولى عليها الجرمان ، يجدر بنا أن نأخذ فكرة سريعة عن أصل هؤلاء الجرمان ، وعن كيفية سقوط هذه الأجزاء من الإمبراطورية الغربية فى أيديهم .

الواقع أن المعلومات التاريخية عن أصلهم قليلة ، ليست أكثر من أنهم أقوام حلوا أوائل عهدهم بالقارة الأوروبية ونزلوا بشبه جزيرة سكنديناوة ، حيث بقى فريق تفرعت عليه الأمم السويدية والنرويجية والدانية الحالية ، أما الفريق الآخر ، فقد أخذ فى التجول والترحال فى الجنوب الغربى عبر ألمانيا سعياً وراء العيش أو الجو المعتدل ، أو حباً فى المغامرة والحرب ، حتى وصلت فئة منهم إلى حوض نهر الراين ، كما وصلت فئة أخرى إلى ضفاف نهر الدانوب وسواحل البحر الأسود . وهذان التياران هما اللذان اصطدمت بهما الدولة الرومانية(٢) .

وكان عنصر القوط من تلك الأقوام التى استقرت شمالى البحر الأسود ، وهناك انقسموا إلى قسمين : شرقيون وغربيون ، فانتشر الشرقيون فوق

---

(١) أنظر الفصل الأخير من هذا البحث ص ٨٨ — ٩٠ .

(٢) فيشر : تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ص ١٥ — ١٦ .

السهول الجنوبية لروسيا ، فى حين اتجه الغربيون نحو داشيا والبلقان حيث سمح لهم بالاستقرار فى هذه الجهات .

وقد نتج عن احتكاك القوط بالرومان ، أن اعتنق القوط المسيحية ولكن فى مذهبها الأريوسى عن طريق مبشر منهم يدعى ولفلاس Wulfilas تلقى تعليمه بالقسطنطينية واعتنق المسيحية على المذهب الأريوسى مما أدى إلى إنتشار الأريوسية بين القوط ، ثم بين غيرهم من طوائف الجرمان مثل : الواندال والبرجنديين واللمبارديين(١) . وسيكون هذا المذهب الأريوسى من أهم الأسباب فيما حل بالقوط والواندال من متاعب ، وحال دون حسن التفاهم بينهم وبين سكان البلاد الرومان الذين نظروا إليهم على أنهم سادة كفرة ينبغى التخلص منهم ، وسهل على جستنيان مهمة استعادة ولايات الإمبراطورية .

وكانت بداية الاشتباكات العسكرية بين القوط الغربيين والرومان فى النصف الثانى من القرن الرابع حين ضغطت عليهم قبائل آسيوية رعوية هى قبائل الهون ، فطلب القوط الغربيون من الإمبراطور فالنز (٣٦٤ — ٣٧٨م) السماح لهم بعبور الدانوب ليسلموا من خطر الهون . ورغم استجابة الإمبراطور لهذا الطلب — وخاصة ليتخذ منهم ستاراً يحمى به حدود الإمبراطورية من خطر الهون — إلا أنهم لم يلبثوا أن ثاروا وأوقعوا بفالنز الهزيمة وذبحوه فى سهول أدرنة فى ٣٧٨م . ولم يجد خليفته الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير (٣٧٨ — ٣٩٥م) بدا من محالفتهم ، وسمح لهم بالإقامة

---

(١) Moss : The Birth of the Middle Ages, p. 44
The goths, p. 61.

فى شمال تراقيا ، وقد تمتع القوط بسلطتهم المطلقة فى هذا الإقليم ، كما أعفوا من الضرائب مقابل تعهدهم بتقديم الخدمة العسكرية للإمبراطورية(١) .

وقد ظل الهدوء يسيطر على العلاقات بين القوط الغربيين والإمبراطورية الرومانية حتى وفاة الإمبراطور ثيودوسيوس فى عام ٣٩٥ وانقسام الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين : شرقى ، كان من نصيب أركاديوس ، وغربى ، كان من نصيب هونوريوس .

وعندئذ ثار القوط الغربيون من جديد ، وجرت وقائع كثيرة بينهم وبين جيوش الإمبراطورية(٢) ، حتى اقتحموا روما فى ٤١٠ م فنهبوها وأحرقوا بيوتها ، وعندئذ وجد الإمبراطور هونوريوس الذى كان فى عاصمته رافنا أنه لكى يبعد القوط الغربيين عن إيطاليا ، لا بد من أن يعطيهم إقليما من أقاليم الإمبراطورية ، فمنحهم إقليم أكوتين من اللوار حتى البرانس ، وكان هذا الإقليم فى عداد الأقاليم الضائعة على الإمبراطورية نظراً لوقوعه تحت سيطرة جموع كثيرة من الجرمان مثل : الواندال واللان والسويفى ، وهكذا دخل القوط الغربيون فى صراع مرير مع هذه العناصر حتى تمكنوا فى النهاية فى عام ٤٢٩ من تخليص المنطقة الممتدة من تولوز على نهر الجارون إلى أسبانيا واستخلاصها لأنفسهم ، وظلوا بها حتى عصر جستنيان(٣) .

---

(1) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, p. 48.

(٢) بشأن المزيد من التفاصيل انظر :

Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 116.

Lot : The End of Ancient World, p. 205.

C.M.H. Ed Bury, vol. I, pp. 260 — 279.

سعيد عاشور : تاريخ أوربا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ص ٦٦ — ٧١ .

(٣) Lot : op. cit., p. 205

أما بالنسبة للواندال فتحت زعامة ملكهم جيزريك Gaiseric خرجوا من أسبانيا سنة ٤٢٩ بعد أن احتلها القوط الغربيون ، وعبروا البحر إلى شمال إفريقية حيث ساعدتهم الظروف على الاستيلاء على المنطقة من طنجة حتى طرابلس ، وتمكنوا كذلك من الاستيلاء على قرطاجة ، أهم مدينة فى الغرب بعد روما فى سنة ٤٣٩ م .

وقد عامل الواندال أهالى البلاد معاملة سيئة للغاية ، حتى اصبح لفظ الواندالية Vandalism فى اللغات الأوروبية الحديثة يعنى الهمجية والوحشية ، فقاموا بمصادرة ممتلكات الأهالى ، وصادر جيزريك كذلك – وهو الملك الأريوسى – ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية فى شمال إفريقية ، واضطهد رجال الدين الكاثوليك ، كما لجأ إلى العنف والقسوة لجمع الضرائب من الأهالى ، مما جعل الإستياء عاماً بينهم ضد هؤلاء الواندال الكفرة(١) .

ولم يقنع الواندال بما سيطروا عليه من مناطق فى شمال إفريقية ، وإنما أنشأوا لأنفسهم أسطولا بحرياً ، ولم يمض إلا القليل من الزمن حتى أصبحوا أعظم قوة بحرية فى غرب البحر الأبيض المتوسط وأخذوا فى الإغارة على جزر البليار وسردينيا وكورسيكا وصقلية(٢) .

وفيما يتعلق بالقوط الشرقيين فقد ظلوا مقيمين فى جنوب روسيا وخضعوا للهون قرابة سبع وسبعين سنة ، حتى توفى آتيلا زعيم الهون فى

(1) Oman : The Dark Ages, pp. 7 — 9.
(2) C. M. H., ed. Bury, vol. I, pp. 306 — 308.

فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ج ١ ، ص ٣١ .

سنة ٤٥٣ وانهارت امبراطوريته ، فتحرر القوط الشرقيون من سيطرة الهون ، وأخذوا يتجولون فى منطقة البلقان تحت قيادة زعيمهم ثيودريك Theodoric وبعد أن سببوا مضايقات كثيرة ومتاعب جمة للإمبراطورية الشرقية ، وجد الإمبراطور زينو Zeno أن خير وسيلة للتخلص منهم هى أن يمنحهم إيطاليا ، التى كان يسيطر عليها Odoacer أدواكر(١) زعيم إحدى القبائل الجرمانية ، وكان قد تم له إسقاط الإمبراطورية الغربية فى عام ٤٧٦ م حين عزل آخر الأباطرة الرومان ويدعى رومولوس أجوسطولوس Romulus Augustulus ونفاه إلى جنوب إيطاليا ، وخصص له معاش كاف ، وحكم إيطاليا كنائب عن الإمبراطور الشرقى زينو ، واتخذ لقب «سيد الجند فى إيطاليا» Magister militum per Italiam (٢) .

وهكذا اتجه القوط الشرقيون فى سنة ٤٨٩ م ، إلى إيطاليا ، حيث نازلوا أدواكر Odoacer ، وأنزلوا به عدة هزائم ، وحاصروه فى رافنا ، ثم اقتحموها وقتلوه سنة ٤٩٣ م ، وحكم ثيودريك زعيم القوط الشرقيين إيطاليا باسم الإمبراطور البيزنطى(٣) .

---

(١) يقول الدكتور نبيه عاقل فى كتابه «الإمبراطورية البيزنطية» صفحة ٣٤ :
«وشهد حكم زينو تداعي وسقوط الجزء الغربى من الإمبراطورية . فى الوقت الذى عاد فيه إلى العرش بعد مؤامرة إقصائه أعلن إمبراطور الجزء الغربى وكان اسمه أدواكر أنه يتنازل عن كرسيه ويعتبر نفسه تابعاً لإمبراطور الجزء الشرقى» .
ولكن هذا غير صحيح ، فأدواكر لم يكن إمبراطوراً رومانياً ، ولكنه كان زعيم أحد جموع البرابرة الجرمان ، كما أنه لم يحكم الجزء الغربى كله ، وإنما اقتصر حكمه على إيطاليا فقط .
= انظر المراجع التالية :

Bury : History of the Later Roman Empire, vol. I, p. 40 6.
C.M.H. ed. Bury, vol. I, pp. 430 — 433.

(2) Ostrogorsky : op. cit., p. 62.

(3) Ostrogorsky : op. cit., pp. 62 — 63.
Lot : The End of the Ancient World, p. 240.

وكان ثيودريك يحكم إيطاليا كأنه حاكماً رومانياً ، وليس زعيماً بربرياً ، واتخذ رافنا عاصمة لمملكته فى إيطاليا ، وبفضله تمتعت إيطاليا بفترة سلام امتدت لمدة ست وثلاثين سنة ، فوسع حدودها ، وشمل مجلس الشيوخ الرومانى برعايته واحترامه ، ولم يصدر تشريعاً أو يسك عملة إلا وعليها إسم الإمبراطور البيزنطى ، كما أنه وهو الملك الأريوسى لم يسىء إلى الأوضاع الدينية فى روما ، أما الوظائف المدنية الكبرى فى الدولة فإن ثيودريك لم يكتف باختيار مجموعة من الموظفين الإيطاليين الأكفاء لها فحسب ، بل حرص على أن يكون هؤلاء الموظفون من سلالة النبلاء ، وطبقة السناتو الذين كانوا يديرون شئون الإمبراطورية الرومانية فى سالف مجدها . ولكن رغم كل جهود ثيودريك إلا أن الاختلاف فى المذهب ظل يحول دون حسن التفاهم بين الإيطاليين والقوط الشرقيين(١) .

وهكذا نجح البرابرة الجرمان فى تأسيس ممالك لهم على أنقاض الإمبراطورية الغربية ، وعند اعتلاء جستنيان للعرش كان هناك مملكة القوط الغربيين فى أسبانيا ، والقوط الشرقيون يحكمون فى إيطاليا ، والوندال يسيطرون على شمال إفريقية . ومملكة الفرنجة فى غالة ، فى حين تغلب الإنجلز والسكسون على بريطانيا(٢) .

---

(1) Lot : op. it. p. 241.

فيشر : جـ ١ ، ص ص ٣٤ — ٣٦ .

سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ص ٨٦ — ٨٨ .

(٢) للمزيد من التفاصيل عن الفرنجة والإنجلز والسكسون ، انظر :

سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ص ٧٨ — ٨٥ — ٨٩ — ٩٢ .

فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ص ٣٨ — ٤٢ .

Hodgkin : The History of England, pp. 72 — 73, 108, 195 — 209.

C.M.H. ed Bury, vol. I, pp. 398 — 381. Vol. 3, p. 540.

وقد بدأ جستنيان بالوندال فى شمال إفريقية ، والواقع أن إرسال حملة ضد الواندال لم يكن بالأمر البسيط ، وذلك لبعد المسافة ، إذ كان لزاماً على الإمبراطور أن ينقل جيشه الضخم عن طريق البحر . والمعروف عن الواندال أنهم يمثلون قوة حربية خطيرة وذلك لبراعتهم فى فنون القتال البحرى وامتلاكهم لأسطول قوى ، ولذلك كان جستنيان متردداً فى إرساله لهذه الحملة وقد أوضح بروكوبيوس فى كتابه عن حرب الواندال De Bello Vandalico أن الإمبراطور عقد اجتماعاً بالقصر الإمبراطورى ، وناقش مع مستشاريه مسألة الحملة ضد الواندال ، وقد أوضح له هؤلاء المستشارون مخاوفهم وشكوكهم فى نجاح الحملة التى كانت فى رأيهم تمثل مخاطرة كبيرة ، ورغم هذا كله فقد كانت رغبة الإمبراطور جستنيان فى استرجاع أملاك الإمبراطورية الرومانية ، أقوى من كل المخاوف وكل الشكوك ، فأصر على إرسال هذه الحملة(١) .

وربما شجع جستنيان على إرسال هذه الحملة ، إدراكه أن الواندال قد فقدوا ما عرف عنهم من العنف نظراً لتأثرهم بالحضارة الرومانية ، كذلك لاختلاف المناخ الذى عاشوا فيه فى شمال إفريقية عن مناخ بلادهم فى شمال أوروبا . يضاف لذلك تشجيع اللاجئين من رجال الدين الذين فروا من وجه الواندال ، والذين أكدوا لجستنيان أن حملته ستلقى كل ترحيب وتعاون من جانب الأهالى فى شمال إفريقية ، نظراً لكراهيتهم للواندال الذين يختلفون معهم فى المذهب(٢) .

---

(1) Procopius : De Bello Vandalico, English Trans. by Dewing, vol. II, pp. 90 — 101.

(2) Vasiliev : op. cit., vol. I, pp. 135 — 136.

وكان جستنيان يدرك طبيعة العداء بين الممالك الجرمانية ، هذا العداء الذى لن يتيح لها الإتحاد سوياً لمقاومته ، فقد كان الواندال على علاقات سيئة مع القوط الشرقيين فى إيطاليا ، وكان القوط الشرقيون فى حالة نزاع مع دولة الفرنجة فى غالة ، كما أن بعد المسافة بين القوط الغربيين فى أسبانيا وباقى ممالك الجرمان . لن يتيح لهم القيام بدور فعال فى الحرب بينهم وبين جيوش جستنيان ، وبالتالى تتمكن هذه الجيوش من القضاء على كل عدو على حدة(١) .

وفى يونية سنة ٥٣٣ م ، خرجت الحملة المكونة من ١٥ ألف جندى تقلهم اثنتان وتسعون سفينة حربية (درومونة) ، وكان على رأسى تلك الحملة القائد بليزاريوس ، وفى سبتمبر من نفس العام وصل بليزاريوس بحملته أمام قرطاجة عاصمة الواندال ، حيث دخل فى معركتين مع جليمار ملك الواندال أحرز فيهما انتصاراً حاسماً ، ودخل قرطاجة حيث قوبل بالترحاب الحار من الأهالى . وهكذا قضى على الواندال ، فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة ، وعاد بليزاريوس إلى القسطنطينية ، وصحب معه ملك الواندال أسيراً . وفى العاصمة البيزنطية تم الاحتفال بهذا الانتصار ، وعين جستنيان أحد القادة البيزنطيين ويدعى سلومون Solomon حاكماً على شمال إفريقية ، ولكن هذا الحاكم لقى مقاومة شديدة للنفوذ البيزنطى من قبائل البربر مما تطلب منه أن يخوض نضالا مريراً ضدهم انتهى بقتله على أيديهم . واستمرت الحرب مشتعلة بين البيزنطيين والبربر مدة طويلة ، حتى تم للقائد البيزنطى يوحنا تريجليت John Triglite أن يقضى على مقاومة البربر ، وأن يوطد

---

(1) Vasiliev : op. cit., vol. I, pp. 135 — 136.

النفوذ البيزنطي هناك ، وكان ذلك في عام ٥٤٨ م(١) .

وهكذا تم لجستنيان استعادة إقليم من الأقاليم التي احتلها البرابرة الجرمان ، كذلك تمكن من استعادة جزر البليار وسردينيا وكورسيكا ، وكان لهذا صداه الطيب في نفسه ، مما جعله يعلن في فخر واعتزاز : « أن الله جلت قدرته تداركنا برحمته ، فلم يرجع إلينا فحسب إفريقية وأقاليمها ، بل أعاد إلينا أيضاً عباءتنا الإمبراطورية التي أخذها الواندال حينما استولوا على روما »(٢) .

بعد ذلك اتجهت أنظار جستنيان صوب إيطاليا التي كان يحكمها القوط الشرقيون ، وقد استغل جستنيان الخلافات والصراع الداخلي بين القوط ليتدخل ويستعيد هذه الولاية . فبعد وفاة ثيودريك في عام ٥٢٦ م خلفه حفيده أثالاريك .. Athalaric وتولت أمه آمالاسونثا Amalasuntha تصريف شئون الحكم كوصية على ابنها . وكانت هذه الوصية مثل أبيها ثيودريك من المعجبين بالحضارة البيزنطية ، وحرصت على إقامة علاقات طيبة مع بيزنطة . ولكن هذا لم يعجب زعماء القوط الذين لم يلبثوا أن قتلوا آمالاسونثا ، وبذلك هيأوا الفرصة لجستنيان للتدخل ، فأرسل جيشاً إلى إيطاليا اتخذ طريق دالماشيا ، بينما أرسل أسطولا بقيادة بليزاريوس ، نزل بصقلية أولا واستولى عليها دون مقاومة تذكر ، في نفس الوقت أرسلت سفارة إلى مملكة الفرنجة في غالة (فرنسا) لكسب ودها لضمان عدم مساعدتها للقوط .

---

(1) Vasiliev : op. cit., p. 136.
Barker : op. cit., pp. 139 — 145.
Bury : History of the later Roman Emipire, vol 2, pp. 125 — 150.

(٢) Vasiliev : History of the Byzantine Empire, vol. I, p. 136.

بعد استيلاء بليزاريوس على صقلية ، اتجه إلى إيطاليا حيث تم له الإستيلاء على نابولى ، ثم دخل روما ولكنه تعرض داخلها لحصار شديد من جانب القوط ، وتمكن من اختراق هذا الحصار بصعوبة شديدة ، ثم إتجه شمالا إلى رافنا عاصمة القوط فاستولى عليها وهزم ملكهم الذى يدعى فيتيجس Vitiges وكان ذلك فى سنة ٥٤٠ م ، وأرسله بليزاريوس أسيراً إلى القسطنطينية .

لكن كثيراً من القوط لم يستسلموا ، وأعلنوا أحدهم ويدعى ILdidad ملكاً عليهم ، ولم يلبث إلا قليلا فى الحكم وخلفه Eraric ، وبعد فترة قصيرة من حكمه أعلنوا توتيلا Totila ملكاً عليهم فى خريف عام ٥٤١ م .

وقد قام توتيلا بطرد القادة الإمبراطوريين ، وسقطت مدينة تلو الأخرى فى يده ، مما تطلب أن يعيد الامبراطور جستنيان إرسال بليزاريوس إلى إيطاليا ، لكنه لم ينجح هذه المرة فى معالجة الموقف ، ولما تعددت هزائمه أمام القوط ، استدعى إلى القسطنطينية وأرسل نارسيس بدلا منه ، وقد تمكن هذا القائد الماهر من إنزال الهزيمة الساحقة بجيش توتيلا فى معركة Busta gallorum فى أمبريا Umbria وبعدها تمكن توتيلا من الفرار ، وفى عام ٥٥٤ م أى بعد عشرين عاماً من الحروب المخربة أعيدت إيطاليا وصقلية ودالماشيا من جديد إلى الإمبراطورية البيزنطية(١) .

وبقى أمام جستنيان القوط الغربيون فى أسبانيا ، فاستغل ما ثار بينهم

---

(١) بشأن الحرب ضد القوط الشرقيين أنظر :

Procopius : Bellum Gothicum, I, pp. 1 — 10.

Barker : justinian and the later Roman Empire, pp. 145 — 184.

Bury : op. cit, vol 2, pp. 151 — 286.

من صراع داخلي حول العرش . وأرسل أسطولا بحرياً فى عام ٥٥٠ م ، فنازل القوط وانتصر عليهم . واستولت القوات البيزنطية على العديد من المدن والحصون البحرية . وانتهى الأمر بخضوع الجزء الجنوبى الشرقى من أسبانيا ، بما فى ذلك قرطاجنة ومالطة وقرطبة . وهكذا امتدت الممتلكات البيزنطية من سانت فنسنت St. Vincent غرباً إلى قرطاجنة شرقاً(١) .

وقد كان من نتيجة هذه الحروب أن اتسعت رقعة إمبراطورية جستنيان ، وأصبحت تضم دالماشيا ، وإيطاليا ، والجزء الشرقى من شمال إفريقيا ، وجنوب شرقى أسبانيا ، وجزر صقلية وسردينيا وكورسيكا والبليار . وهكذا امتدت حدود الإمبراطورية من جبل طارق حتى نهر الفرات . ولكن رغم ذلك ، فإن جستنيان لم يتمكن من استعادة جميع ممتلكات الإمبراطورية الرومانية القديمة ، فما زال خارج سلطانه الجزء الغربى من شمال إفريقية ، ومعظم شبه جزيرة إيبيريا ، والأجزاء الشمالية من مملكة القوط الشرقيين — شمال جبال الألب — وكذلك لم يستطع الاستيلاء على غالة وبريطانيا(٢) .

وإذا كان جستنيان قد تمكن من إحراز هذه الإنتصارات فى الغرب ، إلا أن الموقف فى الشرق كان مختلفاً ، حيث اشتعلت الحرب بينه وبين الفرس .

Vasiliev : op. cit., vol. I, pp. 136 — 137.
Ostrogorsky : History of the Byzantine State, pp. 70 — 71.

(1) Vasiliev : op. cit., vol. I, pp. 137 — 138.
Ostrogorsky : op. cit., p. 71., Bury ; op. cit. vol 2, pp. 286— 288.

(2) Vasiliev : op. cit., vol. I, p. 138
Ostrogorsky : op. cit. p 71

أنظر كذلك الخريطة رقم (١)

ففى عام ٥٢٧ م حينما اعتلى جستنيان العرش هاجمت جيوش قباد الأول Kavadh 1 ملك فارس الأراضى البيزنطية ، واشتبكت قواته مع الجيوش الإمبراطورية بقيادة بليزاريوس الذى أحرز الانتصار على الفرس عند دارا فى ٥٣٠ ، وانتصار آخر فى عام ٥٣١ عند الفرات فى كلينيكوم Callinicum وردهم عن غزو شمال سورية .

ثم توفى قباد فى ٥٣٢ ، فعرض ابنه وخليفته كسرى الأول أنوشروان Khosrau I — الذى يعد من أشهر ملوك آل ساسان — الصلح على جستنيان ، فوافق على الفور نظراً لما كان يدور بذهنه آنذاك من مشروعات لاستعادة أقاليم الإمبراطورية فى الغرب ، وأبرمت الإتفاقية فى عام ٥٣٣ ، وكانت فى صالح البيزنطيين الذين لم يفقدوا أية ممتلكات .

على أنه أثناء انشغال جستنيان بالحرب مع القوط الشرقيين فى إيطاليا ، أرسل هؤلاء وفداً إلى الملك الفارسى كسرى أنوشروان يحثونه على قتال البيزنطيين(١) ، وذلك حتى يفتح الفرس جبهة قتال ثانية أمام البيزنطيين يكون لها أثرها فى تخفيف وطأة القتال عليهم . فاستجاب لهم كسرى ، وخرج على رأس جيوش كثيفة وأغار على سورية ، واحتل إقليم الفرات ونهب وسبى ، ثم اتجه إلى منبج فى شمال سورية ففاوضه أهلها ، واشتروا منه الأمان بألف دينار فضة ، وتقدم بعد ذلك إلى أنطاكية التى كانت تمتاز بمناعتها الطبيعية لما يحيط بها من صخور ، فضلا عن الحصون التى أنشئت حولها ، وقاوم الأهالى بها جيوش الفرس ، ولكن كسرى اهتدى إلى ثغرة فى سورها دخل عن طريقها المدينة واستباحها . ومنها انتقل إلى

(1) Procopius : Bellum Gothicum, pp. 1 — 4.

سلوقية ، حيث ذبح عند شاطئها ضحية للشمس ، ومنها إلى أفامية فدخلها ونهب دورها وكنائسها .

ولم يجد الإمبراطور مفراً — والأمر كذلك — من أن يفاوض كسرى ، فعرض عليه الكف عن القتال مقابل دفع الجزية السنوية ، فقبل كسرى وعاد إلى بلاده ومعه آلاف من الأسرى بنى لهم مدينة خاصة أطلق عليها اسم أنطاكية كسرى(١) .

وفى سنة ٥٤١ هاجم كسرى إقليم لازيقا على الساحل الجنوبى للبحر الأسود ، وفى سنوات ٥٤٢ ، ٥٤٤ هاجم البلاد البيزنطية وأحرق وخرب وسلب ، وأنفذ جستنيان حملة فى ٥٤٣ من ثلاثين ألف جندى لمهاجمة البلاد الفارسية فى أرمينية ، ولكن الحملة منيت بالفشل ، وقد أدرك الطرفان المتحاربان صعوبة القتال فى بلاد القوقاز نظراً لطبيعة هذه البلاد الجبلية ووعورة مسالكها ، فتهادنا فى سنة ٥٤٤ وجددا الهدنة مرتين .

وفى سنة ٥٦١ م أبرمت هدنة بينهما لمدة خمسين سنة مقابل تعهد البيزنطيين بدفع الجزية السنوية لملك فارس ، وأن تجلوا القوات الفارسية عن لازيقا وتسلمها للبيزنطيين ، وبذلك لم يعد للفرس ممتلكات على ساحل البحر الأسود ، وتعهد ملك فارس باتباع سياسة التسامح مع المسيحيين فى بلاده بشرط أن يمتنعوا عن التبشير بالمسيحية بين أهالى هذه البلاد(٢) .

---

(1) Procopius : Bello Persico, II, pp. 8 — 11.

(2) Barker : op. cit., pp. 112 — 124
Vasiliev : op. cit., vol. I, pp. 138 — 139.
Ostrogorsky : op. cit., p.
أسد رستم : الروم ، ج ١ ، ص ص ١٨٥ — ١٨٦ — ١٨٨ — ١٩٠ .

أما على الجبهة الشمالية ، فقد تعرضت الإمبراطورية لهجمات متتالية من عناصر مختلفة من البرابرة . وقد أثبتت الأحداث أن نهر الدانوب لم يكن عائقاً أمام تقدم الأعداء ، فإن الدانوب الأدنى كان بالقرب من سهل يعتبر من قديم الزمان ممراً للمهاجمين البدو القادمين من آسيا . وفى منطقة البلقان كان الطريق مفتوحاً أمام المهاجمين البرابرة للتوغل فى أقاليم الإمبراطورية والوصول للقسطنطينية ذاتها(١) .

ومنذ زمن الإمبراطور أنستاسيوس Anastasius (٤٩١ — ٥١٨) والجبهة البلقانية تتعرض من آن لآخر لهجمات عناصر البلغار والسلاف ، وفى عصر جستنيان عبرت الدانوب أعداد كبيرة من هذه العناصر وتوغلوا فى الأقاليم البيزنطية مخربين كل ما يصادفهم ، وقد وصل فريق منهم إلى العاصمة القسطنطينية وإلى الهلسبونت ، والفريق الآخر توغلوا فى بلاد اليونان ، ووصلوا حتى خليج كورنثة وسواحل البحر الأدرياتيكى فى الغرب وقد قام السلاف بمحاولة للوصول لسواحل البحر الإيجى ، وفى أثناء محاولتهم هذه اجتاحوا فى طريقهم مدينة سالونيك ، التى تعتبر من أهم المدن فى الإمبراطورية ، وقد اشتبكت الجيوش البيزنطية معهم واضطرتهم للارتداد إلى ما وراء نهر الدانوب ، ورغم هذا إلا أن بعضاً منهم قد استقر فى هذه المنطقة ، ولم تتمكن جهود جستنيان العسكرية ضدهم من زحزحتهم عن هذه المناطق(٢) .

(1) Obolensky, D. : The Empire and Its Northern Neighbours, C. M. H. vol. Iv, part. I, pp. 475 — 476;
Moss : The Formation of the East Roman Empire (330 — 717), C.M.H. vol. IV, part. I, p. 29.

(2) Bury : op. cit., vol 2, p. 298 — 304.
Vasiliev : op. cit., vol I, p. 140.

وإلى جانب السلاف ظهرت عناصر أخرى مثل الجرمان Germans ، والجبيد Gepids ، والكوتريجور Kotrigurs وهم فرع من الهون ، هاجموا شبه جزيرة البلقان من الشمال . وفى شتاء ٥٥٨ — ٥٥٩ م ، قام الكوتريجور تحت قيادة زعيمهم الذى يدعى Zabergan بمهاجمة إقليم تراقيا ، وهناك تفرعوا إلى ثلاث فرق : واحدة ذهبت لتخريب بلاد اليونان ، والأخرى لنهب بعض المدن فى تراقيا ، أما الثالثة فتحت قيادة زعيمهم نفسه وصلت إلى القسطنطينية لمهاجمتها .

وقد عانت المناطق التى تعرضت لهذا الهجوم الكثير وأرسلت كنائسها كنوزها ونفائسها إلى العاصمة أو إلى الكنائس الأخرى على الشاطىء الآسيوى للبوسفور ، واستدعى جستنيان قائده بليزاريوس الذى تمكن من إلحاق الهزيمة بهذه الفرق الثلاث ، ولكن رغم ذلك فإن أقاليم تراقيا ومقدونيا وتساليا قد لقيت الكثير من التخريب وما ترتب على ذلك من مشاكل إقتصادية(١) .

---

(١) أنظر تفاصيل هجمات هذه العناصر على بلاد الامبراطورية فى البلقان فى المصدر التالى :
Agathias : Historiae, Ed. Nieluhr, 1828, pp. 331 — 333.

واجع كذلك

Bury : op cit, vol 2, pp. 30 — 308.
Vasiliev ‘ op. cit. I, p. 140

الفصل الثالث

الإدارة والتجارة فى عصر جستنيان

- اهتمام جستنيان بالنواحى الإدارية .
- جهود جستنيان لتبسيط النظم الإدارية .
- كبار الملاك وخطرهم على الحكومة .
- موقع القسطنطينية كوسيط تجارى بين الشرق والغرب .
- مشكلة استيراد الحرير من الصين وكيفية التغلب عليها .
- أهم صادرات الإمبراطورية فى عصر جستنيان .

لقد أولى جستنيان اهتماماً كبيراً للنواحي الإدارية فى الإمبراطورية ، وكان يرى أن عليه أن يقوم بإصلاحات إدارية ضخمة ، لأنها من واجبات الإمبراطور تجاه الرعية من جهة ، ومن جهة أخرى للتقرب من الله الذى حباه بفضله وعطفه .

وقد رأى جستنيان أن واجب الموظفين الإداريين ودافعى الضرائب يتمثل فى أنه ينبغى أن يكون الموظفون أمناء . تعف أيديهم عن تناول الرشوة

وأن يراعوا دخل الحكومة . ويعملوا على زيادة هذا الدخل . أما واجب دافعى الضرائب فهو أن يؤدوا ما هو مقرر عليهم من ضرائب كاملة ، عن طيب خاطر وبانتظام . وهكذا أصبح جستنيان حامياً لحقوق الخزينة الإمبراطورية ، وفى نفس الوقت المدافع عن رعاياه ضد ظلم الموظفين وابتزازهم أموالهم .

وقد حرص على أن يضمن مرسوماته هذه المبادىء الأساسية التى قامت عليها إصلاحاته الإدارية(١) .

وقد وضع جستنيان على رأس الجهاز الإدارى ، يوحنا القبدوقى John The Cappadocian الذى عمل على توفير المال اللازم لجستنيان لتنفيذ مشروعاته الواسعة ، فاستحدث ضرائب جديدة منها على سبيل المثال الضريبة المسماة أيريكون Aerikon ، والتى جلبت لخزينة الإمبراطورية ثلاثة آلاف رطل من الذهب(٢) . وقد أثار تفنن يوحنا القبدوقى فى

---

(1) Vasiliev : History of the Byzantine Empire. vol. I, p. 159

(2) Runciman The Byzantine Civilisation p 98

ابتداع هذه الضرائب بغض الجماهير واستياءها ، بعد أن فاقت الضرائب المفروضة عليهم كل احتمال ، وكان أن ضاق به صدر الإمبراطورة ثيودورا فعزلته عن منصبه نهائياً وكان ذلك فى عام ٥٤١ م(١) ، كما سبق أن ذكرنا .

وقد عمل جستنيان على تبسيط الأمور الإدارية عن ذى قبل . فقد كان الإمبراطور قسطنطين الأكبر قد قسم الولايات الكبيرة إلى ولايتين أو أكثر ، وفصل السلطة الإدارية عن السلطة العسكرية فى كل ولاية ليتجنب حركات التمرد التى قد يقوم بها من يجمع فى يده السلطتين . لكن جستنيان قرر الجمع بين السلطتين الإدارية والعسكرية فى يد حاكم الولاية ، كما قلل عدد الولايات وأنقص عدد الموظفين وزاد فى رواتبهم حتى يكون ذلك دافعاً لهم على إتقان عملهم ، كما أنعم بلقب جستنيانى justiniani على حكام الولايات ليزيدهم فخراً ووقاراً(٢) .

ووجه جستنيان عناية خاصة لإدارة العاصمة ، فعين عدداً من الولاة أطلق على الواحد منهم لقب Praetorius أوكل إليهم شئون القضاء والسجون ، وفى سنة ٥٣٩ م أنشأ وظيفة Quaestor الذى كان بمثابة الوكيل العام للشعب ، فكان من اختصاصه ختم الوصايا وفضها وتولى تنفيذها والإشراف على إدارة أملاك القصر والنظر فى قضايا التزوير . كذلك كان عليه أن يجد عملا لكل عاطل قادر على العمل ، ومراقبة الذين يفدون على العاصمة من أبناء الولايات بلا موجب فيعقدون مشاكلها بتصرفاتهم(٣) .

---

(1) Runciman : op. cit., p. 38.

(٢) أسد رستم : الروم ، جـ ١ ، ص ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(3) Runciman : Byzantine Civilization, p. 90.

أسد رستم : الروم ، جـ ١ ، ص ١٧٥ .

وكان أخطر أعداء الدولة فى الداخل هم طبقة كبار الملاك ، الذين اغتصبوا أملاك الدولة ، وأسكتوا كل من يلومهم ببذل الأموال . وقد انصرف هؤلاء لمباشرة شئون ضياعهم وأغفلوا شأن الحكومة المركزية وأحاطوا أنفسهم بالحرس الخاص ، وتبعهم عدد كبير من الرعاع الذين لم يتورعوا عن اختلاس كل ما تصل إليه أيديهم(١) .

وكان هؤلاء الملاك الكبار بصفة خاصة فى آسيا الصغرى ومصر . وأشهرهم أسرة أبيون Apion وهى أسرة مصرية حازت قرى بأكملها فى جهات مختلفة بمصر ، وانخرط فى خدمة رب الأسرة عدد كبير من الكتاب ونظار الضياع وحشود الفلاحين ، ومن يقومون بتقدير الضرائب وجبايتها ، وله شرطته الخاصة وكذلك البريد ، وله جيشاً خاصاً ، وسجوناً يلقى بها من يجترىء على سلطانه . يضاف إلى ذلك ما حازته الكنائس والأديرة من ممتلكات تمتع أصحابها بسلطان واسع .

ورأت حكومة جستنيان أن هذا كله تحدياً لسلطانها ، فقاومته مقاومة طويلة الأمد ، تذرعت أثناءها بشتى الوسائل ، كأن تتدخل فى حق الإرث ، أو أن تكره بعض كبار الملاك على وقف أملاكهم على الإمبراطور ، أو أن تصادر بعض الأملاك بحجة عدم وجود الدليل على ملكيتها ، أو أن تتهم ديراً من الأديرة بالزندقة وتصادر ممتلكاته وتحولها إلى الدولة ، ورغم ذلك كله فلم يتمكن جستنيان من القضاء على هذه الطبقة(٢) .

(1) Vasiliev : History of The Byzantine Empire, vol. I, p. 158.
(2) Boak : Byzantine Imperialism, in Egypt Amercan Historical Review, XXXIV, 1928, p.6.

وقد بذل جستنيان جهوداً كبيرة من أجل المحافظة على الطرق والجسور ، وتوفير المياه والمحافظة على الأسوار ، وقد حث ولاته دائماً على الاهتمام بهذه الأمور . وقد أنشئت مدن جديدة فى أنحاء متفرقة اتخذت اسم « جستنيانة » نسبة للإمبراطور . ولم يدخر جستنيان جهداً فى بناء الحمامات ودور اللهو والساحات العامة . وبناء على رغبة ثيودورا أعاد تنظيم وظيفة المحافظين على الآداب العامة وأمرهم بالتشديد على المغامرين وسيئى السلوك ، واهتمت ثيودورا بأمر الساقطات فجعلت من قصر قديم على ضفة البوسفور الآسيوية ديراً للتائبات منهن أسمته « دير التوبة » ، كما اهتمت كذلك بإقامة المستشفيات للمرضى وأماكن الراحة للمسافرين (١) .

= Vasiliev : History of the Byzantine Empire, vol. I, p. 158.

أسد رستم : الروم ، جـ ١ ، ص ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

العرينى : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ص ٧٢ — ٧٤ .

(١) أسد رستم : الروم ، جـ ١ ، ص ص ١٧٥ — ١٧٦ .

التجـــــــــــــــارة

يقول المؤرخ رانسيان : إن القرن السادس يعتبر من أعظم عهود تجارة الشرق(١) .

ولا شك أن ذلك يرجع لجهود جستنيان فى ميدان التجارة من ناحية ، ولموقع القسطنطينية من الناحية الأخرى . فقد كان موقع هذه المدينة منذ إنشائها على يد الإمبراطور قسطنطين وحتى آخر عهد الإمبراطورية البيزنطية ، موقعاً تجارياً فريداً ، فهى تقع عند نقطة التقاء قارتى آسيا وأوروبا ، والمعروف أنه يفصل أوروبا عن جنوب غربى آسيا ، متسعان من الماء هما : البحر الأسود وبحر إيجة . على أن تراقيا تبرز بين البحرين لتلتقى بآسيا الصغرى لا يفصل بينهما سوى مضيقان هما : البوسفور والهللسبونت (الدردنيل) وبينهما بحر مرمرة المغلق الذى تحوطه الأرض من جميع الجهات . وقد أتاح هذا الموقع الفريد لبيزنطة التحكم فى حركة التجارة المتنقلة بين البحر الأسود وبحر إيجة والبحر الأبيض المتوسط ، كذلك التجارة بين أوروبا وآسيا الصغرى(٢) .

وكان موقع القسطنطينية هذا يعود عليها بالثراء والرخاء . ذلك أن نسبة تعادل عشرة فى المائة من ثمن البضائع كانت تفرض كرسوم على جميع الصادرات والواردات ، وكانت ضريبة الصادرات تدفع فى القسطنطينية ،

---

(1) Runciman : Byzantine Civilisation, p. 164.

(2) Runciman : pp. 11 — 12.
Moss, H. : The Formation of the East Roman Empire, (330 — 717,) C.M.H. vol.IV, part 1, p. 41.

أما الرسوم على الواردات فكانت تجمع عند أبيدوس على مضيق الهللسبونت ، أو عند هيرون على مضيق البوسفور . ولم يكن يجوز لأية سفينة أن تعبر المضايق دون دفع الرسوم المستحقة عليها ، وكان ذلك يمد الخزينة الإمبراطورية بفيض من الثروة(١) .

ولم تكن حركة العبور التجارى لبلاد الغرب الفقيرة هى التى تستفيد منها الإمبراطورية بدرجة كبيرة . ولكن تجارتها مع الشرق . مع الصين والهند هى التى كان لها الاعتبار الأول والأهم . وكانت صادرات الإمبراطورية من البضائع والكماليات الغالية الثمن من مصانعها فى سورية ، وكانت الصادرات لا تتوازن مع الواردات من بلاد الشرق وخاصة الحرير ، الذى إزداد الإقبال عليه بصورة مضطردة مع إزدياد أسباب الترف ، وأصبح لبس ثياب الحرير الخالص فى هذا العصر مألوفاً فى الحياة المنزلية ، كما أخذت الكنيسة ترحب بهدايا من هذه المادة الثمينة لاستعمالها فى ملابس رجال الدين والستر والأغطية وتزيين المذابح ، بعد أن كانت ترفض فى أول الأمر استخدام الحرير فى الأغراض الدينية ، كذلك احتكرت الدولة صنع أشكال معينه من ثياب الحرير كانت تلبس فى مراسم البلاط(٢) .

على أن الإمبراطورية البيزنطية كابدت الكثير فى سبيل نقل الحرير من الصين ، حيث إن الطريق البرى إلى الصين كان يمر عبر الأراضى الفارسية ، كما أن الطريق البحرى عبر المحيط الهندى كان يسيطر عليه كذلك التجار

---

(1) Runciman : Byzantine Civilisation, p. 170.
Bury : Eastern Roman Empire, pp. 217 — 219.

(2) Ostrgorsky : History of the Byzantine State, p. 74.
بيز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٧٦ .

الفرس الذين يبحرون من الخليج الفارسى إلى سيلان حيث تتجمع البضائع الآتية من الصين . لذلك كان نشاط الحركة التجارية بين الإمبراطورية البيزنطية والصين أو كساد هذه الحركة يتوقف على العلاقات مع فارس ، حتى إن تجارة الحرير كانت تتوقف تماماً فى فترات الحرب بين الطرفين(١) .

لذلك حاول جستنيان أن يستبدل هذا الطريق بطريق آخر غير مباشر عبر إقليمى لازيقا والقوقاز . حيث إرتبطت بيزنطة بعلاقات طيبة مع شعوب السهول فى شمال البحر الأسود . لذلك أجرت بيزنطة اتصالات مع الأتراك الذين كانوا يسيطرون على منطقة شمال القوقاز والذين عانوا هم الآخرون من جراء سيطرة الفرس على تجارة الحرير . كما حاول جستنيان كذلك استخدام طريق البحر الأحمر للوصول إلى الهند ، ومن أجل ذلك أقام علاقات ودية مع المملكة الأثيوبية Axum .

لكن هذين الطريقين لم يقدر لهما النجاح ، إذ أن الطريق البرى عبر وسط آسيا كان طريقاً صعباً وخطراً . وبالنسبة للطريق البحرى ، لم يتمكن لا التجار الأثيوبيون ولا التجار البيزنطيون من كسر سيطرة الفرس على المحيط الهندى . وظل الفرس يتحكمون فى طريق التجارة إلى الصين ويسيطرون عليه (٢) .

على أية حال ، فقد انتهت متاعب بيزنطة بالنسبة لحصولها على الحرير ، بعد اكتشافها لسر دودة القز فى حوالى ٥٥٢ أو سنة ٥٥٤ ، حين وصل

---

(1) Ostrógorsky . p. 74.

(2) Ostrogorsky pp. 74-75.

إلى القسطنطينية راهبان نسطوريان يحملان فى عكازيهما دودة القز وبيضها ، وبدأت أشجار التوت تزرع فى سورية ، ونمت صناعة الحرير سريعاً ، وتركزت مصانعه فى القسطنطينية وأنطاكية وبيروت . وكانت هذه البضائع إحتكاراً للإمبراطورية واستخدمت بها الآلاف من العمال . ورغم أن الطريق بين بيزنطة والصين أصبح ميسراً بعد عقد الصلح مع الفرس إلا أن بيزنطة أصبحت فى حالة اكتفاء ذاتى(١) .

وقد ترتب على استرجاع جستنيان لولاية شمال إفريقية سنة ٥٣٤ م انتعاش كبير فى تجارتها ، وبذل هذا الإمبراطور جهده فى سبيل تشجيع التجارة بين موانيه الشرقية وبلاد شمال إفريقية وإيطاليا . وكانت سورية — التى تعتبر من أخصب بلاد العالم آنذاك — تصدر الحرير والخمور من غزة وعسقلان ، والزجاج من صيدا ، وبضائع أخرى متقنة الصنع من صور وبيروت . أما مصر ، فكانت تصدر ورق البردى والبهارات التى تصلها من بلاد الشرق الأقصى (٢) .

وهكذا نهض جستنيان بالتجارة نهضة كبرى كان لها أثرها فى الانتعاش الإقتصادى الذى تمتعت به الإمبراطورية وعلى الأخص فى الفترة المبكرة من عصر هذا الإمبراطور .

---

(١) Bury : Later Roman Empire, vol. II, p. 330.

بينز : الأمبراطورية البيزنطية ، ص ص ٢٧٧ — ٢٧٨

أسد رستم : الروم ، جـ ١ ، ص ص ١٧٧ — ١٧٨

(٢) بينز : الأمبراطورية البيزنطية ، ص ٢٨٣

الفصل الرابع

جستنيان والاستبداد القيصرى البابوى

- جستنيان إمبراطوراً وبابا .
- محاولة التوفيق بين السلطتين الزمنية والروحية .
- أولوية كنيسة روما على باقى الكنائس بالإمبراطورية .
- الخلاف بين أصحاب مذهبى الطبيعة الواحدة والطبيعتين .
- اهتمام جستنيان بتشييد الكنائس .

إذا استعرضنا تاريخ العلاقات بين الكنيسة والدولة نجد أن عصر جستنيان يمثل ذروة تدخل النفوذ الإمبراطورى فى شئون الكنيسة ، وليس هناك إمبراطور من الذين سبقوه أو جاءوا بعده — كما يقول المؤرخ استروجورسكى — كان له مثل سلطته المطلقة على الكنيسة(١) .

فقد كان جستنيان الحاكم المسيحى المشبع بالإحساس بالمصدر الإلهى لسلطته الإمبراطورية . فهو الرجل المنتخب بفضل العناية الإلهية ليحكم المجتمع المسيحى(٢) .

وهكذا أصبح جستنيان رئيساً للدولة ورئيساً للكنيسة فى آن واحد ، وهو ما يطلق عليه اسم الاستبداد القيصرى البابوى Caesaro-Papism أى إنه إمبراطور وبابا فى نفس الوقت ، فهو يجمع فى شخصه السلطتين : الزمنية والروحية(٣) .

وكان من رأيه أن انتظام أحوال الكنيسة هو دعامة الملك ، لذلك فقد ضم الكنيسة داخل إطار عمل الدولة ، والمقصود هو أنها تصبح كنيسة الدولة State Chruch ليس فقط تحت الحماية الخاصة للدولة ، بل تخضع لإدارتها ، وذلك لأن أهداف كل منهما مماثلة ، فكلاهما تستميل

(1) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, p. 77.

(2) Herman : The Secular Church, C.M.H. vol. IV, Part II, p. 104.
Ensslin : The Government and Administration of the Byzantine Empire, C.M.H., vol. IV, part II, p. 2.

(3) Herman : The Secular Church, p. 105.
Diehl : justinian, The Imperial Restoration in The west, in C.E.M. ed. Bury, vol 2, p. 5.

العالم من أجل المسيح ، فالعالم المسيحى Oikoumene بالنسبة له مثل إحياء السيادة الرومانية(١) Imperium Romanum

لذلك كان جستنيان حريصاً على إقرار الوفاق بين السلطتين ، وقد أوضح هدفه هذا فى أحد قوانينه الجديدة(٢) الذى صدر فى ٩ مارس ٥٣٥ بقوله :

"Maxima quidem in hominibus sunt dona dei a Superna collata clementia sacerdotium et imperium, illud quidem divinis ministrans hoc autem humanis praesidens ac diligentiam exhibens - ex uno eodemque principio utraque procedentia humanam exornant vitam Ideoque nihil sic erit studiosum imperatoribus, sicut sacerdotum honestas, cum utique et pro illis ipsis semper deo supplicent.".

« هبات الله العظمى للرجال نتجت من كرمه المطلق ، الهيئة الكهنوتية ، والسلطة العلمانية ، الأولى تخدم المصالح الإلهية ، والثانية تخدم مصالح البشر وتسهر عليهم . كلاهما أتت من نفس المصدر لتكمل الحياة البشرية . لذلك لا شىء يسترعى اهتمام الإمبراطور أكثر من كرامة رجال الدين ، بعد هذه الصلاة المستمرة من أجلهم .

إذا كان رجال الدين وثقوا تماماً فى الله ، وإذا الإمبراطور حكم الدولة المعهود إليه بها ، بالعدل والشرف ، فإن الوفاق المتبادل ، سوف ينشأ ليؤكد وحدة النافع للجنس البشرى . وبناء على ذلك فإن عقيدة الله الصحيحة وشرف رجال الدين ، هما فى المحل الأول من اهتمامنا » .

---

(1) Herman : The Secular Chruch, p. 104.
Ostrogorsky : p. 77.

(2) Novellae, no. 6, ed. Zachariae von Lingenthal, Jus graeco romanum.

وكان جستنيان شديد الإيمان بكنيسة واحدة جامعة . لذلك كان من البداية حريصاً على أن يوطد علاقاته بكنيسة روما . وقد اعترف جستنيان صراحة بما لكرسي روما من سلطة عليا على باقى الكنائس فى إمبراطوريته ، ففى خطابه إلى البابا يوحنا الثانى ، جعل من كنيسة روما :

Caput Omnium Sanctarum ecclesiarum

« رأس كل الكنائس المقدسة » .

وفى ديباجة أحد قوانينه الجديدة(١) الذى صدر فى مايو ٥٣٥ ، أفصح عن مكانة روما فى نظره فى الكلمات التالية : « روما القديمة تمتعت بشرف كونها أم القانون ، وبلا شك هى مقر البابا الأسمى ، لهذه الأسباب نرى كذلك أنه من الضرورى أن نشرف مهد القانون ، ومنبع اللاهوت بقانون خاص بإرادتنا المقدسة » .

أما أسقف روما ، فقد أوضح جستنيان مكانته بالنسبة لباقى رجال الدين فى هذا المرسوم(٢) الذى صدر فى سنة ٥٤٥ وجاء به ما يلى : « نعلن أن البابا المقدس لأبرشية روما يكون له الأولوية على كل رجال الدين ، ومطرانية القسطنطينية — روما الجديدة — المباركة تكون فى المرتبة الثانية بعد الإبرشية الرسولية المقدسة روما ، بأسبقيتها على كل الإبرشيات الأخرى » .

كما أوضح أن الأباطرة يجب أن يخاطبوا أسقف روما كما لو كان « أباهم الروحى » ، وكان هو يخاطب أسقف روما على أنه « البابا » و« البابا

---

(1) Novellae, no. 9, ed. Zachariae, Jus graeco romanum.
(2) Novellae, no. 131, ed. Zachariae, Jus graeco romanum.

البطريرك » و « الأب الرسولى » . وقد قصر لقب البابا على أسقف روما فقط(١) .

ولكن رغم هذا كله ، فلم يكن لدى جستنيان أية نية للإضرار بحقوق الإمبراطور فى حكم المجتمع المسيحى ، فقد بقى هو السيد الأعلى ، الأمر الذى منحه العديد من الامتيازات الدينية ، فهو الذى يعقد المجامع ، ويرأسها بشخصه أو عن طريق أحد نوابه ، ويشترك فيما يجرى فيها من مناقشات لاهوتية ، وهو الذى يجيز القرارات وينشرها فى شكل مرسوم رسمى ، ولديه نفوذ قوى لاختيار البطاركة ، ورؤساء الأساقفة ، والأساقفة . وهو الذى يؤلف تراتيل الكنيسة . وينشىء الإبرشيات ، ويعين فيها المطارنة ، ولكن فى الأمور الدينية البحتة ، يترك الكلمة الأخيرة لأسقف روما(٢) .

وقد ارتضى بابوات روما هذه السياسة الدينية لجستنيان ووافقوا عليها وأقام البابا فيجيليوس Vigilius صلاة الشكر للمسيح ، الذى وهب جستنيان « ليس فقط روح إمبراطورية ، ولكن إكليركية كذلك(٣) » .

ومع إعتقاد جستنيان فى هذا المبدأ ، مبدأ سمو كنيسة روما ، لم يكن غريباً أن يعمد إلى إزالة الخلاف بين كنيسة روما والكنائس الشرقية ، على أن تحقيق وحدة الكنيسة بين الغرب والشرق ، بين روما والإسكندرية وأنطاكية ، كان يعتبر أمراً مستحيلا . كما أن الخلاف حول تفسير طبيعة

---

(1) Herman : The Secular Church, p. 105.
Vasiliev : History of the Byzantine Empire, vol. I, p. 149.

(2) Herman : op. cit. p. 105.
Vasiliev : op. cit. p. 149.

(3) Dvornik : Constantinople and Rome, C.M.H., vol. IV, Part I, p. 437.

المسيح زاد من اتساع الفجوة بين الكنائس الشرقية والغربية ، والواقع أنه منذ القرن الخامس الميلادى ، والجدل يشتد حول مسألة الطبيعة الواحدة ، والطبيعة المزدوجة للسيد المسيح(١) .

وقد ساد مذهب الطبيعة الواحدة monophysite فى الأقاليم الشرقية، وخاصة فى مصر والشام وفلسطين ، وكانت الإمبراطورة ثيودورا نفسها تدين بهذا المذهب ، ولذلك حظى المونوفيزتيون بتأييدها ، أما جستنيان فإنه كان يدين بمذهب الطبيعتين ، كما سبق أن ذكرنا .

وهكذا كانت الولايات الشرقية تشتمل على عدد كبير من أصحاب الطبيعة الواحدة ، وكان إرضاؤهم يغضب كنيسة روما ، وإرضاؤها يغضبهم ، ومن ثمة وجد جستنيان نفسه بين شرين ، شر الإبتعاد عن روما وعن الكنيسة الارثوذكسية ، وشر مناوءة الولايات الشرقية له واستعدادها للإنفصال عنه . وقد اعتبر المؤرخ فازيلييف أن لحكومة جستنيان وجهين : أحدهما يطل على روما يلتمس منها التوجيه ، والآخر يطل على الشرق يلتمس الحقيقة من رهبان مصر والشام(٢) .

وبتأثير من ثيودورا ، وحرصاً على كسب ولاء الولايات الشرقية حاول جستنيان جاهداً أن يمسك العصا من الوسط ، وأن يضع حلولا يرضى بها أصحاب الطبيعة الواحدة ، وفى نفس الوقت لا يحيد بها عن أرثوذكسيته . ورغم محاولات جستنيان لكسب مشاعر المونوفيزتيون . ومنحهم قدراً محموداً من التسامح ، إلا أنه فشل فى كسب ودهم وظل

---

(1) Bury : op. cit. vol. I, pp. 357 — 358.

فيشر : نفس المرجع ، جـ ١ ، ص ص ٥٦ — ٥٧ .

(2) Vasiliev : op. cit., pp. 148 — 149.

ولاؤهم نحو حكومة القسطنطينية يضعف تدريجياً ، ولا سيما فى مصر والشام ، وكان ذلك مما مهد للفتوح الإسلامية(١) .

ولحرص جستنيان على توحيد العقيدة الدينية فى إمبراطوريته ، فإنه لم يتسامح مع أصحاب الديانات الأخرى ، وتعرضوا أثناء حكمه لحركات اضطهاد عنيفة فقد اصطدم جستنيان بالوثنيين واليهود والهراطقة ، وحتى يتخلص من بقايا الوثنية قام جستنيان بإغلاق جامعة أثينا التى كان الوثنيون ينظرون إليها على أنها معقلهم الرئيسى ، والتى كانت تمثل آخر معقل للوثنية ، كما نفى عدد كبير من أساتذتها وصادر ممتلكاتهم(٢) .

وقد عنى جستنيان ببناء الكنائس فى إمبراطوريته لتمجيد العقيدة الأرثوذكسية ، ومنها كنيسة سانت فيتالى St. Vitaly برافنا ، التى زخرت بحوائط الفسيفساء البراقة ، وكنيسة آيا صوفيا Hagia Sophia التى بناها لتخليد اسمه على مر العصور ، وحتى تكون مركزاً دينياً ظاهراً ، والتى تعتبر قمة فن العمارة البيزنطى . وقد بناها جستنيان فى عام ٥٣٢ م . فى القسطنطينية تحت إشراف أزيدور الملطى Asidore of Miletus وأنثيموس الترللى Anthemius of Tralles ، واستمر العمل فيها خمس سنوات ، واستعانا فى بنائها بخبرة الصناع من جميع أنحاء الإمبراطورية ، بلغ عددهم ألف صانع وانتهى بناؤها فى ٥٣٧ م ، فجاءت تحفة رائعة وخاصة قبتها التى تحدت بأسرار صنعها عباقرة المهندسين(٣) .

---

(1) Vasiliev : op. cit., pp. 150 — 151.

(2) Vasiliev : op. cit., vol. I, p. 150.

(3) Grabar, A. : Byzantine Architecture and Art, C.M.H., vol. IV. Part II, pp. 316 — 317.

راجع كذلك الصورتين رقم ٣ ، ٤ لكنيسة آيا صوفيا .

وقد أصدر جستنيان مرسوماً إمبراطورياً فى عام ٥٣٥ م حدد فيه عدد رجال الدين القائمين بالخدمة فيها وكان عددهم ٦٠ قساً ، ١٠٠ شماساً ، ٤٠ رئيس شمامسة ، ٩٠ شماساً ، ١١٠ مقرئاً ، ٤٠ مرتلا(١) .

Wellesz, E. : Byzantine Music and Liturgy, C.M.H., Part II, p. 141. (2)

الفصل الخامس

جستنيان المشرع الأعلى

- الدوافع التي حدت بجستنيان لإصلاحاته التشريعية .
- مجموعة قوانين جستنيان :

الموجـز .

الشـرائع .

المتجـددات .

- جامعات القانون وطرق ومناهج التدريس بها .

كان جستنيان يعتقد أن إمبراطور الدولة يحمل عبء واجباً مزدوجاً فقد كان عليه أن يكون الفاتح العسكرى ، وفى نفس الوقت المشرع الأعلى .

وقد وجد جستنيان أن الغموض والتناقض قد تسربا إلى نصوص القانون الرومانى ، وأخذت القضايا أمام المحاكم تؤجل إلى ما لا نهاية ، وكانت الأحكام لا تعتمد على مواد ثابتة بقدر اعتمادها على أهواء القضاة التعسفية(١) .

ولم يكن هناك مفر — والحالة هذه — من القيام بعمل حصر كامل للقانون الرومانى . وقد عهد جستنيان إلى وزير القضاء تريبونيان مهمة رئاسة لجنة لجمع القوانين التى أصدرها أباطرة الرومان ، وتنسيقها وحذف المتشابه منها ، واستخلاص مجموعة قانونية واحدة ، وقد كون تريبونيان لجنة من عشرة أشخاص من المتخصصين كان من بينهم ثيوفيلوس ... Theophilus أستاذ القانون بجامعة القسطنطينية ، وقامت اللجنة بمراجعة المجموعات القانونية الثلاث السابقة :

Codex gregorianus. Codex Hermogenianus. Codex Theodosianus

واستبعدت منها كل ما هو غير مقبول ، كما قامت بتنظيم القوانين التى أصدرها الأباطرة بعد عصر ثيودوسيوس . وفى أوائل أبريل ٥٢٩ م صدرت نتائج كل هذه الأعمال فى مجموعة جستنيان . Codex justiàmus التى تألفت من عشرة كتب ، اشتملت على كل ما صدر من القوانين منذ زمن الإمبراطور هادريان (١١٧ — ١٣٨) إلى زمن جستنيان ، وأصبحت المجموعة الرسمية الوحيدة للقوانين بالإمبراطورية(٢) .

---

(١) بينز : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٢٥٥ .

(2) Roly H. : Roman Law, in C.M.H. ed Bury vol II, p. 59.

وفى سنة ٥٣٠ م تلقى تريبونيان أو امر الإمبراطور للقيام بعمل جديد ، فألف لجنة من ستة عشر مختصاً ، كانت مهمتها مراجعة كل المؤلفات وأن تحذف ما تجده من النصوص المتناقضة أو المكررة ، وكذلك حذف المناقشات التى دارت حول بعض الموضوعات ، ثم تقوم بترتيب ما جرى جمعه من المواد القانونية وفقاً لنظام معين .

وقد استلزم الاضطلاع بهذه المهمة أن تقوم اللجنة بقراءة ألفى كتاب اشتملت على ثلاثة ملايين من السطور وتلخيصها . ولم تكن هذه المهمة الضخمة كما رآها جستنيان نفسه ، إلا ضرباً من المستحيل لا يتحقق إلا بعون من الله . وقد قدر لإتمام هذا العمل عشر سنوات ، ولكنه فى الحقيقة تم فى حوالى ثلاث سنوات فقط ، ونشر فى ديسمبر عام ٥٣٣ ، وهذه المجموعة الجديدة انقسمت إلى خمسين كتاباً شملت ١٥٠,٠٠٠ سطراً ، واتخذت اسم الموجز Digestum أو Pendectae . ووصفها جستنيان بقوله إنها « معبد مقدس للعدالة الرومانية »(١) .

على أنه نتيجة للسرعة التى اقترنت بهذا العمل ، أن جاءت هذه المجموعة خالية من الوحدة والترابط ، كما أن التفويض الذى حصلت عليه اللجنة باختصار النصوص وتفسيرها ، واستخلاص نص واحد من نصوص عديدة ، كل ذلك أدى فى بعض الأحيان إلى بتر النصوص القديمة . ورغم ذلك فإن لهذه المجموعة أهمية عظيمة القيمة ، إذ حفظت للأجيال التالية من المواد

Vasiliev : The Byzantine Empire, p. 143.
Ostrogorsky : History of the Byzantine State, p. 75.
Bury : Later Roman Empire, vol. II, p. 396.

(1) Vasiliev : The Byzantine Empire, p. 144.
بيتز : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٢٥٧ .

المستمدة من القانون الرومانى ما لم يكن معروفاً(١) .

وقد أدرك جستنيان أنه ليس بوسع كل الناس أن يستوعبوا هذه المادة الضخمة من المعلومات التى يمثلها القانون والموجز ، فليس بوسع كل الشباب المبتدىء فى دراسة القانون أن يلموا بمحتويات هذين المصنفين الضخمين ، لذلك قام تريبونيان ومساعداه ثيوفيلوس ودروثيوس Drothius الأستاذ بجامعة بيروت ، بإعداد ملخص فى القانون المدنى صدر فى عام ٥٣٣م ، وهو يشتمل على أربعة كتب معروفة باسم الشرائع Institutiones (٢) وفى المرسوم الإمبراطورى الذى صدر بخصوص هذه الشرائع كتب الإمبراطور أنه يقدمها «للشباب المتلهف على معرفة القانون» Cupidae legum Juventuti

وما صدر من مرسومات إمبراطورية بعد عام ٥٣٤ م جمعت وأصبحت تعرف باسم المتجددات Novellae Leges . والعـدد الأكبر من هذه القوانين صدر باللغة اليونانية ، على حين أن القانون والموجز والشرائع صدرت باللغة اللاتينية . ومعنى ذلك استجابة جستنيان ، هذا الإمبراطور المتشبع بالتقاليد الرومانية لواقع الحياة العملية ، حيث تسود اللغة اليونانية . والدليل على ذلك ما جاء فى أحد هذه القوانين الجديدة ، حيث قال جستنيان : « إننا لم نكتب هذا المرسوم باللغة القومية ، ولكن باليونانية المستعملة؛ لكى يصبح معروفاً للجميع ، بسبب سهولة فهمه »(٣) .

وقد كان جستنيان عملياً فى تشريعاته ، وحرص على مراعاة النواحى

(1) Vasiliev : The Byzantine Empire, p. 144.

أسد رستم : الروم ، جـ ١ ، ص ١٧٩ .
بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٥٧ .

(2) Vasiliev. pp. 144 — 145.

(3) Agathias : Historiarum, p. 281.
Vasiliev : vol, I. p. 145.

الإنسانية ، وكان رائدة فى أعماله هذه « الإنسانية ، وصواب التفكير ، والمنفعة العامة » . وبناء على ذلك فقد ألغى القانون المعروف باسم ... Noxae deditio الذى بمقتضاه كان يحق للآباء أن يبيعوا أبناءهم كرقيق لأى شخص على سبيل التعويض عن ضرر أو أذى ألحقوه به وعلل جستنيان هذا الإلغاء بقوله : إنه « بناء على الرأى العادل للمجتمع العصرى ، يجب أن ننبذ القسوة التى من هذا النوع »(١) .

ووجدت فى عصر جستنيان طبقة ذات أهمية ضئيلة ، تلك هى الطبقة التى كان لها مكاناً وسطاً بين طبقتى الأحرار والعبيد ، فهى أقل من الأحرار ولكنها أعلى من العبيد وكانت تضم ثلاث فئات :

الفئة الأولى ويسمون : latini Iuniani

وهم العبيد الذين تم تحريرهم أو عتقهم ، لكنهم لم يصبحوا أحراراً يتمتعون بكل ما للأحرار من حقوق ، فكانوا لا حق لهم فى التعين فى وظيفة حكومية أو الزواج من طبقة الأحرار كما أنهم لا يملكون الحق فى كتابة وصية أو الميراث عن طريق وصية .

والفئة الثانية هم : In mancipii Causa

وهم الأطفال الذين أخضعهم أباؤهم للعبودية نتيجة بعض المخالفات التى اقترفوها .

أما الفئة الثالثة فتدعى : Dediticii

وهم الذين خضعوا لعقوبة الرق نتيجة لارتكابهم جريمة ما ، وبعد

---

(1) Runciman : Byzantine Givilisation, p. 76.

بينز : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ص ٢٦٠ - ٢٦١ .

ذلك تم تحريرهم . لكن نظراً لأنهم القدم ظلوا لا يتمتعون بكل حقوق المواطنين الأحرار ، ولا يستطيعون أن يقيموا إلا على بعد أكثر من مائة ميل من مدينة روما . وإلى جانب هؤلاء كان هناك طبقة المحررين Freedmen وهم الذين تم تحريرهم ولكنهم ظلوا مقيدين بالالتزامات التى كانوا يدينون بها سابقاً . ولم يكن باستطاعة أحد منهم أن يصبح Magistrate or Senator إلا بأمر خاص من الإمبراطور ، كذلك لم يكن أحد منهم يستطيع أن يتزوج من سيده تنتمى إلى طبقة أعضاء مجلس الشيوخ .

وقد ألغى الإمبراطور جستنيان هذا كله ، وأصبح هناك من وجهة نظر القانون طبقتان فقط هما طبقة الأحرار وطبقة العبيد(١) .

وقد ظهر تأثير الإمبراطورة ثيودورا فى النواحى التشريعية فى تلك الحقوق التى منحها جستنيان للمرأة ، مثل حق الزوجة فى الحصول من زوجها على أملاك تعادل فى قيمتها بائنتها وحق الأرملة فى الوصاية على أطفالها ، وتقررت للأطفال حرية أوسع فيما يتصل بأشخاصهم وأملاكهم . وأصبح حرمانهم من الإرث فى المستقبل غير جائز ألا حسب قواعد ثابتة . ونص على أنه فى حالة حرمانهم يجب على الآباء أن يقرروا صراحة وبوضوح تام الأسباب التى بنى عليها حرمانهم ، كما أعيد صياغة قانون الوراثة ، وأصبحت قرابة الدم أساساً له ، كذلك أمن العبيد من قسوة سادتهم ، ومنحوا الحق فى مطالبة الحكام بحمايتهم(٢) .

وللحفاظ على تلك الأعمال التشريعية العظيمة ، وجه جستنيان اهتمامه

---

(1) Bury : History of the later Roman Empire, vol a, pp. 400—401.
Roby : Roman law, in C.M.H. ed Bury, vol II, pp. 64 — 65.
(2) Runciman : p. 76.
Vasiliev. : vol. I, p. 147

إلى جامعات القانون ، وأولاها عنايته ، وكان معظمها قد أغلق ، ونتيجة لجهوده ازدهرت ثلاث جامعات للقانون ، واحدة فى روما (مهد القانون) . والثانية فى القسطنطينية ، والثالثة فى بيروت(١) .

وكل جامعة من هذه الجامعات كان بها عدد محدود من أساتذة القانون لا يتجاوز أربعة ، وكان يطلق عليهم إسم Antecessores . يتسلمون مكافآتهم من الحكومة ، ولهم الحق فى فتح فصول دراسية خارج الجامعة Public classrooms يلتحق بها من يريد دراسة القانون . وبخلاف أساتذة الجامعة كان هناك مدرسون يستقبلون فى منازلهم التلاميذ الراغبين فى دراسة القانون ، مقابل أجر معين يدفعه هؤلاء التلاميذ لأستاذهم(٢) .

وكانت دراسة القانون بعد سنة ٥٣٤ م ، تشتمل على ثلاثة فروع هى : القانون Codex ، الموجز Digestum ، والشرائع Institutiones . وكان التلاميذ يدرسون ٢٦ جزءاً فقط من الخمسين جزء لمجموعة الموجز مع أستاذهم ، أما الباقى فيدرسونه اعتماداً على أنفسهم .

وفى البداية كانت دراسة القانون تستغرق أربع سنوات ، وبعد سنة ٥٣٤ ، كانت خمس سنوات ، ثم أصبحت ست سنوات بعد سنة ٥٥٥ وذلك حتى يتمكن الطالب من دراسة أكبر عدد من القوانين الجديدة .

Novellae (٣)

---

(1) Runciman : p. 76.
Vasiliev : vol. I, p. 147.

(2) Scheltema : Byzantine Law, C.M.H. ed. Hussey vol. IV, Part II, p. 56.

(٤) Scheltema : Byzantine Law, p. 56.

وكان نظام محاضرات القانون فى الجامعة بالنسبة للطلبة الذين يتكلمون اليونانية يتخذ شكل ترجمة يونانية للنص اللاتينى للقانون يطلق عليها اسم Index ، وفى المحاضرة التالية يقوم الأستاذ بشرح نفس النص اللاتينى ، وتتخذ هذه المحاضرة شكل أسئلة من جانب الطلبة ، وإجابات من جانب الأستاذ . الغرض منها إيضاح النص اللاتينى وتفسيره . لذلك ظهرت تفسيرات هامة للقوانين ، مثل التفسير الذى كتبه ثيوفيلوس للشرائع ، وتفسيرات للموجز لثيوفيلوس ، ستيفانوس Stephanus ، ايزيدور Isidore وكوبيداس Cobidas . وشرح للقانون Codex كتبه إيزيدور(١) .

لكن الموقف تغير بعد سنة ٥٥٥ بظهور مجموعة القوانين الجديدة Novellae التى ظهرت باللغة اليونانية ، فإن الطلبة لم يعودوا فى حاجة إلى Index ، على أنه كان هناك بعض الطلبة الذين يتكلمون اللاتينية مما تطلب عمل Index لهم باللغة اللاتينية للقوانين الجديدة . وكان التفسير اللاتينى الوحيد لهذه القوانين هو الذى قام بعمله جوليان وظهر باسم مختصر القوانين الجديدة(٢) .

Epitome Novellarum

---

(1) Scheltema : Byzantine Law, pp. 56 — 57.

(2) Scheltema : Byzantine Law, p. 57.

وللمزيد من المعلومات عن جهود جستنيان فى مجال التشريع فى مختلف المجالات راجع :

Roby : Roman Law, in C.M.H. ed Bury, vol 11, pp.53 — 108.

الفصل السادس

تقييم انجازات جستنيان

- أهمية جهود جستنيان فى مجال القانون .
- نتائج جهوده لتحقيق وحدة الكنيسة .
- تقييم سياسته الخارجية تجاه الغرب وفارس .
- المشاكل المالية والطبيعية التى واجهت جستنيان وأساءت للموقف .
- أهم نتائج هذا البحث .

بعد أن استعرضنا عصر هذا الإمبراطور وجهوده فى مختلف المجالات ، لعله أصبح من الواضح أنه لا يستحق هذا الوصف الذى وصفه به المؤرخ فيشر(١) ، بل نستطيع أن نقول إن الإنسان يقف مبهوراً أمام الإنجازات الضخمة التى حققها جستنيان للإمبراطورية البيزنطية ، والتى لا تزال آثارها باقية حتى اليوم لتؤكد للأجيال عظمة هذا الإمبراطور ، ومنها آيا صوفيا ، وأحواض « القصر الغائر »(٢) و « ألف عمود وعمود » فى استانبول ، وكنيستى سانت أبوليناز St. Apollinare ، وسانت فيتالى Vitale فى رافنـا .

أما عن الأثر الذى تركته جهوده فى مجال التشريع وترتيب القانون الرومانى ، فقد ظهر بشكل واضح بعد تأسيس معهد الدراسات القانونية بمدينة بولونيا فى شمال إيطاليا ، أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، ومن ثمة أصبحت دراسة القانون الرومانى المدنى حسبما أصدره جستنيان دليلا واضحاً على أن ذلك المجتمع قد تولدت عنه أفكار ناضجة فى الملكية الخاصة والحقوق العائلية ونظرية العقد ، وأنه كان وثيق الصلة بالحياة الواقعية ، وأنه لم يبن على التشريع بقدر ما بنى على العرف والعادة وأقوال الفقهاء . وهكذا وجدت أوروبا الغربية ، حين انجابت عنها ظلمات العصور الوسطى ، وتكشفت لها مجموعة القانون المدنى الذى رتبه جستنيان ، أنها أمام بناء شامخ هو المدنية الأوروبية التى كانت والتى سوف تكون . على حد تعبير فيشر(٣) .

---

(١) أنظر الفصل الأول من هذا البحث . ص١٧

(٢) أنظر الصورة رقم (٥) .

(٣) فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ص ٥٥ — ٥٦ .

أما عن جهود جستنيان فى الناحية الدينية ، فقد رأينا كيف كان شغله الشاغل محاولة التوفيق بين كنيسة روما والكنائس الشرقية وإقامة كنيسة واحدة ، ولكن من الواجب أن نعترف أنه أخفق فى تحقيق وحدة الكنيسة داخل إمبراطوريته ، بعد أن ظل المونوفيزيتيون على عنادهم وتباعدهم . على أنه مما يعوض هذا الفشل ، ذلك النجاح الذى أحرزه فى مجال التبشير ، والذى كان من نتيجته نشر المسيحية بين القبائل والشعوب المجاورة ، فقد كان جستنيان يرى باعتباره إمبراطوراً مسيحياً أن واجبه يقتضى العمل على نشر المسيحية ليس فقط داخل إمبراطوريته ، وإنما خارجها كذلك ، ومن ثمة دأب على إرسال البعثات التبشيرية إلى المناطق التى لم تصل إليها المسيحية بعد ، وقد أثمرت جهوده فى هذا المجال ، وكان من نتيجتها تنصير قبائل الهرولى Heruli على الدانوب ، وبعض القبائل فى منطقة القوقاز ، وغيرها فى شمال إفريقية وفى حوض النيل الأوسط(١) .

وفيما يتعلق بحروبه فى الغرب ، فهل كانت ترفاً لا لزوم له ، وهل كانت من أجل تحقيق أطماعه الشخصية كما يرى بعض المؤرخين ؟(٢) .

إذا نحن نظرنا إليها فى ضوء المبادىء والمثالية الرومانية وجدنا أنها لم تكن كذلك ، فبانتهاء عهد رومولوس أو جسطولوس آخر أباطرة الغرب الرومان فى سنة ٤٧٦ م . انتهى « شبه الإنقسام » الذى كان موجوداً من قبل ، وظلت نظرية « الدولة الواحدة » قائمة دون تغيير ، وعادت الوحدة القديمة لشطرى الإمبراطورية إلى ما كانت عليه ، وانتقلت حقوق

---

(1) Vasiliev : The Byzantine Empire, vol. I, p. 141.

(٢) أنظر الفصل الأول من هذا البحث ص١٧.

الإمبراطور الغربى تلقائياً إلى الإمبراطور الشرقى ، الذى جمع السلطة الرومانية Imperium Romanum فى يده مرة أخرى(١) .

وفى ضوء هذه النظرية الرومانية ، أصبح من واجب الإمبراطور الشرقى أن يعمل جاهداً على إعادة ضم هذه الولايات الغربية للإمبراطورية من جديد ، على أن الأباطرة السابقين لجستنيان قد قنعوا وقتذاك بما لهم من سيطرة إسمية على هذه الأقاليم وبما اعترف لهم به زعماء البرابرة من نفوذ شكلى وفضلوا الكسل والتراخى - على حد تعبير جستنيان - ولو كان هؤلاء الأباطرة حاولوا استرجاع هذه الأقاليم منذ وقت مبكر ، فربما كانوا قد نجحوا فى إيقاف التيار الذى سار فيه الغرب الأوروبى مبتعداً به عن الشرق الهللينستى ، ولما اتسعت الفجوة بين شطرى الإمبراطورية ، ولنجحت بيزنطة فى فرض سيطرتها الفعلية ونفوذها السياسى والحضارى على هذا الجزء من ممتلكاتها .

أضف إلى ذلك أن الإمبراطور الشرقى قد مارس منذ البداية الاستبداد القيصرى البابوى Caesaro — Papism ، بمعنى أنه كان رأساً للكنيسة كما هو رأساً للدولة . وبناء على ذلك أصبح واجبه الدينى يحتم عليه أن يخلص أهالى الولايات الغربية من يد الغزاة الأريوسيين ، وأن يعيد الأرثوذكسية إلى هذه البلاد ، وقد نظر هؤلاء الأهالى للإمبراطور الشرقى على أنه منقذهم ومخلصهم من هؤلاء السادة الكفرة .

وكان تخلى الإمبراطور الشرقى عن أداء واجبه السياسى والدينى تجاه الأقاليم الغربية للإمبراطورية يعتبر خيانة للمثالية الرومانية . وهكذا يتضح

(1) Vasiliev : op. cit. vol. I, p. 133.
Ostrogorsky : op. cit. p. 60.

أن إستعادة الأقاليم الغربية كان مسألة شديدة الأهمية بالنسبة لإمبراطور متشبع بالتقاليد والمثل الرومانية . وقد وجدت المثالية الرومانية فى شخص جستنيان المؤمن بها والمنفذ لها .

أما عن كون هذه الفتوحات الغربية لم تكن دائمة وأنها انهارت بعد وفاة جستنيان(١) ، فهذا يخالف الواقع ، ذلك أن إقليم شمال إفريقية استمر بيد الدولة البيزنطية لمدة تزيد على القرن من الزمان . وكان مركزاً للولاء الإمبراطورى ، وقد خرج منه هرقل فى عام ٦١٠ م لينقذ الإمبراطورية من الهوة التى غرقت فيها أثناء حكم فوقاس (٦٠٢ — ٦١٠) ، ولم يسقط هذا الإقليم إلا أمام الفتح الإسلامى فى عام ٧١١ م . وبعد أن سقطت الولايات الشرقية نفسها فى يد المسلمين(٢) .

أما فى أسبانيا فقد ظل الإقليم الذى تم استرداده لها يدين بالولاء للإمبراطورية لمدة سبعين سنة(٣) .

وبالنسبة لإيطاليا ، فقد استمر الحكم البيزنطى والنفوذ الهللينستى فى الجنوب لمدة خمسة قرون تالية — أى حتى القرن الحادى عشر الميلادى — حين استولى النورمان فى عام ١٠٧١م على مدينة بارى آخر معقل للبيزنطيين هناك(٤) .

---

(١) أنظر الفصل الأول من هذا البحث . ص١٧

(2) Ostrogorsky : History of the Byzantine State, pp. 140 — 141.

(3) Vasiliev : op. cit, vol. I, p. 138.
Bury : Later Roman Empire, vol. II, p. 287.

(4) Tout : The Empire and the Papacy, p. 117.
Ostrogorsky : op. cit. p. 79.

وفيما يتعلق بسياسته على الجبهة الشرقية للإمبراطورية ، فقد لقيت الكثير من الانتقاد من جانب المؤرخين ، واتهموه بأنه أهمل الجبهة الشرقية « إهمالا شديداً » على حد تعبير المؤرخ ديل(١) .

والحقيقة أن جستنيان لم يوجه اهتماماً كافياً لهذه الجبهة ، رغم أهميتها الحيوية للإمبراطورية . ويبدو أن إيمانه بالمبادىء المثالية الرومانية الخاصة باستعادة الأقاليم الغربية ، وحرصه على تحقيقها ، جعلته ينظر إلى حروبه فى الغرب على أن لها الإعتبار الأول والأهم . وربما قنع جستنيان آنذاك بأن الإمبراطورية البيزنطية قد حافظت على ممتلكاتها فى الشرق ولم تفقد شيئاً من أقاليمها هناك .

وقد كلفت جهود جستنيان فى مختلف المجالات — سواء فى ميدان الحرب أو الإنشاء والتعمير — الدولة الكثير من الجهد والمال ، خاصة وأن الضرائب المفروضة على الشعب لم تكن تصل إلى الخزينة الإمبراطورية ، ولم يصل إليها إلا الثلث فقط ، نتيجة لعدم أمانة الموظفين المكلفين بجمعها . وقد حاول جستنيان القضاء على هذه الظاهرة بإصداره العديد من المرسومات والقوانين ، غير أن جهوده كلها لم تأت بالنتيجة المرجوة ، لأنه لم يكن باستطاعة أحد أن يغير من الطبيعة البشرية لهؤلاء الموظفين .

ولما اشتدت حاجة الإمبراطور إلى المال لمواجهة نفقات الدولة وحماية حدودها من هجمات المتبربرين ، لجأ إلى استحداث ضرائب جديدة ، وما صحب جباية هذه الضرائب من إجراءات شديدة صارمة ترتب عليها أن

---

(1) Diehl : Byzance, Grandeur et Decadence, p. 8.
Ostrogorosky : History of the Byzantine State, p. 71.
Vasiliev : History of the Byzantine Empire, vol. I, p. 142.

أصاب القرى الخراب وهجرها سكانها ، وفقدت الأرض خصوبتها ، ونشبت الاضطرابات فى أماكن عديدة ، حتى اقتضى الأمر أن يفرض جستنيان الأحكام العرفية فى بعض الأقاليم(١) .

ثم ما عمد إليه جستنيان من محاولة توفير الأموال عن طريق تخفيض عدد الجيش والتوقف عن دفع مرتبات الجند ، كان له نتائج بالغة الخطورة ، إذ أدى ذلك إلى أن أصبحت حدود الإمبراطورية مكشوفة للأعداء وخاصة القبائل المتبربرة التى أخذت تعيث فساداً فى أملاك الإمبراطورية . وهنا لجأ جستنيان لبناء سلسلة من القلاع والحصون والخطوط الدفاعية على طول أطراف الإمبراطورية فى آسيا وأوروبا ؛ كما لجأ إلى استمالة هؤلاء المتبربرين بالأموال والهدايا ودفع الجزية لهم(٢) .

وإن كان بعض المؤرخين مثل فيشر يمتدحون هذه السياسة ويجدون فيها دليلا على سداد تفكير جستنيان وعلاجاً ناجحاً لمشكلة نقص الأموال(٣). إلا أنها فى رأيى قد ضاعفت من المشكلة ولم تكن بالعلاج الناجح السليم ، إذ أن تلك الإجراءات كلها قد اعتمدت أولا وأخيراً على بذل الأموال سواء كان ذلك أموالاسائلة للأعداء أوما تكلفه تشييد التحصينات من نفقات ، فى الوقت الذى كان جستنيان يعانى فيه من الضائقة المالية التى ألجأته إلى كل هذه الإجراءات . وهكذا أصبح جستنيان يدور فى حلقة مفرغة .

أضف إلى ذلك أن إنشاء هذه الحصون والقلاع أصبح عديم الجدوى ، فلم يتهيأ لها الجنود المدافعون عنها ، وقال المؤرخ المعاصر أجاثياس :

---

(1) Vasiliev : vol I, pp. 160 — 161.

(٢) فيشر : جزء ١ ، ص ٥٤ .

(٣) فيشر : ج ١ ، ص ٥٤

« إن هذه القلاع والحصون كانت خالية خاوية لا يسمع فيها نباح كلب واحد »(١) .

على أنه من الجائر أن نحكم على جستنيان حكماً مبنياً على ما آلت إليه الأمور فى أواخر أيامه ، خاصة وأن عوامل طبيعية بحتة ابتلى بها عصر جستنيان وكان لها أثرها فى سوء الموقف فى السنوات الأخيرة . مثل الأوبئة وخاصة وباء الطاعون الذى انتشر فى الإمبراطورية فى سنة ٥٤٤ م وكانت بداية ظهوره بمصر ، ثم انتقل إلى سورية فالقسطنطينية ، فالأناضول ثم ما بين النهرين ، ثم انتقل إلى صقلية وإيطاليا . وقد تزايد فتك هذا الوباء بالسكان ، ويقال إنه أفنى ثلثهم . ونتيجة لذلك عم الخراب فى المدن والقرى وتوقف الزرع . فانتشرت المجاعات واضطربت الدولة بأسرها ، وقد زاد ذلك فى نقص الإيرادات ، كما قضى هذا الوباء على كثير من الشباب الذين كان عليهم حمل السلاح والاضطلاع بعبء الدفاع عن الإمبراطورية ضد الأعداء المتربصين بها من كل جانب .

وقد تعددت الزلازل ، وكان أخطرها الزلزال الذى حدث فى عام ٥٥١م وقد اهتز فيه الساحل السورى من أرواد حتى صور ، وعم الخراب وأصيبت مدينة بيروت بالضرر الأكبر من جراء هذا الزلزال ، ويقال إن البحر تعرض لحركات المد والجزر مما تسبب فى إغراق العديد من السفن وآلاف الناس ، ويصف المؤرخ أجاثياس ما أصاب بيروت بقوله : « بيروت زهرة فينيقية ذوت بعد هذه الزلزلة العظيمة وتقلص ظل جمالها ، ودكت أبنيتها الشامخة البديعة فتقوضت ، ولم يبق منها إلا ردم وخراب ،

(1) Agathias : Historiarum, ed Bonn, p. 333.

وهلك تحت أنقاضها جم غفير من الأهالى والأجانب . واختطف الموت نخبة الشباب الأشراف الذين كانوا قد قدموا إلى بيروت لدراسة الحقوق الرومانية فى مدرستها الشهيرة التى كانت فخراً وتاجاً على مفرقها تباهى بها مثيلاتها من المدن العظمى »(١) .

والخلاصة أن عهد جستنيان قد بدأ بداية طيبة بشرت بالآمال الزاهرة . ثم سار وهو مكلل بالأعمال الرائعة والجهود المخلصة من أجل النهوض بالإمبراطورية وتبوئها مكانة رفيعة سامية ، ثم انتهى هذا العهد وهو محاط بجو من اللوم والسخط الشديدين ، على إمبراطور هو فى الحقيقة من عمالقة التاريخ الأوروبى ، ويكفى وصف المؤرخ المعاصر أجاثياس الذى قال عن جستنيان إنه « أول من دل بأقواله وأفعاله دون جميع أباطرة الدولة الرومانية ، أنه امبراطور »(٢) .

ومن خلال عرضنا لعصر جستنيان وإنجازاته فى مختلف المجالات يمكننا أن نستخلص الحقائق التالية :

أولا :

إن جستنيان كان الإمبراطور الوحيد منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية القديمة فى عام ٤٧٦ م . وحتى نهاية عهد الإمبراطورية الرومانية الشرقية فى عام ١٤٥٣م . الذى قام بمحاولات عسكرية ضخمة وفق مخطط يهدف إلى استرجاع ممتلكات الإمبراطورية الرومانية القديمة ، محققاً بذلك وبشكل عملى المبدأ الرومانى الهام الخاص بمسئولية الإمبراطور الرومانى

---

(1) Agathias - Historiarum, ed Bonn ,pp. 95 — 96.
(2) A gathias : p. 335.

الشرقى من الناحيتين السياسية والدينية تجاه الأقاليم الغربية التى استولى عليها البرابرة الجرمان .

ثانياً :

إنه ليس من الصواب القول إن جستنيان قد أعاد إحياء الإمبراطورية الرومانية القديمة لأنه — كما اتضح من خلال هذا البحث — لم يعيد هذه الإمبراطورية بحدودها التى كانت عليها فيما مضى ، وإنما الأصح القول بأنه استعاد بعض الأقاليم الرومانية الغربية ، ووسع بذلك حدود إمبراطوريته .

ثالثاً :

إن عهده يمثل آخر مرحلة من مراحل عظمة الإمبراطورية الرومانية اللاتينية ، وبعده أخذت الإمبراطورية الشرقية تصطبغ بالصبغة الهللينستية .

رابعاً :

إن سياسته الدينية الخاصة بإصراره على ممارسة الاستبداد القيصرى البابوى ، قد أوجدت سابقة من السيادة الدينية العليا للأباطرة البيزنطيين التاليين تمسكوا بها ، وظلوا يمارسونها حتى نهاية عهد الإمبراطورية البيزنطية ، وظل الإمبراطور البيزنطى حتى النهاية ، رأسا للكنيسة ، كما هو رأساً للدولة ، وبذلك أنقذ خلفاءه من التعرض لمواقف مماثلة لما حدث للأباطرة فى الغرب ، مثل هنرى الرابع وحادثة كانوسا ، وفردريك بربروسا ومقابلة البندقية(١) .

---

(١) تمت الحادثتان أثناء النزاع الذى أشتد بين أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة والبابوية حول المبدأ الهام أيها أسمى وأيها يجب أن تكون له السيادة العليا البابوية أم الإمبراطورية =

خامساً :

إن فتوحاته فى الغرب لم تنهار سريعاً . ولكن يعود الفضل لهذه الفتوحات فى إعادة واستمرار النفوذ البيزنطى فى جنوب إيطاليا لعدة قرون تالية . وكانت فتوحاته هذه هى الأساس الذى استند عليه خلفاؤه الذين حاولوا أن يثبتوا نفوذهم فى الغرب . وأن فتوحاته فى شمال إفريقية استمرت قائمة . ولم تنهار إلا أمام طوفان الفتوحات الإسلامية . ولم تسقط إلا بعد سقوط الولايات الشرقية ذاتها . وأنه أعاد البحر الأبيض المتوسط بحيرة رومانية مرة أخرى .

وتتلخص حادثة كانوسا فى أنه بعد أن أصدر البابا جريجورى السابع قرار الحرمان ضد الإمبراطور هنرى الرابع سنة ١٠٧٦ ، وتخلى أمراء ألمانيا عن الإمبراطور ، ذهب الأخير لمقابلة البابا ، الذى كان محتمياً بقلعة كانوسا ، ووقف الإمبراطور ثلاثة أيام وسط الجليد أمام أبواب القلعة الموصدة فى وجهه ، حتى تعطف البابا وسمح له بالمثول بين يديه بشرط التسليم للبابوية بكل ما تطلبه دون قيد ، ثم دخل هنرى الرابع القلعة فى يناير ١٠٧٧ وما أن وجد نفسه أمام البابا حتى ارتمى على قدميه وانفجر باكياً وهو يقول : «اغفر لى أيها الأب المقدس» . فغفر له البابا بعد أن فرض عليه شروطاً قاسية وزوده بالنصح والإرشاد . وقد تكرر هذا الموقف بعد مائة سنة بالضبط وفى عام ١١٧٧ بين الإمبراطور فردريك بربروسا والبابا اسكندر الثالث ، حين دخل فردريك مدينة البندقية وقابل البابا الذى كان محاطاً بجمع حافل من الكرادلة ، وارتمى الإمبراطور على قدمى البابا باكياً طالباً الصفح والغفران .

بشأن تفاصيل هذا النزاع أنظر :

سعيد عاشور . تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، جـ ١ ، ص ص ٣٠٢ — ٣٦٣ .

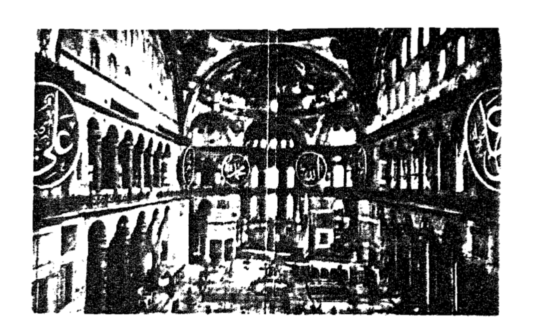
Tout : The Empire and the Papacy, pp. 122 — 390.

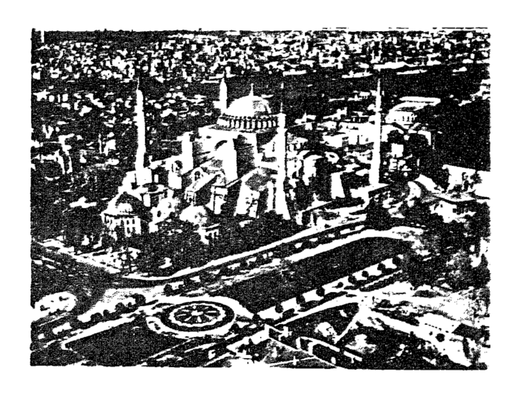




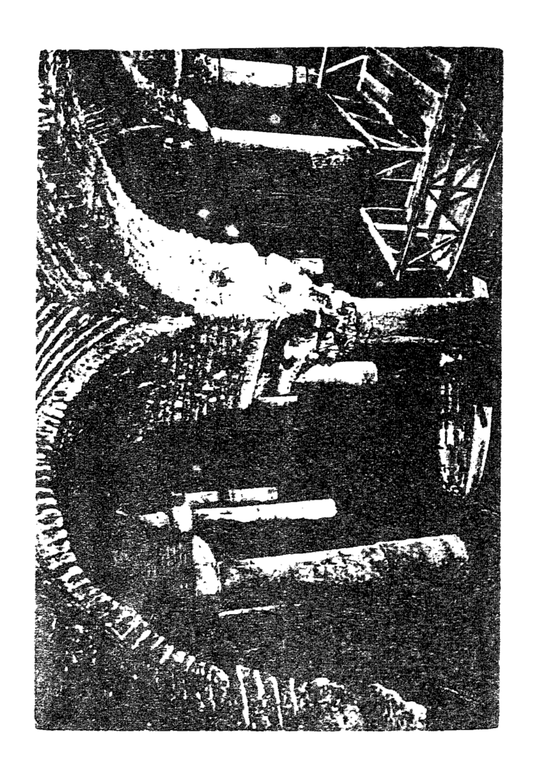




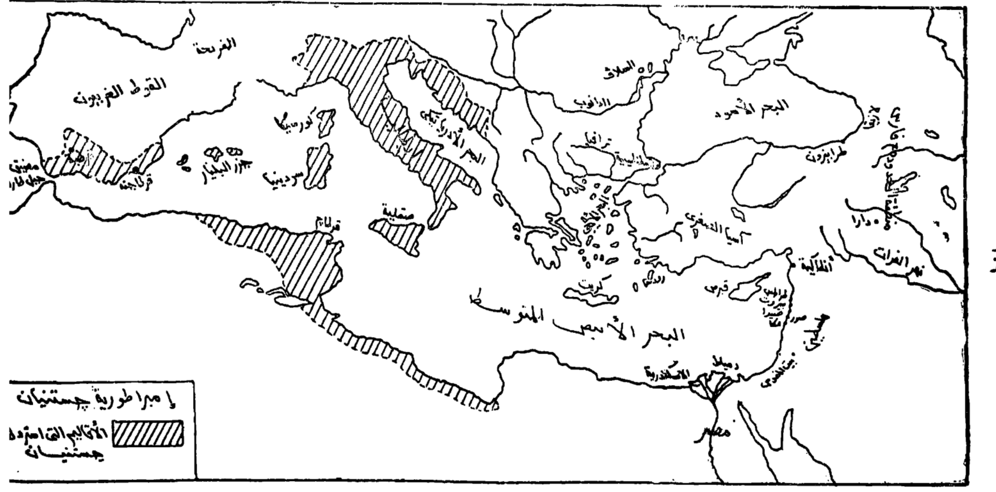

علي







الخـــرائط


الفرنجة
القوط الغربيون
كورسيكا
سردينيا
جزر البليار
قرطاجنة
صقلية
قرطاجة
البحر الأدرياتيكي
الصقالبة
الدانوب
البحر الأسود
تراقيا
طرابزون
آسيا الصغرى
أنطاكية
قبرص
كريت
رودس
البحر الأبيض المتوسط
الاسكندرية
دمياط
مصر
صور
بيروت
صيدا
عكا
فلسطين
بيت المقدس
دارا
نهر الفرات
إمبراطورية جستنيان
الأقاليم التي استردها جستنيان

المراجع



المراجع العربية

- أسد رستم : الروم فى سياستهم وحضارتهم وديانتهم وثقافتهم ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٥ .
- السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية (٣٢٣ – ١٠٨١) القاهرة، ١٩٦٠ .
- سعيد عبد الفتاح عاشور : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الأول.
- عمر كمال توفيق : تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، الإسكندرية، ١٩٦٧ .
- نبيه عاقل : الإمبراطورية البيزنطية ، دمشق ، ١٩٦٩ .
- أومان : الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة مصطفى بدر ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

المراجع المعربه

- بينز : الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس محمود زايد ، القاهرة ، ١٩٥٠ .
- ديفز : أوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة الدكتور عبد الحميد حمدى محمود ، الإسكندرية ، ١٩٥٨ .
- فيشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى ، الطبعة السادسة ، دار المعارف بمصر .
- موص : ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، مراجعة د. السيد العرينى ، القاهرة ، ١٩٦٧ .

المراجع غير العربيه

— Agathias : Historiarum, Niebuhr, Bonnae, MD · × V

— Barker : gustinian and the later Roman Empire, London, 1966.

— Boad : Byzantine Imperialism, in Egypt. American Historical Review, XXXIV, 1928.

— Brehier : Vie et mort de Byzance, Paris, 1969.

— Bury, J.B. : A History of the Eastern Roman Empire, London, 1912.

A History of the later Roman Empire, London, 1923

— Cambridge Medieval History, Vol, IV, ed. Bury, Cambridge, 1926.

— Cambridge Medieval History, Vol. IV, ed. Hussey. Cambridge. 1966 - 1967.

— Diehl (ch) : Byzance, Grandeur et Decadence, Paris, 1928.

— Di?hl et Marcais : Le monde oriental de 395 a 1081, Paris, 1936.

— Dolger, F. : Byzantine Literature C.M.H., vol. IV, part II, ed. Hussey, Cambridge, 1967.

— Dvornik F. : Constantinople and Rome, C.M.H., vol. IV, Part I, ed. Hussey, Cambridge, 1966.

— Encyclopedia Britannica, William Benton, Publisher, U.S.A. 1968.

— Ensslin, W. The government and Administration of the Byzantine Empire, C.M.H. IV, part II, ed. Hussey, Cambridge, 1967.

— Gilbon : The Decline and Fall of the Roman Empire, London 1976.

— Diehl et Marcais : Le monde oriental de 395 a 1081, Paris 1936.

— Dolger, F. : Byzantine Literature C.M.H., vol. IV, part II, ed. Hussey, Cambridge, 1967.

— Dvornik F. : Constantinople and Rome, C.M.H., vol. IV, Part I, ed. Hussey, Cambridge. 1966.

— Encyclopedia Britannica, William Benton, Publisher, U.S.A. 1968.

— Ensslin, W. : The government and Aministration of the Byzantine Empire, C.M.H. vol. IV, part II, ed. Hussey, Cambridge, 1967.

— Giblon : The Decline and Fall of the Roman Empire

— Grabar, A. : Byzantine Architecture and Art, C.M.H. vol. IV, part II, ed. Hussey, Cambridge, 1967.

— Herman (E) : The Secular churches. C.M.H. vol. IV, part II. ed. Hussey, Cambridge.1967

— Hussey (J.) : The Byzantine World. I, London, 1955.

— Justinian : Novellae, ed K.E. Zachariae von Lingenthal, Jus graeco—romanum, Leipzig, 1856 — 84.

— Lot : The End of the Ancient World and the Beginnings of the Middle Ages, London 1931.

— Moss (H.B.) : The Formation of the East Roman Empire (330—717), C.M.H. vol. IV, part I, ed Hussey, Cambridge, 1966.

— Moss : The Birth of the Middle Ages, Oxford, 1947.

— Obolensky,(D) : The Empire and its Northern Neighbours, C.M.H. vol, IV, part I, ed Hussey, Cambridge, 1966.

— Oman : The Dark Ages, London, 1908.

— Ostrogorsky(G): History of The Byzantine State, English Trans. by Hussey, Oxford, 1968.

— Procopius : Historia Arcana, ed, Haury, (1906) De bello Vandalico, English Trans. by Dewing.

— Rambaud,(A) : Etudes sur l'histoire Byzantine, Paris, 1912.

— Runciman, (S) : Byzantine Civilisation, Seventh Impression, Great Britain, 1975.

— Scheltema,(H.J): Byzantine Law, C.M.H. vol. IV, part II, ed Hussey, Cambridge, 1967.

— Tout. (T.F.) : The Empire and the Papacy, London, 1924.

— Vasiliev(A.A) : History of The Byzantine Empire (324—1453). vol. I, Wisconsin Press. U.S.A.

— Wellesz. (E) : Byzantine Music and Liturgy, C.M.H. vol. IV, part II, ed Hussey, Cambridge, 1967.



جامعة الإسكندرية
كلية التربية

الآفـــــار

دكتـــورة
إسمـــت غنيـــم
جامعة الاسكندرية

١٩٩١م

بسم الله الرحمن الرحيم

تعرضت الإمبراطورية الرومانية بشقيها الشرقي والغربي لهجمات عناصر مختلفة ، سواء كانت هذه العناصر من البرابرة الجرمان ، أو من القبائل الآسيوية الرعوية ، وإذا كانت شبه جزيرة سكينديناوة في شمال أوروبا ، تبدو قريبة من حدود الإمبراطورية الرومانية في الغرب الاوروبي ، فقد كانت المناطق التي عاشت فيها الشعوب الآسيوية بعيدة إلي حد ما عن أوروبا ، حيث عاشت هذه الشعوب في سهول آسيا في ظروف معيشية صعبة وتحت رحمة الطبيعة وتقلباتها ، لذلك أخذوا في التنقل والترحال من مكان إلي آخر ، بحثا عن الغذاء لهم ولما معهم من خيل وماشية ، واضطروا أحيانا للقيام بغارات مدمرة هدفها السلب والنهب ، وتعرضت أوروبا لهذه الغارات بين الحين والحين ، وغدت السهول الواقعة شمالي بحر قزوين منفذا أمام هذه القبائل نفذت منه إلي أوروبا ، فأثارت جوا من الرعب والفزع بين الشعوب الموجودة علي حدود الامبراطورية الرومانية ثم داخل هذه الامبراطورية ذاتها فيما بعد .

وكان من بين هذه الشعوب الآسيوية ، السكيثيين Scythians ، والسارماشيين Sarmatians ، والهون Huns ، والآفار Avars ، والبلغار Bulgars ، والمجريين Magyars ، والمغول Mongols ، وغيرهم كثيرين .

ولا يخفي علي أحد من الباحثين في تاريخ أوروبا في العصور الوسطي ، الدور الذي قام به الهون منذ ظهورهم في حوض نهر الدانوب الأدني في عام ٣٧٥م ، وحتي وفاة زعيمهم أتيلا في ٤٥٣م ، وانهيار امبراطورية الهون بعد

هزيمتهم في معركة نديو Nedeo في عام ٤٥٤ م. [1] .

وقد لعب الآفار دورا قريب الشبه بالدور الذي لعبه الهون في أوروبا ، فاستولوا مثلهم علي موقع ممتاز في وسط أوروبا علي الحافة الغربية لنطاق السهل الآسيوي العظيم ، وظلوا أكثر من قرنين من الزمان يثيرون الرعب في قلوب شعوب المنطقة الممتدة بين بحر البلطيق وشبه جزيرة المورة (البلوبونيز) و أخضعوا شعوبا كثيرة لسيطرتهم ، وكان حكمهم يتناسب مع أسلوب حياتهم ، وأصولهم في بلاد السهوب ، اذ ينطوي علي الاستبداد ، ويعتمد علي القوة ، ويقوم علي غارات السلب والنهب وبث الرعب والإرهاب .... ثم يتعرض للإنهيار الفجائي .

وكان تأثير الآفار في أوروبا العصور الوسطي تأثيرا كبيرا ، وكانت لهم علاقات مع الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، وهددوا القسطنطينية أكثر من مرة ، كما هددوا غرب أوروبا ، وهاجموا إيطاليا ، وسببوا متاعب لملكة الفرنجه ، حتي تم لشارلمان (٧٦٨ - ٨١٤م) القضاء عليهم ، وبذلك زالت عقبة أمام امتداد النفوذ الفرنجي شرقا ، كما مكن الفيكنج من الوصول إلي نهر الدنيبر وسواحل البحر الأسود ، وتأسيس مدينة كييف ، التي كانت اللبنة الأولي في صرح الإمبراطورية الروسية .

وقد إعتمدنا في هذا البحث علي العديد من المصادر المعاصرة ، وهي مصادر أصلية قيمة ، أمدتنا بالمعلومات التاريخية الهامة عن غزوات الآفار وأتباعهم من

(١) سعيد عاشور : أوروبا في العصور الوسطي ، الجزء الأول التاريخ السياسي ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ص ٧٢ ، ٩١ .

جوزيف نسيم يوسف : تاريخ العصور الوسطي الاوروبية ، الاسكندرية ، ١٩٨٤ ، ص ص ٨٠ - ٨٢ .

السلاف وغيرهم من العناصر الأخري ، خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي . كما أن هناك مصادر أخري عرضت للحادث الخطير الخاص بحصار الآفار وأتباعهم لمدينة القسطنطينية في عام ٦٢٦م. أثناء عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠ – ٦٤١م) وتفاصيل هذا الصراع والنتائج التي ترتبت علي فشله . وأمدتنا مصادر ثالثة بتفاصيل الصراع بين شارلمان والآفار ، وهو الصراع الذي إنتهي بقضاء شارلمان عليهم في ٨٠٩م.

ومن أهم المصادر التي عرضت للآفار وبداية ظهورهم علي مسرح الحوادث التاريخية وغاراتهم علي أوروبا خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، المصادر التالية حسب ترتيبها الزمني :

يوحنا الأفسوسي Jhon of Ephesus [١] :

هو كاتب سوري الأصل ، عاش في أواسط القرن السادس الميلادي وقضي سنوات حياته في آسيا الصغري والقسطنطينية وتوفي في عام ٥٨٦ م. وأثناء حياته شغل منصب بطريرك كنيسة إفسوس وكان معروفا بصفة شخصية للإمبراطور جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥م) وزوجته الإمبراطورة ثيودورا .

وكان يوحنا يؤمن بمذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح Monophysite ، وكتب عن التاريخ الديني Ecclesiastical History كتابا بدأه بعصر يوليوس

(١) للمزيد عن يوحنا الافسوسي راجع :

C. Med. H. , ed. Hussey , Vol IV , Part I , Cambridge , 1975 , P. 480 , 603 , N. I.

Vasiliev : History of the Byzantine Empire , vol I , PP. 150 - 151 , 184 - 185 .

قيصر (٤٩ ق.م – ٤٤ ق.م) كما عرض لوجهة نظر أصحاب الطبيعة الواحدة .

وما يهمنا في هذا المصدر ، هو الحوادث التاريخية التي عرض لها منذ عام ٥٢١ وحتي عام ٥٨٥ م. والتي اشتملت علي معلومات قيمة في التاريخ السياسي والثقافي للإمبراطورية البيزنطية في القرن السادس الميلادي .

وقد كتب يوحنا مؤلفه هذا باللغة السريانية ، وترجمة إلي اللغة الانجليزية باين– سميث Payne - Smith ونشره في أكسفورد في عام ١٨٦٠م ، وهي الترجمة التي رجعنا إليها في هذا البحث . وهناك ترجمة لاتينية لهذا المؤلف قام بها بروكس Brooks ، ولوفين Louvain ، وظهرت عام ١٩٣٦ .

أفاجريوس Evagrius :

يعرف باسم أفاجريوس السوري Evagriuş of Syria ، ولد في عام ٥٣٦، وتوفي في عام ٦٠٠ م. ، كتب في التاريخ الكنسي Historia Ecclesiastica مؤلفا اشتمل علي ستة فصول ، بدأه بمجمع إفسوس الديني في ٤٣١ م. وانتهي به عام ٥٩٣م. وإلي جانب الحوادث الدينية التي تضمنها ، اشتمل كتابه أيضا علي حوادث تاريخية هامة للفترة الزمنية المشار اليها ، وقد نشره باللاتينية بيدز Bidez وبارمنتير Parmentier في لندن عام ١٨٩٨م. وهي الطبعة التي رجعنا اليها في هذا البحث .

ميناندر Menander :

هو مؤرخ ، عاش في القرن السادس الميلادي وكان موظفا في القصر

الإمبراطوري ، كلفه الامبراطور موريس (٥٨٢ - ٦٠٢م.) بكتابة تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، فكتب تاريخا غطي فيه معظم القرن السادس الميلادي ، وتناول فيه بصورة أكثر تركيزاً الفترة الزمنية الممتدة من سنة ٥٥٨ إلي سنة ٥٨٢م.، وهي فترة هامة بالنسبة لهذا البحث ، شهدت بداية اتصال الآفار بالإمبراطورية البيزنطية في ٥٥٨م. في عصر الإمبراطور جستنيان ، ثم عرض لغارات الآفار وأتباعهم من السلاف والعناصر الأخري علي ممتلكات الإمبراطورية في اقليم البلقان وبلاد اليونان حتي عام ٥٨٢م ، ويعتبر تاريخ ميناندر تكملة لتاريخ أجاثياس مؤرخ عصر جستنيان ، كما قام ثيوفيلاكتوس سيموكاتا بتكملة تاريخ ميناندر .

ولم يبق ممن تاريخ ميناندر .سوي بعض أجزاء Fragments نشرت في علم ١٨٢٩م. في مجموعة بون البيزنطية C. S. H. B. باسم (مقتطفات من التاريخ) Excerta ex Historia ، كما قام ديندورف Dindorf بنشر هذه الأجزاء تحت إسم (تكملة تاريخ أجاثياس) Agathias Continuatus في مدينة ليبزج في عام ١٨٧١ في مجموعة : Historici Graeci Minores وهذه الطبعة هي التي رجعنا اليها في هذا البحث .

ثيوفيلاكتوس سيموكاتا heophylactus Simocatta :

ولد بمصر ، وعاش بالقسطنطينية خلال عصر الامبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) ، وشغل منصب السكرتير الإمبراطوري ، وإلي جانب ما كتب عن العلوم الطبيعية وبعض الرسائل [١] ، فانه كتب أيضا تاريخ عصر الإمبراطور موريس

(1) Ostrogorsky : History of the Byzantine State , trasl. by Hussey , Oxford , 1968 , P. 25 .

Vasiliev : Op. cit , P. 181 - 182 .

(٥٨٢ - ٦٠٢ م) ، الذي يعتبر مصدرا هاما عن عصر هذا الامبراطور ، وقد أمدنا بمعلومات ذات قيمة تاريخية كبيرة عن الآفار والسلاف في منطقة البلقان عند نهاية القرن السادس الميلادي ، ونشره العالم دي بور De Boor باللغة اللاتينية تحت اسم التاريخ Historiae في ليبزج Leipzig في عام ١٨٨٧م.

يوحنا بيكلارنسيس Johannis Biclarensis :

عاش في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، وهو ينتمي إلي القوط الغربيين Visigothes ، ولد بإسبانيا ثم انتقل للإقامة بالقسطنطينية وعاش بها لمدة سبعة عشر عاما ثم عاد لأسبانيا مرة أخري ، وأثناء وجوده بالقسطنطينية درس اللغتين اليونانية واللاتينية [١] . وقد أعطي وصفا للحوادث التاريخية منذ عصر جستين الثاني (٥٦٥ - ٥٧٨م) وحتي عصر طيبريوس الثاني (٥٧٨ - ٥٨٢م) فيما أسماه (تاريخا أو عرضا للحوادث) Chronica ، ونشره باللاتينية مومسن Mommsen في برلين ، في عام ١٨٩٤م .

كانت هذه هي أهم المصادر التي رجعنا إليها عند معالجة تاريخ الآفار خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، أما الحادث الهام ، الخاص بحصارهم البري والبحري للعاصمة البيزنطية القسطنطينية في عام ٦٢٦م ، فقد سجلته مجموعة من المصادر المعاصرة ، منها ما دونه رجل الدين المعاصر جورج بيسيديا Pisidia ، الذي كان يعمل شماسا في كنيسة أيا صوفيا ، وقد دون كل ما يتعلق بهذا الحصار في قصيدة شعرية تاريخية تضم أكثر من خمسمائة بيت من الشعر . وقد قسمت هذه القصيدة إلي ثلاثة أقسام :

(1) Toynbeé A. : Constantine porphyrogenetus and his world , London , 1973 , P. 633 , N . I .

القسم الأول :

عن الحملة التي قام بها هرقل ضد الفرس في عام ٦٢٢م ، وأطلق علي هذا القسم اسم (عن الحملة الفارسية) De expeditione persica

والقسم الثاني :

عن (حرب الآفار) Bellum Avaricum وقد دوّن في هذا القسم من أشعاره ، كل ما يتعلق بالحصار البري والبحري الذي فرضه الآفار وأتباعهم من القبائل الأخري علي القسطنطينية في عام ٦٢٦م .

أما القسم الثالث :

فكان عن المرحلة الأخيرة من حرب هرقل ضد الفرس ، وأطلق عليه اسم Heraclias .

وقد نشر بيكر Bekker اشعار بيسيديا في مجموعة بون البيزنطية C.S. H. B. خلال عامي ١٨٣٨ ، ١٨٣٩ ، وهذه هي الطبعة التي رجعنا إليها .

وهناك طبعة جديدة مع ترجمة وشرح للأشعار باللغة الإيطالية نشرها العالم الايطالي برتوسي Pertusi وظهرت في عام ١٩٦٠ تحت عنوان (شعر جورج بيسيديا) ، Giorgio di pisidia poemi , panegirici epici , Ettal 1960 .

وقد دوّن أيضا هذه الحوادث الخاصة بحصار الآفار للقسطنطينية في عام ٦٢٦م، رجل الدين المعاصر ثيودور سنكيلوس Theodore Syncellus الذي كان زميلا لجورج بيسيديا في كنيسة آيا صوفيا ودوّن هذه الحوادث في خطبة ألقاها

أمام البطريرك سير جيوس في ذكري الإحتفال بانتصار البيزنطيين علي الآفار وحلفائهم وتم هذا الاحتفال بانتصار البيزنطيين علسي الآفار وحلفائهم ، وتم هذا الاحتفال في يوم ٧ أغسطس ٦٢٧م ، وكان عنوان خطبته هو " الهجوم الأحمق للآفار ، والفرس الزنادقة ، ضد المدينة التي يحميها الرب ، وتقهقرهم المخزي بفضل الحب الإلهي للشعب ، وبفضل شفاعة العذراء المباركة " . وقد نشرها العالم سترنباخ في عام ١٩٠٠ م .

ومن المصادر الهامة التي عرضت لهذا الحادث التاريخي ما كتبه البطريرك نقفور Nicephori patriarchae الذي ولد في عام ٧٥٨ م. وتوفي في عام ٨٢٩م . وهو ينحدر من عائلة نبيلة من عائلات القسطنطينية ، وشغل منصبا هاما في القصر الإمبراطوري وفي عام ٧٨٧م حضر مجمع نيقية الديني نائبا عن الإمبراطور قسطنطين السادس (٧٨٠ – ٧٩٧م) وبعد انتهاء المجمع اعتزل نقفور الحياة العامة ، ولجأ إلي دير أسسه بنفسه ، وفي ٨٠٦ تم تعيينه بطريرك لكنيسة القسطنطينية (آيا صوفيا) ، وظل بهذا المنصب حتي عام ٨١٥ م. حين عزله الامبراطور ليو الخامس (٨١٣ – ٨٢٠م) بعد أن رفض نقفور تأييد سياسة الامبراطور الخاصة بمناهضة عبادة الصور المقدسة [١] .

وقد كتب عددا من الأعمال الدينية تتعلق بالجدل الذي أثير حول عبادة الصور المقدسة ، وكانت كتاباته هذه تتصف بالعنف ، وكتب أيضا عن تاريخ الإمبراطورية البيزنطية في الفترة من عام ٦٠٢م. وحتي عام ٧٧٠ م. .

(١) للمزيد عن البطريرك نقفور وأعماله ، راجع :

Alexander P. : The patriarch Nccephorus of Constantinople 1958 .

ويعرف كتابه بإسم (المختصر) Breviarium ، وقد توخي فيه الدقة والموضوعية ، ونشره العالم دي بور De Boor في ليبزج عام ١٨٨٠ م.

الراهب ثيوفانيس [1] Theophanes :

هو مؤرخ وعالم لاهوت متعمق ، ولد في عام ٨١٨ م. وكتب حوليات Chronographia عرض فيها للفترة الممتدة من عام ٢٨٤ إلي عام ٨١٣ م. ، واعتمد فيها علي المصادر القديمة السابقة لعصره ، وخاصة ما كتب منها في القرنين السابع والثامن الميلاديين ، فغدت حولياته ذات قيمة كبيرة ، وتمتعت بمكانة سامية في بيزنطه ، وأصبحت بمثابة المصدر الأصلي لكل الحوليات البيزنطية المتأخرة زمنيا وقام انستاسيوس Anastasius ، أمين المكتبة البابوية خلال السبعينات من القرن التاسع الميلادي بترجمتها من الأصل اليوناني إلي اللغة اللاتينية ، وعن هذا الطريق أصبحت حولياته معروفة في الغرب الاوروبي ، وتمتعت بشهرة واسعة هناك ، ثم قام العالم دي بور De Boor بنشرها في جزئين فيما بين سنتي ١٨٨٣ – ١٨٨٥ م. ، في مدينة ليبزج ، وهي الطبعة التي رجعنا إليها في هذا البحث . علي أنه هناك طبعة باللغة الألمانية قام بها ريير Reyer ، وهي قاصرة علي الحوليات الواقعة بين سنوات ٧١٧ – ٨١٣ م. ، ووضع لها مقدمة ونشرها في عام ١٩٥٧ م.

أما عن علاقات الآفار باللومبارديين ، فقد تناولها المؤرخ المعاصر بولس

(1) C. Med. H. , ed. Hussey , Vol IV , Part I , PP.75 , 80 , 90 , 447 , 592 , 603 , N. I.

Ostrogorsky : Op. cit , PP. 25 , 87 , ff. , 125 , 131 , 147 , ff.

Vasiliev : Op. cit , P. 365 .

الشماس [1] Paul the Deacon الذي ينتمي إلي اللومبارديين ، وعاش في الفترة من ٧٢٠ - ٨٠٠ م. وقد تلقي تعليمه في البلاط الملكي في بافايا Pavia ، ثم أصبح راهبا بندكتيا في حوالي ٧٧٥ م. وعاش في دير مونت كاسينو Monte Cassino - إلي الجنوب الشرقي من روما - وفي عام ٧٨٢ ، قام بزيارة للك الفرنجه شارلمان ، الذي أحسن إستقباله وظل مقيما ببلاطه حتي عام ٧٨٦ م. وأثناء وجوده هناك قام بكتابة تاريخ أساقفة متز Metz ، وبعد عودته إلي دير مونت كاسينو في إيطاليا ، شرع في كتابة أكثر أعماله أهمية وهو تاريخ اللومبارديين ، Historia Lomgobardorum الذي كتبه باللاتينية وعرض فيه للفترة الزمنية الممتدة من ٦٦٨ - ٧٧٤ م.

وقد رجعنا إلي الترجمة الانجليزية التي قام بها وليم دادلي فولك William Dudley Foulke ونشرها مع مقدمة لها ، ادوارد بترز Edward peters ، وظهرت ضمن منشورات جامعة بنسلفانيا في عام ١٩٧٤ تحت عنوان : History of the Lombards .

ومن المصادر المعاصرة الهامة التي رجعنا اليها أيضا لاستقاء المادة التاريخية عن الفترة الأخيرة من تاريخ الآفار وكيفية قضاء شارلمان عليهم كتاب

(1) Paul The Deacon : History of the Lombards , travse . by Foulke , ed. Peters , PP. VII - VIII .

The illustrated Encyclopedia of Medievae Civilization , ed. , Grabois , 1930, P. 576 .

جوزيف نسيم يوسف ، تاريخ العصور الوسطي الأوروبية وحضارتها ، الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص ص ٣٠٤ ، ٣١٠ ، ٣١٩ .

أسامة زيد : اللومبارديون وعلاقاتهم بالقوي السياسية المجاورة في ضوء كتابات المؤرخ بولس الشماس ، الاسكندرية ١٩٨٧ ، ص ص ٣ - ٥ .

اينهارد Einhard مؤرخ عصر شارلمان .

ولد إينهارد في عام ٧٧٠ م. في مدينة فرانكونيا Franconia ، في وسط ألمانيا ، وتلقي تعليمه في المدرسة الملحقة بدير فولدا Fulda ، وهو دير بندكتي يقع في شمال فرانكونيا ، وأسسه القديس بونيفس Boniface في عام ٧٤٤ م. ثم التحق إينهارد بمدرسة القصر ، التي أسسها شارلمان في مدينة آخن Aachen ، وأصبح صديقا ومستشارا لشارلمان وبقي كذلك حتي وفاة شارلمان في ٨١٤ م. فتمتع إينهارد بمكانة كبيرة لدي إبن شارلمان وخليفته في الحكم لويس التقي (٧٧٨ - ٨٤٠ م) الذي أنعم عليه بضياع واسعة في ألمانيا .

وقد كتب إينهارد سيرة ذاتية لشارلمان تناول فيها أعماله ومآثره ، كما ضمنها كثيرا من التفاصيل التي انفرد بها ، وذلك نظرا لقربه من شارلمان ، وأطلق علي هذه السيرة اسم (حياة شارل) Vita Caroli والغالب أنه كتبها في الفترة ما بين سنوات ٨٢٩ ، ٨٣٦ م. وتعتبر هذه السيرة الذاتية لشارلمان علامة بارزة في هذا النوع من الكتابات في العصور الوسطي .

إلي جانب ذلك ، هناك ثلاثة أعمال أخري لإينهارد :

العمل الأول هو : (رسائل إينهارد) Einhard Epistolae وهي عبارة عن أبحاث في إدارة أعماله في ألمانيا ، وتعتبر شاهدا هاما علي النظام الإقطاعي في المجتمع الألماني في القرن التاسع الميلادي .

والعمل الثاني هو : (ترجمة حياة ومعجزات القديسين مارسيلينوس وبطرس)
Detranslatione et miraculis Sanctorum Suorum Marcellini et Petri .

أما العمل الثالث فهو : (مذكرات في تمجيد الصليب) Libellus de adoranda Cruce . وقد كتب إينهارد أعماله كلها باللغة اللاتينية . وفي عام ٨٣٠م. غادر إينهارد البلاط الملكي ورحل إلي ضياعه في ألمانيا واستقر بها حتي وفاته في عام ٨٤٠ م. (١) .

كانت هذه نبذة سريعة عن أهم المصادر التي رجعنا اليها في هذا البحث . إلي جانب عدد كبير من المراجع جرت الإشارة اليها علي امتداد البحث . ونستعرض في الصفحات التالية الدور الذي لعبه الافار في تاريخ أوروبا ، منذ بداية ظهورهم علي مسرح الحوادث التاريخية ، وحتي القضاء عليهم علي يد شارلمان .

(١) عن إينهارد وأعماله راجع :

- Einhard and Notker the Stammerer , Two Lives of Charlemagne , Trans , by Thorpe , Great Britain , 1969 , PP. 12 - 15 .
- Halphen L. ed. , Einhard , La Vie de Charlemagne , Paris .
- The Illus . Encycl . of Medieval civilization , P. 289 .

فيما يتعلق بأصل الآفار ، فانه ليس هناك اختلاف كبير بين المؤرخين حول هذا الموضوع ، حيث أرجعتهم الغالبية من المصادر والمراجع إلي عنصر الترك .

فقد ذكر كل من المؤرخين المعاصرين ميناندر ، وثيوفيلاكتوس سيموكاتا ، أن الترك الذين كانوا يعيشون علي ضفاف نهر تيل [١] أو تولا Til or Tula والذي كان الترك يطلقون عليه اسم (النهر الأسود) نظرا للون مياهه الداكن ، قد هاجموا الهون البيض المعروفين باسم هفثاليتس Hephthalites ، والأويغور Uigurs ، الذين ينحدرون من سلالتين هما الفار والهون Var et Hunni ، ويطلق عليهم اسم فاركونيتس Varchonites ، وقد ذبح خان الأويغور هو وثلاثمائة ألف من اتباعه ، وتناثرت جثثهم لمسافة امتدت سفر أربعة أيام ، وقد فضل عدد ممن نجوا من هذه المذبحة ويقدر عددهم بمائتي ألف محارب النفي علي العبودية ، ففروا وأتبعوا طريق نهر فولجا ، وظهروا في الغرب ، في شمال بلاد القوقاز ، وأطلقوا علي أنفسهم إسم الآفار Avars ، وهو إسم شعب قديم أفضل منهم [٢] .

ومعني ذلك أن الآفار يرجع أصلهم إلي الترك الأويغور الذين ينحدرون من سلالة الهون .

ويؤكد كل من المؤرخين الغربيين المعاصرين بولس الشماس ، وإينهارد ، أن

(١) نهر تيل نهر صغير يصب في نهر سلنجا Selinga في شمال منغوليا راجع :

Gibbon : The Declind and fall of the Roman Empire , London , 1976 , vol 4, P. 291, N. 2.

(2) Menander : Agathias Continuatus , fragments , in Historici Graeci Minores , ed. by L. Dindorf , Vol II . Leipzig , 1871 , frag 4.

- Theophylactus Simocatta : Historiae , ed . , by C. De Boor , Leipzig , 1887, VII , P. 8.

الافار من عنصر الهون [١] .

وقد أخذ عدد كبير من المؤرخين المحدثين بهذا الرأي منهم علي سبيل المثال ، جيبون ، دنلوب ، بيوري ، باركر ، بيسكر ، بربيه ، وموصي [٢] .

وإذا رجعنا إلي كتاب (الإدارة الامبراطورية) De Administrando Imperio للإمبراطور قسطنطين السابع (٩٤٤ - ٩٥٩ م) الذي عرض فيه لمختلف الشعوب والقبائل التي عرفت في عصره والعصور السابقة له ، نجد أنه لا يدلي برأي قاطع عن أصل الآفار ولا عن وطنهم الأصلي ، فهو يقول : " والجيبيد اي الذين انقسموا فيما بعد إلي اللومبارديين والآفار [٣] " . ثم يقول : " وعندما جاء أتيللا ملك الآفار [٤] " . والمعروف أن أتيللا هو ملك الهون ، فهل في ذلك إشارة من قسطنطين السابع إلي أن الآفار من عنصر الهون؟

(1) Paul the Deacon : History of the Lombards , PP. 50 , 67 .
Einhard and Notker the Stammerer , Two lives of Charlemagne , P. 67 .

(2) Gibbon E. : The Decline and fall of the Roman Empire , London , 1976 , vol 4 , P. 291 .

- Dunlop : The History of the Jewish Khazars , U. S. A. , 1967 , PP. 5 - 6 .

- Bury : History of the Later Roman Empire , U. S. A. , 1985 , Vol II , P. 314.

- Barker : Justinian and the later Roman Empire , P. 197 .

- Beisker : The Expansion of the Slavs , C. Med. H. Vol II , ed. Bury , Cambridge , 1976 , P. 438 .

- Brehier L. : Vie et mort de Byzance Paris , 1969 , P. 40 .

(3) Constantine Porphyrogenetus : Dc Administrando Jmperio , ed. - Bonn , C. S. H. B. , Chapter 25 .

(4) Ibid : Chapter 28 .

لا نستطيع ان نجزم بذلك ، خاصة وأنه عاد يقول : " .... ووجدوا أمة سلافية غير مسلحة كانت تسمي الآفار " وفي موضع آخر يقول : " واعتقد سكان الجانب الآخر من النهر وهم السلاف أو الآفار (١) " .

وهكذا لم يدلي الإمبراطور قسطنطين السابع برأي قاطع في أصل الآفار .

وللمؤرخ أرنولد توينبي رأي في أصل الآفار عرضه في كتابه " قسطنطين السابع وعالمه " ذكر انهم شعب بدوي أوراسي (أوروبي – أسيوي) . Eurasian nomad People . (2)

ولم نعثر في المصادر أو المراجع التي رجعنا اليها علي مايؤيد هذا الرأي . وفي الوقت نفسه أرجع بعض المؤرخين ، الآفار إلي العنصر التركي المغولي ، منهم أوبولنسكي Obolensky ، هويتمان Hauptmann ، والعريني (٣) .

أما المؤرخان فازيلييف Vasiliev ، وبنتر Painter ، فقد أرجعا الآفار إلي الأصل التركي (٤) دون تحديد People of Turkish Origin .

(1) Ibid : Chapter 29 .

(2) Toynbeé A. : Constative Porphyrogenitus and his World , London , 1973 , P. 621 .

(3) Obolensky : The Empire an dits Northern Neighbours 565 - 1018 , in C. Med . H. Vol IV , part I , ed. Hussey P. 476 .

Hauptmann : Les Rapports des Byzantins avec les Slaves et les Avars Pevdant la Second moitie du VI Siécle . dans (Byzantion) tome IV , 1927 - 1928, P. 148 .

العريني : المغول ، ص ١٠ .

(4) Vasiliev : Op. cit . , P. 171 .

Painter : A History of the Middle Ages 284 - 1500 , London , 1979 , PP. 35, 78 .

وينسبهم المؤرخون هوسيج Haussig ، هويت Hoyt ، شودورو Shodorow ، وسيليجر Seeliger ، إلي جبال ألطاي [١] في منغوليا ويقولون انهم شعب بدوي ألطائي [٢] nomadic Altaic People .

وهكذا نجد أن الغالبية من المؤرخين يكادوا يجمعون علي أن الآفار من عنصر الترك . والأرجح أنهم ينتمون إلي العنصر التركي الهوني ، وذلك استنادا إلي ما ذكره المؤرخون المعاصرون ، ميناندر ، ثيوفيلاكتوس ، بولس الشماس ، وإينهارد . خاصة وأن عددا من كبار المؤرخين المحدثين قد أخذوا بهذا الرأي ، كما سبقت الإشارة . ويجمع المؤرخون الذين سبق ذكرهم علي أن الموطن الأصلي للآفار هو وسط آسيا ، وأنهم فروا منها تحت ضغط الترك .

وقد استقروا منذ أواسط القرن السادس الميلادي عند سفوح جبال القوقاز ، حيث وجد أيضا عنصر اللان Alani ، وهناك سمعوا للمرة الأولي عن عظمة وثراء

---

(١) جبال ألطاي أو جبال الذهب ، هي مجموعة من السلاسل الجبلية المرتفعة التي تمتد من الشمال الغربي إلي الجنوب الشرقي علي امتداد الحافة الغربية للهضبة المرتفعة الواقعة إلي الشمال الغربي من منغوليا ، ويبلغ طولها حوالي السبعمائة ميل ، ويصل ارتفاعها إلي اثني عشر ألف قدم ، ويقع بين هذه الجبال سهول شاسعة يتراوح ارتفاعها بين خمسة آلاف إلي ستة آلاف قدم ، راجع :

العريني : المغول ، ص ص ٥ - ٦ .

(2) Haussing : A History of Byzantine Civilization , trans . from the German by Hussey , London , 1971 , P. 93 .

Hoyt & Shodorow : Europe in the Middle Ages Third Edition , U. S. A. , 1976 , PP. 4 , 120 .

Seeliger G. : Conquests and Imperial Coronation of Charles The Great , in C. Med . H. Vol II , ed. Bury , P. 608 .

الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، التي كان يحكمها في ذلك الوقت الإمبراطور جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥ م) ، وعن طريق وساطة أمير اللان ، ويدعي سار وسيوس Sarosius سعوا إلي بيزنطة فجري أول إتصال بين الآفار وبين الإمبراطورية في عام ٥٥٨م ، حيث أرسلوا إليها سفارة علي رأسها أحدهم ويدعي كانديش Candish ، وفي طريقهم إلي القسطنطينية مروا بإقليم لازيقا Lazica علي ساحل البحر الأسود ، حيث سمح حاكمها البيزنطي بمواصلة طريقهم إلي العاصمة البيزنطية ، وهناك تجمع أهالي القسطنطينية يحفزهم الفضول وتملأهم الرهبة لمشاهدة هؤلاء الرسل ذوي الملامح الهونية .

ولما سُمح لهم بلقاء الامبراطور جستينان ، أخذوا يقصون عليه أنباء انتصاراتهم ، وجيوشهم التي لا تقهر ، وطلبوا مطالب كثيرة ، منها أراضي ، وهبات، وهدايا ، وجزية سنوية ، وأورد المؤرخ ميناندر نص حديثهم للامبراطور ، قالوا : "أيها الملك العظيم ، أنت تري أمامك ، ممثلين لأقوي وأكبر الأمم ، التي لا تقهر ، جئنا لنعرض عليك أن نكرس جهودنا لخدمتك ، فبوسعنا القضاء علي جميع الأعداء الذين يقلقون راحتك . ولكننا نتوقع أن يكون ثمن تحالفنا ، وجزاء شجاعتنا ، هدايا ثمينة، وإعانة مالية سنوية ، وأراضي خصبة " (١) .

وتمشيا مع السياسة السلمية التي سار عليها جستنيان في السنوات الأخيرة من حكمه ، بعد أن خوت خزائن الإمبراطورية من الأموال نتيجة استنزافها في حروبه من أجل إستعادة ولايات الامبراطورية الرومانية المفقودة في الغرب الاوروبي ،

(1) Menander : Fragment 4 .
Gibbon : The Decline and Fall , Vol 4 , P. 222 .
Bury : History of the later Roman Empire , Vol 2 , P. 315 .
Hauptmann : Les Rapports , P. 148 .

وفيما كان يدفعه من أموال للفرس لشراء السلام علي الجبهة الشرقية ، إلي جانب الإنشاءات العديدة والعمائر العسكرية التي أقامها علي الجبهة الشمالية في محاولة لصد غارات العناصر المتبربرة علي حدود الإمبراطورية [١] . لذلك قرر الإمبراطور جستنيان شراء صداقة الآفار ، وأبلغ مجلس الشيوخ Senato بذلك ، موضحا أن هدفه هو حماية الجبهة الشمالية من غارات العناصر المتبربرة عليها . وكان من رأيه أنه سواء إنتصر الآفار علي هذه العناصر أو هزموا منها ، فان الإمبراطورية سوف تستفيد [٢] .

ولم توضح المصادر ماهية هذه الإستفادة التي سوف تجنيها الإمبراطورية من إنتصار الآفار أو هزيمتهم ، والغالب أن استفادة الإمبراطورية من إنتصار الآفار علي العناصر المتبربرة علي الجبهة الشمالية للإمبراطورية هو وقف تدفق سيل هذه العناصر علي جبهة الدانوب ، وقيامهم بدور حماة هذه الجبهة كمحالفين للإمبراطورية . أما في حال هزيمة الآفار ، فسوف تتخلص الإمبراطورية من عدو جديد طامع فيها. وعلي أية حال فقد تم عقد تحالف Foedus بين الإمبراطورية والآفار في نفس العام ٥٥٨ م. ، وتعهد فيه الآفار بالخضوع للإمبراطور وقتال أعدائه ، مقابل الجزية السنوية . وقد غمر الإمبراطور جستنيان رسل الآفار بعطفه وكرمه ، وقدم لهم الكثير من الهدايا ، تمثلت في الثياب الحريرية ، والحلي الذهبية ، والفرش الوثير ورحل الرسل عائدين إلي بلادهم وهم يشعرون بالرضا والسعادة [٣] .

(١) عن كل ما يتعلق بالإمبراطور جستنيان وعصره راجع :

إسمهت غنيم : إمبراطورية جستنيان ، الإسكندرية ، ١٩٨٢ .

(2) Obolensky : Op. cit , PP. 476 - 477 .

(3) Obolensky : Op. cit , P. 477 .

وقد لعب الآفار دورهم كحلفاء إمبراطوريين Imperial Foederati بهمة واقتدار ، وأخذوا في غزو أعداء الإمبراطورية في المنطقة الواقعة بين جبال القوقاز وجبال الكربات ، فدمروا إمبراطورية الانتاي Antae - بين جبال الكربات ونهر الدونتس Donets - وأستعبدوهم ، وشنوا الحرب علي العناصر ذات الأصل الهوني مثل السابيري Sabiri - علي الشاطئ الغربي للكاسبيان - وهزموهم ، وحاربوا بنجاح ضد عناصر البلغار - بين جبال القوقاز ونهر الدون - والأتيجور Utigurs ، والكوتريجور Kotrigurs ، وهما من عنصر الهون وكانا يعيشان علي شواطئ نهر زوف - وفي عام ٥٦٢ م. قاموا بغزوة كبيرة في وسط أوروبا وظهروا عند جبال الألب Elbe ، وهددوا ماركيات مملكة الفرنجة في أوستراسيا Austrasia .

وهكذا وفي أقل من عشر سنوات كانت معسكرات الآفار تستقر علي ضفاف نهر الدانوب وجبال الألب وقد زالت ومحيت من علي وجه الأرض العديد من القبائل الصقلبية والبلغارية أما من بقي من هذه القبائل فقد خضعوا لسيطرة وحكم الآفار ، وتعهدوا بدفع الجزية السنوية لهم رمزا للخضوع والتبعية (١) .

علي أن علاقات الآفار بالإمبراطورية البيزنطية أخذت تدخل في طور أكثر خطورة ، ذلك أنه في نفس العام ٥٥٨ م. أرسل خاقان الآفار (يسمي الخاقان أو

---

(1) Menander : Fragment 5 .
Theophylactus Simocatta , VII , P. 8 .
Gibbon : Op . cit , Vol 4 , P. 292 .
Bury : Op. cit , Vol II , P. 315 .
Obolensky : Op. cit , P. 477 .
Hauptmann : Les Rapports , P. 148 .

الخان) ويدعي بجان Bajan ، سفارة الي القسطنطينية يطلب من الامبراطور جستنيان السماح لهم بعبور الدانوب والاستقرار في إقليم بانونيا Pannonia ، وقد علم الإمبراطور سرا ، عن طريق أحد رسل الآفار ، أنهم يضمرون الشر والخيانة ، وأنهم سيعبرون الدانوب ، سواء قبل الإمبراطور أو رفض ، لذلك عمل علي عرقلة رسلهم ، وأعطي تعليماته إلي حاكم مؤيزيا Moesia ، وسكثيا Scuthia ، بالعمل علي تقوية الدفاع علي نهر الدانوب (١) ، ثم سمح للرسل بالانصراف ومنحهم الهدايا المعتادة ، والأموال التي استخدموها في شراء الملابس والأسلحة من القسطنطينية . وقد رأي الإمبراطور أنه ليس من السياسة في شئ رفض بيعها لهم، لكنه أرسل تعليماته سرا إلي جستين ، الوالي البيزنطي لمدينة قولخيس Colchis ، علي ساحل البحر الأسود إلي الشمال الشرقي من طرابيزون ، أن يستولي علي أسلحة الآفار حينما يمرون عبر إقليمه في طريقهم إلي بلادهم ، وقد نفذ جستين أوامر الإمبراطور (٢) . وكانت هذه الحادثة بداية العداء بين الآفار والإمبراطورية البيزنطية ، ولم يمتد العمر بالإمبراطور جستنيان لكي يري النتائج التي ترتبت علي هذه الحادثة ، لكن لم يمضي الكثير من الوقت علي وفاته في عام ٥٦٥ م. حتي قاد بجان خاقان الآفار ، قومه وعبروا الدانوب ، حيث أمنوا لأنفسهم البقاء في ولايات البلقان ، التي منيت علي أيديهم بالكوارث في الأعوام الستين التالية ، كما يتضح ذلك من عرضنا علي الصفحات التالية .

خلف جستنيان علي العرش ، الإمبراطور جستين الثاني (٥٦٥ - ٥٧٨ م) الذي ورث ضمن ما ورثه عن جستنيان ، عداء الآفار المتزايد ، فبعد أيام قليلة من اعتلائه العرش ، إستقبل جستين الثاني سفارة من الآفار ، وتمشيا مع سياسته تجاه أعداء الإمبراطورية المختلفين ، التي تتسم بالكبرياء والأنفة ،

(1) Menander : Fragment 5 .

(2) Bury : Later Roman Empire , Vol II , PP . 315 - 316 .

رفض دفع الجزية السنوية للآفار [١] . وهكذا منحهم الفرصة لكي يظهروا عداءهم واضحا للإمبراطورية ، خاصة بعد أن أصبحوا قوة يحسب حسابها في ذلك الوقت .

ذلك أن الآفار أخذوا في القيام بدور نشط في منطقة وسط أوروبا ، وكان اللومبارديون والجيبداي Gepidae ، حتي ذلك الحين ، هما القوتان الأساسيتان علي حدود الدانوب وفي منطقة بانونيا ، لكن دخول الآفار الحومة غير الموقف من أساسه ، فقد ازدادت العلاقات سوءا بين اللومبارديين والجيبداي ، واشتعلت الحرب بينهما ، واضطر ملك اللومبارديين ألبوين Alboin أن يطلب المساعدة من الآفار ، وعقد مع الخاقان بجان معاهدة تحالف ، تعهد فيها ألبوين بدفع عشر ما يملكه اللومبارديون من الماشية للآفار ، مقابل مساعدتهم له في الحرب ضد الجيبداي ، وأن يستولي الآفار ، علي أراضي الجيبداي في حال الانتصار عليهم [٢] .

وقد قام الآفار من جانبهم بمهاجمة الجيبيداي من ناحية الشمال الشرقي ،

---

(1) Menander : Fragment 14 .

John of Ephesus : Ecclesiastical History translated from syriac by Payne - Smith, Oxford , 1860 , Part VI , P. 24 .

(2) Paul The Deacon : History of the Lombards PP. 50 - 52 .

Hartmann : Italy under the Lombards , in C. Med. H. ed. Bury , vol I , 1976, P. 195 .

Hauptmann : Les Rapports , PP. 138 , 150 .

Brehier : Vie et mort de Byzance , P. 47 .

راجع أيضا :

محمد الشيخ : أوروبا العصور الوسطي ، الاسكندرية ، ١٩٩١ ، ص٢٠٨ .

أسامة زيد : اللومبارديون وعلاقاتهم بالقوي المجاورة ، ص ١٢ .

علي حين هاجمهم اللومبارديون من ناحية الشمال الغربي ، وفي المعركة التي دارت علي ضفاف نهر الدانوب ، ذُبح قونيموند Kunimund ملك الجيبيداي علي يد ألبوين ملك اللومبارديين وهرب عدد من الجيبيداي ووقع الباقون منهم تحت سيطرة الآفار ، خاصة أولئك الذين تمسكوا بالبقاء في أراضيهم واستولي الآفار علي أراضي الجيبيداي تحقيقا لاتفاقهم السابق مع اللومبارديين (١) .

وهكذا أصبح اللومبارديون في محنة قاسية ، إذ تعرض استقلالهم لتهديد الآفار ، بعد أن أصبح هؤلاء مجاورين لهم من الناحية الشمالية الشرقية ، بعد أن استولي الآفار علي أراضي الجيبيداي ، وبدا وكأن اللومبارديين لم يفعلوا شيئا أكثر من أنهم استبدلوا عدوا بعدو آخر ولهذا فقد أقدموا علي الهجرة أو ما يعتبر المرحلة الأخيرة في هجرتهم ، فانطلقت جموعهم في عام ٥٦٨ م. بقيادة زعيمهم ألبوين إلي الأراضي الإيطالية ، فاجتازوا جبال الألب واخترقوا إيطاليا ، ونجحوا في الاستقرار في السهول الشمالية الفسيحة ، دون مقاومة تذكر وأقاموا دولتهم في تلك البلاد (٢) . وهكذا كان للآفار دور هام في هجرة اللومبارديين وفتحهم لشمال إيطاليا واستقرارهم هناك .

بعد رحيل اللومبارديين إلي ايطاليا ، احتل الآفار أراضيهم ، وبذلك بسطوا سيطرتهم علي كل السهل الهنغاري وأصبحوا قوة مسيطرة في وسط

(1) Hartmann : Italy under the Lombards , P. 195 .

Baynes : The Successors of Justinian C. Med. H. vol II , ed . Bury , P. 268 .

(2) Hartmann : Op. cit , P. 196 .

Brcheir : Op. cit , P. 47 .

محمد الشيخ : أوروبا العصور الوسطي ، ص ٢٠٨ .

أسامة زيد : اللومبارديين ، ص ص ١٢ – ١٣ .

أوروبا ، وسادة إمبراطورية امتدت من بوهيميا إلي الدانوب الأدني ، ومن جبال الألب إلي السهول الجنوبية لروسيا ، وتمركزوا في وادي نهر تيس (Tisza Theiss – في وسط أوروبا – وأدي ذلك بطبيعة الحال إلي تغيير ميزان القوي في هذه المنطقة (١) .

لم يكن منتظرا بعد كل ما بلغه الآفار من قوة ، أن يقبلوا رفض الإمبراطور جستين الثاني دفع الجزية السنوية لهم ، ومن ثمة بدأ الآفار في تهديد ممتلكات الإمبراطورية في إقليم تراقيا ، فأرسل اليهم جستين الثاني الجيش في عام ٥٦٩ م. بقيادة طيبريوس – الذي صار إمبراطورا فيما بعد – والتقي بهم في إقليم تراقيا وأحرز الانتصار عليهم (٢) . ولم يلبث الآفار ان ركزوا إهتمامهم علي مدينة سيرميا Sirmium التي تقع في شمال إقليم الليريا ، والتي تمتعت بمركز إستراتيجي ممتاز والتي تعتبر مفتاح التحصينات البيزنطية في هذه المنطقة ، وهذا ما دفع خاقان الآفار بجان إلي فرض الحصار بهدف الاستيلاء عليها حتي يفتح الطريق أمامه للوصول إلي باقي التحصينات البيزنطية وقد صمدت المدينة في وجه الآفار ، وأرسل الإمبراطور جستين الثاني قائده طيبريوس في عام ٥٧٤ م. مرة ثانية لحرب الآفار ، ولكنه هزم أمامهم هذه المرة ، واضطر الإمبراطور جستين الثاني إلي أن يعقد معهم تحالفا مقابل تعهده بدفع جزية سنوية تقدر بثمانين ألف

(1) Obolensky : The Empire and its Northern Neighbours , PP. 477 - 478 .
Brehier : Vie et mort de Byzance , P. 47 .

(2) Johannis Biclarensis : Chronica Minora , ed . by Th. Mommsen Berlin , 1894 , Vol II , P. 212 .

نوميسماتا [١] .

وقد حاول الامبراطور طيبريوس الأول (٥٧٨ - ٥٨٢ م) استغلال هذا التحالف مع الآفار ، واستخدمهم في كبح جماح السلاف ، الذين كانوا قد عبروا الدانوب في فترة مبكرة من القرن السادس الميلادي ، وانتشرت غاراتهم في بلاد البلقان ، مسببة فزعا هائلا لأهالي القسطنطينية ذاتها .

وحسب رواية المؤرخ ميناندر ، فإن الإمبراطور طيبريوس أرسل مندوبا عنه ، قاد ستين ألفا من الفرسان الآفار إلي والاشيا ، حيث هاجموا السلاف ، ونهبوا أراضيهم ، واخضعوهم لسيادتهم [٢] ، والجدير بالذكر أنه منذ ذلك الحين ، أصبح السلاف من رعايا الآفار ، وأصبحت غارات هذين الشعبين غارات مشتركة [٣] .

علي أن الآفار ما لبثوا أن نقضوا هذا التحالف مع طيبريوس ، وعادوا لمحاصرة مدينة سيرميا ، وقد اقترح الامبراطور طيبّريوس أن يزوج ابنته من خاقان

---

(1) Mennder : Fragment 34 .

Obolensky : Op. cit , 478 .

Breheir : Op. cit , PP. 47 - 48 .

Hauptmann : Les Raports , P. 160 .

والجدير بالذكر أن النوميسماتا هي عملة ذهبية بيزنطية ، كانت تساوي واحدا علي اثنين وسبعين من الرطل من الذهب ، وكانت النوميسماتا تنقسم إلي ١٢ ميلياريسيا ، التي تنقسم بدورها إلي اثني عشر فلسا ، انظر :

Runciman : Byzantine Civilisation , Seventh impression , 1975 , P. 174 .

(2) Menander : Fragment 64 .

John of Ephesus , VI , P. 24 .

(3) Vasiliev : Op. cit , Vol I , PP. 178 , 196 .

Toynbeé : Op. cit , P. 633 N 6 .

الآفار بجان ، مقابل تخليه عن أطماعه في سيرميا . لكن بجان الذي كان يدرك تماما انشغال الامبراطور طيبريوس في الحرب ضد الفرس ، رفض عرض الامبراطور ، واستمر محاصرا للمدينة ثلاث سنوات (٥٧٩ - ٥٨٢ م) واستولي علي المناطق المحيطة بها ، ثم استسلمت المدينة ذاتها في النهاية للآفار في ٥٨٢ م. قبل موت طيبريوس بزمن وجيز (١) .

وهكذا سقط هذا الحصن الهام في يد الآفار ، وأصبحت أنهار السافا ، الدرافا ، والدانوب تحت سيطرة الآفار كما أصبح خاقان الآفارهو السيد الجديد لمنطقة البلقان ، أما أهالي هذه المنطقة فقد كانوا تحت رحمته تماما ، ونقتبس فقرة مما ذكره المؤرخ ميخائيل السرياني (٢) Michel le Syrien لندرك مدي معاناة الأهالي في هذه المنطقة اذ قال (٣) :

" هوجم الرومان من جديد ، بواسطة شعب متبربر لعين ، ورجال ذوي شعور مشعثة ، قدموا من الشرق الأقصي ، يسمون بالآفار ، وكذلك هوجم الرومان علي يد شعب آخر جاء من الغرب هم السلاف ، وأيضا من أولئك المعروفين باسم

(1) Menander : Fragment 65 .

- Theophylactus Simocatta : I , ch. 3 , PP. 44 - 45 .

- Theophanes : I , P. 278 .

- Lemerle : Invasions et migration des les Balkans , depius l'epouque Romaine Jusqu'n au VIII e Siécle , Revue Historique , vol CCXI , 1954 , P. 289 .

- Obolensky : Op. cit P. 480 .

- Hauptmann : Lea Rapportes , P. 160 .

- C. Med. H. vol II , Part I* , ed . Hussey , P. 68 .

(2) Chabot , la chronique de Michel le Syrien , Paris , 1899 - 1904 , X , P. 12 .

اللومبارديين، كل هؤلاء كانوا تحت سيادة الخاقان أو ملك الآفار ، اذ حاصروا مدن الرومان وغيرها من الحصون ، وقالوا للأهالي " إرحلوا عن بلادكم ، إزرعوا واحصدوا ونحن فقط الذين نأخذ محصولكم " .

من هذا يتضح مدي معاناة الأهالي في منطقة البلقان من جراء هذه الغارات المدمرة ، والتي إستمرت بنفس العنف حتي توفي الإمبراطور طيبريوس في ٥٨٢ م. وخلفه الإمبراطور موريس (٥٨٢ - ٦٠٢ م) ، وفي السنة الأولي من حكم هذا الأخير (٥٨٢ - ٥٨٣ م) قام الآفار والسلاف بغارة كبير ، وصلوا فيها إلي القسطنطينية ذاتها ، وحاصروا سور انستاسيوس خارج العاصمة ، كما أغاروا علي الممتلكات البيزنطية في البلقان ، واستولوا علي مدينة سينجيد نوم Singidunum (بلغراد الحالية) ، علي نهر الدانوب ثم ساروا شرقا ، واستولوا علي مدينة انخيالوس Anchialus المطلة علي البحر الأسود إلي المغرب من مدينة القسطنطينية ، ونزلوا جنوبا وهاجموا بلاد اليونان . .

وقد عرض لهذه الغارة الكبيرة عدد من المؤرخين المعاصرين وتناولها بعضهم بصفة عامة ، مثل يوحنا بيكلارنسيس الذي قال [١] : " إن السلاف انتشروا في مدن كثيرة في تراقيا ، ونهبوها ثم تركوها وهي خاوية ... ونهب الآفار تراقيا ، وحاصروا سور القسطنطينية العظيم " .

وذكر ميناندر هذا المعني نفسه ، وقال إن عدد الغزاة من الآفار

(١) النص اللاتيني هو :

" Sclavini in Thracia multas urbes Romanorum Pervadunt .... Avares Thracias Vastant et regiam urbem a muro longo obsident " .

Johannis Biclarensis , chronica , vol II , P. 215 .

والسلاف وصل إلي المائة ألف رجل ، حين هاجموا تراقيا وبلادا أخري كثيرة(١) .

أما يوحنا الأفسوسي فقال عن هذه الغارة (٥٨٢ - ٥٨٣ م) ما يلي (٢) :

" تغلب شعب لعين يسمي بالسلاف ، علي كل بلاد اليونان ، وإقليم تساليا وتراقيا ، واستولوا علي المدن وعلي العديد من الحصون ، ونهبوها واحرقوها ، واستعبدوا أهاليها ، ونصبوا أنفسهم سادة علي كل الاقليم ، واستقروا فيه بالقوة ، وتصرفوا فيه كما لو كان ملك خاص بهم ، دون خشية الله ، لان الملك (الإمبراطور البيزنطي) كان مشتبكا في الحرب مع الفرس ، وأرسل كل جيشه إلي الشرق ، وقد عاشوا في الإقليم في أمان تام ، واستقروا فيه ، وانتشروا قريبا وبعيدا كما لو أن الله قد أباحه لهم ، ونهبوا وأحرقوا وأخذوا الأسري ، وامتدت غاراتهم حتي وصلت إلي السور الخارجي للمدينة (القسطنطينية) وشتتوا قطعان خيل الإمبراطور وكان عددها يقدر بالآلاف ، كما فعلوا نفس الشئ نفسه مع كل ما وجدوه في طريقهم " . .

وإن كان يوحنا الأفسوسي قد ذكر أن السلاف هم الذين قاموا بهذه الغارة ولم يذكر شيئا عن الآفار ، الا أن الثابت أن السلاف في هذه الفترة الزمنية (٥٨٢ - ٥٨٣ م.) كانوا من رعايا الآفار ، وتحت سيادتهم ، وكانت غاراتهم مشتركة ، كما سبق أن أوضحنا .

---

(1) Menander : Fragments 47 , 48 .

(2) John of Ephesus : Ecclesiastical History Part III . translated from syriac by Payne - Smith, Oxford , 1860 , PP.432 - 33 .

وقد عرض المؤرخ المعاصر أفاجريوس لهذه الغارة أيضا فقال عنها [١] :

" قام الآفار بهجومين علي سور انستاسيوس ، واستولوا علي سينجيد ونوم ، إنخيالوس وكل الهيلاس ، والمدن والحصون الأخري ، واستعبدوا السكان ، وخربوا وأحرقوا كل شئ صادفوه في طريقهم " .

وهناك دليل أثري يؤكد غزو الآفار والسلاف في هذه السنة ٥٨٢ - ٥٨٣ م. لبلاد اليونان ، وهذا الأثر يتمثل في وجود تخريب في سوق أثينا Circa يرجع تاريخه إلي العام ٥٨٢ - ٥٨٣ م. ما زال باقيا حتي اليوم [٢] .

والجدير بالذكر أن أفاجريوس استعمل كلمة الهيلاس Hellada في نصه ولا ندري ماذا يقصد بالهيلاس علي وجه التحديد ، هل يقصد بلاد اليونان ؟ واذا كان يقصد بلاد اليونان فهل يقصد بها شبه جزيرة تساليا فقط ، أم تمتد لتشمل أيضا شبه جزيرة البلوبونيز ؟

لقد قام المؤرخ كارانيس Charanis بعمل دراسة وافية شيقة ، أوضح فيها استخدام كلمة الهيلاس Hellada في أعمال المؤرخين البيزنطيين خلال القرون الميلادية السادس والسابع والثامن ، أمثال بروكوبيوس Procopius أجاثياس Agathias ، ميناندر Menander ، افاجريوس Avagrius مالالاس Mallalas ، الامبراطور جستنيان في قوانينه الجديدة Novellae ، يوحنا الأنطاكي John of Antioch البطريرك نقفور Nicephorus Patriarchae ، ثيوفانيس Theophanes وغيرهم .

(1) Evagrius : Historia Ecclesiastica , VI , Ch. 10 .

(2) Toynbeé : Op. cit , P. 634 .

وقد أثبت كارانيس من خلال دراسته هذه ، أن بروكوبيوس حين ذكر كلمة الهيلاس Hellada ، فانه كان يعني أقاليم بلاد اليونان القديمة ، وعلي وجه التحديد الاقليم الذي يقع جنوب ثرموبيلاي Thermopylae (Boudonitza) في اقليم تساليا ، ويشمل أيضا شبه جزيرة البلوبونيز Ploponnesus ، وأن المؤرخين الذين جاءوا بعد بروكوبيوس قد أخذوا عنه هذا التعريف لكلمة الهيلاس (١) .

لذلك فما عناه المؤرخون – خاصة ميناندر ، افاجريوس ، وثيوفانيس ، ببلاد اليونان التي خربها الآفار والسلاف انما هي بلاد اليونان بما فيها البلوبونيز أيضا.

وعلي أثر هذه الغارة المدمرة التي قام بها الآفار ضد ممتلكات الامبراطورية في عام ٥٨٢ – ٥٨٣ ، إضطر الامبراطور موريس لشراء السلام منهم ، بدفع مبلغ كبير من المال علاوة علي الجزية السنوية المعهودة (٢) . لكن الآفار لم يخلدوا للسكينة في الفترة التالية بل هددوا السلام في عام ٥٨٦ – ٥٨٧ م. حين قاموا و ورعاياهم السلاف بغارة أخري كبيرة ، شملت الأقاليم التي تقع جنوب مؤيزيا Moesia وسكثيا Scythia ، ثم حاصروا المدينة الهامة سالونيك (٣) في ٢٢ سبتمبر ٥٨٦،

(1) Charanis P. : Hellas in the Greeke Sources of Six th , Seventh , and Eighte Centuries , in late Classical and Medieval Studies in Honor of Albert Mathias Friend , princeton university press university press , 1953 , PP. 161 - 173 .

(2) Hauptmann : Les Rappones , P. 157 .

(٣) تعتبر مدينة سالونيك ، المدينة الثانية في الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية ، وأهم قاعدة للاسطول البيزنطي في البحر الايجي ، ومرفأ لإصلاح السفن التي يصيبها التلف ، وهي عاصمة أقليم مقدونيا .

عن كل ما يتعلق بسالونيك ومميزاتها ونشاطها التجاري راجع :

اسمت غنيم : الامبراطورية البيزنطية وكريت الاسلامية ، دار المعارف ، الاسكندرية =

ولمدة سبعة أيام ثم رفعوا الحصار عنها وهاجموا بلاد اليونان (الهيلاس) (١) .

وقد أقدم خان الآفار علي تصرف خطير ، كانت له نتائج بعيدة المدي ، بالنسبة لتوزيع الخريطة السكانية في منطقة البلقان وبلاد اليونان قاطبة . فقد أخذ خلال غزواته في أعوام ٥٨٢ - ٥٨٣ - ٥٨٦ - ٥٨٧ م. في إجبار السكان الأصليين من اليونان والرومان علي الرحيل ، وأحل محلهم عناصر أخري من رعاياه السلاف ، وسجل ذلك كل من المؤرخين افاجريوس ، يوحنا الإفسوسي ، ويوحنا بيكلارنسيس (٢) .

وقد تابع خاقان الآفار هذا الاسلوب فيما قام به بعد ذلك من غزوات ، وكان السكان الأصليون من اليونان والرومان يفرون أمام غزوات الآفار لمنطقة البلقان وبلاد اليونان ، بينما تكفل الخاقان بنقل الباقين منهم وابعادهم عن أوطانهم ، واعادة توطين سكان جدد من رعاياه في هذه الأماكن .

والأرجح أن الدافع لهذا التصرف الخطير ، هو رغبة الخاقان في إحتلال هذه المناطق إحتلالا دائما ، فضلا عن تأمين حدود امبراطوريته الشاسعة لا سيما وأن المنطقة الواقعة شمالي البلقان وحتي سيرميا كانت منطقة حيوية بالنسبة له ، حيث أنها تعتبر رأس الجسر لعبور الدانوب والوصول إلي امبراطوريته .

=١٩٨٣، ص ص ١٩٣ - ١٩٥ .

(1) Evagrius : VI , Ch. 10 .
Theophylactus Simocatta : I , P. 52 .
Theophanes : P. 253 .

(2) Evagrius : VI , Ch. 10 .
John of Ephesus : Ecclesiastical History , PP. 432 - 433 .
Johannes Biclarensis : Chronioca , 215 .

ولم يتخل الخاقان عن سياسته هذه ، بل تابعها في السنوات التالية ، وتتضح هذه السياسة بصورة أوضح من خلال عرضنا التالي للحوادث .

فقد استغل الآفار انشغال الامبراطور موريس في الحرب ضد الفرس ، وأخذوا يعيثون فساداً هم ورعاياهم من السلاف وباقي العناصر الأخري الخاضعة لهم، في إقليمي تراقيا ومقدونيا ، وفي عام ٥٩٢ م. تمكن الامبراطور موريس من عقد الصلح مع الفرس وهيأ له ذلك الالتفات إلي جبهة الدانوب ، فنقل قواته إلي هناك ، وعهد إلي قائده بريسقوس Priscus بالعمل علي ايقاف غارات الآفار والسلاف هناك . ورغم جهود بريسقوس لتحقيق هذا الهدف ، الا أن الآفار والسلاف تمكنا من الاغارة علي المدينة الهامة سالونيك في ٥٩٧ م. ولم ينقذها منهم هذه المرة الا تفشي مرض الطاعون بينهم (١) .

علي أية حال نجح بريسقوس في النهاية في إخضاع السلاف واستعاد مدينة سنجيد ونوم (بلغراد) من يد الآفار . وفي عام ٦٠٠ م. ، جري عقد الهدنة مع الآفار وثبتت حدود الامبراطورية علي نهر الدانوب ، وتعهد موريس بزيادة الجزية السنوية لهم غير أنه لم يكد يمضي سوي عدة شهور حتي عبر بريسقوس بقواته نهر الدانوب سنة ٦٠١ م. وأشعل الحرب ضد الآفار هناك ، وأنزل الهزيمة الساحقة بقوات الآفار علي نهر تيس Theiss (٢) .

ولعل في ذلك ما يوضح سياسة بيزنطة التقليدية ، فاذا كانت بيزنطة غير

(1) Theophylactus Simocatta : VII , PP. 6 - 9 .

Baynes : The Successors of Justinian , in C. Med. H. Vol II , P. 296 .

Brchier : Vie et mort de Byzance , PP. 50 - 51 .

(2) Baynes : Op. cit , P. 281 .

قادرة علي خوض غمار الحرب لأي سبب من الأسباب ، كان الإمبراطور يتعهد بدفع مبلغ سنوي للعدو ، وليسميه العدو جزية سنوية ان شاء ، أما الإمبراطور فلم يكن يري ذلك المبلغ المدفوع إلا استثمارا حكيما حتي تتحسن الظروف ويصبح قادرا علي القتال ، وعندئذ يتوقف عن الدفع ويخوض الحرب ، فاذا انتصر امتنع نهائيا عن الدفع ، اما إذا هزم فانه يعود ليدفع من جديد ، في انتظار جولة أخري [١] .

علي أية حال فمن الواضح أن الانتصار الذي أحرزه بريسقوس علي الآفار في ٦٠١ م. عند نهر تيس ، لم تحرز الامبراطورية البيزنطية مثله منذ زمن جستنيان، اذ بدا وكأن الحظ أخذ يتحول إلي صف الإمبراطورية ، لولا أن الحوادث جاءت علي عكس ما يتوقع موريس ، الذي إستبدت به الحماسة لمواصلة ظفرة علي الآفار ، فأبي أن يسمح لجنده بالعودة إلي العاصمة لقضاء فصل الشتاء (٧٠٢ م.) فتمرد الجند عليه ، ونادوا بأحد قادتهم ويدعي فوقاس إمبراطوراً ، وزحفوا علي العاصمة (القسطنطينية) وقتلوا الإمبراطور موريس ، ورفعوا فوقاس إلي العرش (٦٠٢ - ٦١٠ م.) . وكان عهد فوقاس كارثة بالنسبة للحدود الشمالية للإمبراطورية بل إمتد الخطر خلال السنوات الأولي من حكم هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م.) [٢] ، لأن حد التحصينات علي الحدود الشمالية ، الذي كان جستنيان قد بناه ، واصل انهياره آنذاك ، ولم تعد هناك قوات بيزنطية في ولاية دالماشيا بعد عام ٦٠٤ م. [٣] فتدفق الآفار والسلاف بأعداد هائلة علي منطقة البلقان ، وأخذوا يعيثون فسادا في تلك

---

(١) للمزيد من نظام الدبلوماسية البيزنطية راجع :

Runciman : Byzantine Civilisation , Cambridge , 1975 , PP. 155 - 162 .

(2) Theophylactus Simocatta : VIII , PP. 5 - 6 .

Obolensky : Op. cit , P. 481 .

(٣) موص : ميلاد العصور الوسطي ، ص ٢٣١ .

البلاد من البحر الادرياتي حتي بحر ايجة ، وانتشروا في الليريا ، دالماشيا ، مقدونيا ، تراقيا ، ابيروس ، آخايا ، السيكلاديز ، وقد هوجمت سالونيك أكثر من مرة ، وسقطت سالونا Salona عاصمة اقليم دالماشيا في يد الآفار والسلاف في عام ٦١٤ م. ، وهرع سكانها إلي أسفل التل يلتمسون الحماية داخل أسوار قصر دقلديانوس الضخم ، وهكذا نشأت مدينة سبالاتوس Spalato . وحدث الشئ نفسه مع سكان مدينة ابيدوروس Epidaurus ، الذين فروا من مدينتهم واستقروا علي ساحل البحر الادرياتي في المكان الذي عرف فيما بعد باسم راجوزا Ragusa (١) . وقد كتب ايزيدور (٢) أسقف أشبيلية I Sidore Bishop of

(1) Baynes : Op. cit , P. 296 .

(٢) يسمي بالقديس ايزيدوروس St. I Sidorus ، وهو ينتمي إلي عائلة نبيلة ، فقد أبويه وهو في سن صغيرة ، فتولي شقيقه الأكبر ويدعي ليندر Leander تربيته وتعليمه ، وكان ليندر يشغل أسقف أشبيلية فكان من الطبيعي أن يوجه ايزيدور إلي تعليم الاهوت . وقد تأثر ايزيدور باراء القديس أوجسطين (٣٥٤ - ٤٣٠ م.) والبابا جريجوري الاول (٥٤٠ - ٦٠٤ م.) . وفي عام ٦٠٠ م. أصبح ايزيدور أسقفا لأشبيلية خلفا لشقيقه ، وأخذ علي عاتقه نشر المذهب الكاثوليكي بين القوط الغربيين ، واليهود الذين كانوا يمثلون جزءا كبيرا من سكان أسبانيا وقد كان لعلمه الغزير وشخصيته القوية أكبر الأثر في أن يصبح زعيما هاما للكنيسة الأسبانية ، ورأس عدة مجامع دينية في توليدو ، وأطلق عليه معاصروه لقب (آخر آباء الكنيسة الغربية العظماء) .

ومن أهم أعمال القديس ايزيدور تلك الموسوعة الشاملة التي أطلق عليها اسم Ethymologiae ، ولخص فيها آراء الكتاب المسيحيين الأول في العقيدة المسيحية ، وكذلك كتابات العلماء القدماء في مختلف أنواع المعرفة الانسانية ، وتكمن أهمية هذه الموسوعة ليس فقط في محتواها ، ولكن في كيفية عرض ايزيدور لأفكاره ، وقد أصبحت هذه الموسوعة مصدرا هاما للكتاب من أجيال متعاقبة ، وخاصة الذين لم يكن بمقدورهم التعرف علي المصادر القديمة (الكلاسيكية) وخاصة المكتوبة باللغة اليونانية . وإلي جانب هذه الموسوعة الهامة هناك كتابين تاريخيين لايزيدور ، الاول هو (التاريخ الكبير أو الحوليات الكبيرة) =

Seville [١] في بداية عهد الامبراطور هرقل يقول : " ان السلاف انتزعوا بلاد اليونان من الرومان [٢] .

وان كانت هذه المقولة تنطبق علي المناطق الداخلية في شبه جزيرة البلقان ، الا أنها لا تنطبق علي المناطق الساحلية المواجهة للبحر الادرياتي والبحر الايجي ، لان السكان الأصليين انسحبوا تحت ضغط السلاف والآفار نحو المناطق المتاخمة للبحر ، وإلي الجزر المواجهة له ، وأدي ذلك فيما بعد إلي ازدياد العنصر اليوناني وتفوقه علي السواحل الجنوبية الشرقية ، علي حين عمد العنصر الروماني إلي الاستقرار في السواحل الغربية ، أما الجانب الأكبر من شبه جزيرة البلقان وخاصة داخلها ، فقد أصبح اقليما صقلبيا ، وصارت المصادر البيزنطية تشير اليه علي أنه

== Chronica Maiora ، وهو عرض للحوادث التاريخية منذ بدء الخليقة وحتي عام ٦١٥ م. والكتاب الثاني هو ، (تاريخ ملوك القوط ، الواندال ، والسويفي) ويعتبر هذا الكتاب مصدرا هاما لتاريخ أسبانيا منذ سقوط الامبراطورية الرومانية القديمة في ٤٧٦ م. حتي عصر ايزيدور .

للمزيد عن القديس ايزيدور وأعماله راجع :

Fontaine J. : I Sidore de Seville et la culture Classique dans l'espagne wisigothique , 2 vols , 1959 .

(١) سيفيل هي مدينة أشبيلية وهي ميناء بحري هام في جنوب أسبانيا ، وقد تعرضت لغزو الواندال في أواخر القرن الرابع الميلادي ، ثم استولي عليها القوط الغربيون وفتحها المسلمون في عام ٧١٢ م. وأصبحت جزءا من ممتلكات خليفة قرطبة ، وبلغت درجة كبيرة من الازدهار ، وأصبح ميناؤها من أكثر الموانئ الاسبانية نشاطا ، وفي عام ١٢٤٨ م. ، استولي عليها الملك فرديناند الثالث ملك قشتاله ، وواصلت المدينة ازدهارها ونشاطها التجاري الكبير تحت حكمه .

للمزيد عن سيفيل راجع :

O'Callaghan J. F. : A History of Medieval Spain , 1975 .

(2) I Sidore of Seville : Chronica Maiora , in Patrologia Latina , LXXX III , col 1056 .

اقليم الصقالبة Sclavinia (١) .

وفي الوقت الذي كان الآفار يقومون بغاراتهم تلك علي شرق أوروبا ، لم يغفلوا أمر ايطاليا وواصلوا تحالفهم مع اللومبارديين ، ففي عام ٥٩١ م. ساعدوا ملكهم اجيلولف Agilulf في الهجوم علي الحدود الشمالية الايطالية ، وفي عام ٦٠٠ - ٦٠١ م. ساعدوه أيضا في الاستيلاء علي بادوا Padua ، وفي تخريب شبه جزيرة استريا Istria علي الساحل الشمالي للبحر الادرياتي ، كما ساعدوه في فتح مدينة مونسليس Monselice ، وفرضوا السلام علي دوق فريولي Friuli واحتلوا كريمونا Cremona ، ومانتوا Mantua في عام ٦٠٣ م. (٢) .

علي ان الآفار لم يقيموا بعد ذلك وزنا للمعاهدات المبرمة بينهم وبين اللومبارديين ولم يلبثوا أن أخذوا يشنون غاراتهم علي شمال ايطاليا ، فقد حشد خاقان الآفار جيشا كبيرا عام ٦١٠ م. وخرج علي رأسه قاصدا الاراضي اللومباردية ، وتوغل في شمال ايطاليا محدثا الخراب والدمار في كل مكان حل به ، ثم اتجه بجيشه إلي البندقية ، فتصدي لهم ، جيسولف Gisulf دوق فريولي ، ولكنه قتل علي ايديهم هو ومعظم جيشه ، وفرض الآفار الحصار علي دوقية فريولي ، فتولت روميلدا Romilda أرملة جيسولف الدفاع عن المدينة ، ويقال أنها رأت خاقان الآفار أثناء تفقده أسوار المدينة ، فاعجبت به وأرسلت اليه سرا تخبره انه اذا وعدها بالزواج فانها سوف تفتح له بوابات المدينة ، وبالفعل تم الاتفاق بينهما ،

(1) Lemerle : Invasions et migrations dans les Balkans , P. 303 ff.
Ostrogosky : Op. cit , PP. 93 - 94 .
Vasiliev : Op. cit , P. 196 .

(2) Hartmann : Italy under the Lombards , P. 201 .

وسلمت له المدينة ، وقد أجري الآفار عمليات نهب وسلب واسعة النطاق لكل بيت من بيوتها ، وحملوا الأهالي أسري ، وقد أوفي الخاقان بوعده بالزواج من روميلدا ، ولكن ليوم واحد فقط ، ثم دفع بها إلي أتباعه ، وانتهي بها الأمر إلي القتل علي أيديهم ، ثم عاد الآفار بغنائمهم إلي بانونيا [١] .

ولم تستمر غارات الآفار علي ايطاليا طويلا ، وذلك بسبب انشغالهم بتحقيق أهدافهم في شبه جزيرة البلقان ، وفي العاصمة البيزنطية نفسها

فقد شهد عصر الامبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م.) صراعا عنيفا بين البيزنطيين من جهة ، والآفار من الجهة الأخري ، ولا نكون مبالغين اذا قلنا أنه كان صراع حياة أو موت بالنسبة للامبراطورية البيزنطية ، بعد أن فرض الآفار ورعاياهم من السلاف والجيبيداي والبلغار والسيكثيين وغيرهم من القبائل ، الحصار البري والبحري علي العاصمة البيزنطية وذلك في عام ٦٢٦ م. عاقدين العزم علي الاستيلاء عليها ومستغلين انشغال الامبراطور هرقل في حربه مع الفرس الذين شنوا هجوما عنيفا علي الممتلكات البيزنطية في أرمينية وآسيا الصغري ومصر ، وبعد أن وصل الفرس إلي مدينة خلقيدونية Chalcedon علي الضفة الآسيوية لمضيق البسفور، وأصبحوا في مواجهة العاصمة البيزنطية القسطنطينية .

ورغم صعوبة الموقف بكل أبعاده ، وتأزمه إلي درجة خطيرة ، بعد أن أصبحت

(1) Paul the Deacon : History of the Lombards , PP. 179 - 180 .
Hadckin : Italy and her invaders , PP. 52 - 53 , 600 , 744 ,
Hartmann : Italy under the Lombards , P. 203 .
محمد الشيخ : أوروبا العصور الوسطي ، ص ٢١٦ .
أسامة زيد : اللومبارديون ، ص ص ٢٤ - ٢٥ .

بيزنطه وجها لوجه أمام العدوين اللذين طالما ارتعدت منهما ، وهما الفرس والآفار ، الا أن التوفيق الذي حققته بيزنطه في مواجهة هذين العدوين والانتصار الذي احرزته عليهما ، يرجع إلي عبقرية الامبراطور هرقل وخططه العسكرية الناجحة في مواجهة الفرس والآفار من جهة ، ومن جهة أخري يرجع إلي تلاحم القوي البيزنطية المختلفة من شعب وجيش ونبلاء وكنيسة في مواجهة هذه الأخطار جميعا .

ويتميز الصراع بين الآفار والدولة البيزنطية في عهد هرقل بتشابك أحداثه مع أحداث الحرب بين البيزنطيين والفرس ، حين وجد الآفار في هذه الحرب فرصتهم الذهبية لتحقيق أطماعهم والاستيلاء علي العاصمة البيزنطية ذاتها .

ونظرا لان الحرب البيزنطية الفارسية (١) قد اتسع نطاقها ، وكثرت أحداثها ، واستغرقت فترة زمنية طويلة ، ونظرا لانها ليست الموضوع الرئيسي في هذا البحث، لذلك تتم الإشارة إليها سريعا دون الدخول في التفاصيل ، بما يخدم موضوعنا الرئيسي ويلقي الضوء عليه فحسب .

فقد استأنف الفرس حربهم ضد بيزنطه وتابعوا تغلغلهم في منطقة الشرق

---

(١) بخصوص الحرب البيزنطية الفارسية بكافة تفاصيلها راجع :

Pisidia : De expeditione persica . Heraclias , in C. S. H. B. ed. Bonnae , 1838 - 1839 .

Nicephori Patriarchae : Breviarium , ed . , De Boor , Leipzig , 1880 .

Ostrogorsky : Op. cit , PP. 92 - 109 .

Vasiliev : Op. cit , PP. 194 - 199 .

Bréhier : Vie et mort de Byzance , PP 53 - 57 .

Baynes : The Successors of Justinian , C. Med. H. vol II , PP. 287 - 300 .

الأدني ، ورغم ما حققته بيزنطه من انتصار علي الفرس في عام ٦١١ م. بعد أن أجبرتهم علي الانسحاب من قيصرية ، الا أن الهجمات البيزنطية المضادة في سورية وأرمينية انتهت بالفشل ولم تحقق ما هدفت اليه ، ومنيت الجيوش البيزنطية أمام الفرس بهزيمة كبيرة عام ٦١٣ م. بالقرب من انطاكية مما ساعد الفرس علي تقوية مراكزهم في معظم المناطق التي هاجموا بيزنطه فيها ، فتقدموا باتجاه الجنوب واحتلوا دمشق في عام ٦١٤ م. ، ثم ساروا شمالا إلي قيليقية واحتلوا قلعة طرسوس الحصينة ، كما تمكنوا من طرد البيزنطيين من أرمينية .

ولعل أقسي الضربات التي تلقتها بيزنطة في هذه الحرب هي احتلال الفرس لمدينة بيت المقدس ، بعد ان حاصروها لمدة ثلاثة أسابيع ، وحين دخل الفرس المدينة *اشعلوا فيها الحرائق وأعملوا القتل والذبح في سكانها لعدة أيام* ، وخربت نتيجة هذه الحرائق ، كنيسة القبر المقدس ، ووقع في قبضة الفرس الصليب المقدس ، أو صليب الصلبوت ، الذي يعتبرونه أقدس الآثار المسيحية ، والذي تألموا كثيرا لفقده اذ حمل الفرس هذا الصليب إلي عاصمتهم المدائن . وفي سنة ٦١٥ م. عاود الفرس هجماتهم علي آسيا الصغري ، وتوغلت بعض فرقهم حتي كريسوبوليس علي البسفور .

ويبدو أن خاقان الآفار وجد في هذه الظروف التي كانت تمر بها الامبراطورية البيزنطية الفرصة المناسبة لتحقيق أهدافه ، فتقدم في يونيو ٦١٧ م. بطلب مقابلة الإمبراطور هرقل ، فاستجاب الإمبراطور لطلبه ، ورتب أمرهذه المقابلة، البطريق أثاناسيوس ، ووزير الخزانة كوزماس ، وتمت المقابلة في هرقلية Heraclea وهي احدي ضواحي القسطنطينية ، وتقع إلي الشرق منها وتطل علي بحر مرمرة ، وتوقع هرقل أن يطلب الخاقان زيادة الجزية السنوية التي يدفعها للآفار ، لكن ما

لبث أن خاب ظن الامبراطور حينما لم يعرض الخاقان لهذا الموضوع ، وانما طلب ما هو أفضل وأثمن ألا وهو تسليم العاصمة البيزنطية نفسها (١) .

وكان من الطبيعي أن يرفض الامبراطور هذا الطلب ، ومن إشارة بسوط الخاقان ، اندفع الآفار من مخابئهم نحو الامبراطور الذي أدرك مدي الخطر الذي يواجهه ويتعرض له العاصمة البيزنطية ، فخلع تاجه وعباءته الأ.رجوانية ، واخفاهما تحت ذراعه ، وانطلق هاربا ، فأخبر الحامية والآهالي بالخطر الذي بات يتهددهم ، وما لبثت حشود الآفار أن أخذت تتدفق إلي سهل هبدومون Hebdomon علي الطرف الجنوبي الشرقي للقسطنطينية ، حيث نهبوا كنيستي القديس كوزماس والقديس داميان ، ثم عبروا إلي القرن الذهبي وهو إلي الغرب من العاصمة ، حيث هاجموا كنيسة كبير الملائكة Archangel ، وحطموا المائدة المقدسة بها ، ووقعت في ايديهم أعداد هائلة من الأسري والسبايا ، جمعوهم من ضواحي القسطنطينية ، ويذكر المؤرخ نورمان بينز أن عددهم وصل إلي المائتين وسبعين ألف رجل وإمرأة . وان كان هذا الرقم يبدو مبالغا فيه ، وعاد الآفار بالغنائم والأسري إلي ما وراء الدانوب (٢) .

وفي ربيع عام ٦١٩ م. غزا الفرس مصر أغني أقاليم الامبراطورية البيزنطية، فأدي ذلك الغزو إلي نقص امدادات العاصمة القسطنطينية من المؤن ، لاسيما القمح الذي كان يصلها من مصر . وهكذا أصبحت معظم ولايات الشرق

(1) Baynes : Op. cit , P. 291 .
Brchier : Vic et mort de Byzance , P. 54 .
Ostrogorsky : Op. cit , P. 95 .

(2) Baynes : Op. cit , P. 291 .

الأدنى في قبضة الفرس ، وبدأ وكأنهم سيسترجعون أمجاد امبراطوريتهم القديمة . وبلغ من سوء الأحوال في بيزنطة أن فكر الامبراطور هرقل ، في نقل عاصمته من القسطنطينية إلي قرطاجة Carthage في شمال أفريقية ، ليقود من هناك حركة المقاومة ضد أعدائه المتربصين به من كل ناحية . لكنه لقي معارضة شديدة من جانب البطريرك سيرجيوس Sergius ، الذي نجح في اقناع الامبراطور بالتخلي عن هذه الفكرة ، ووضع تحت تصرفه ثروة الكنيسة من الذهب والفضة لتستخدم في مواجهة هذه الأزمة ، كما أصلحت الكنيسة ذات البين بين حزبي الخضر والزرق ، وتفهم الجميع حدود وأبعاد الخطر المحدق ببيزنطه حتي بلغ الأمر إلي حد أن توزيع الخبز مجانا ، وهو حق لأهالي العاصمة وامتيازا لهم منذ افتتاح قسطنطين الأكبر للعاصمة البيزنطية في مايو ٣٣٠ م. ، قد أمكن ايقافه دون حدوث اضطرابات خطيرة بين الأهالي لفقدهم هذا الامتياز (١) .

ولما كان الامبراطور يريد أن يتفرغ لحروبه في آسيا ضد الفرس ، فقد وقع معاهدة صلح مع خاقان الآفار في عام ٦١٩ م. ، وتعهد له بدفع مبلغ كبير من المال كجزية سنوية ، ثم عين الامبراطور هرقل مجلس وصاية علي ابنه وولي عهده قسطنطين الثالث ، ورأس هذا المجلس البطريرك سيرجيوس والماجستر بونوس ، وفي يوم الاثنين ٥ أبريل ٦٢٢ م. أقيم احتفال ديني كبير للإمبراطور غادر علي أثره العاصمة إلي آسيا الصغري ، حيث قضي الصيف بكامله يدرب جنوده ، ثم بدأ القتال مع الفرس في الخريف من نفس العام ٦٢٢ م. وتمكن عن طريق مناورة عسكرية بارعة ان يشق طريقه إلي أرمينيا وأجبر الفرس علي ترك مواقعهم في

(1) Nicephori Patriarchae : Breviarum , PP. 10 - 12 .

Ostrogorsky : Op. cit , PP. 92 - 93 .

موص : ميلاد العصور الوسطي ، ص : ٢٣٣ .

المرات الجبلية في آسيا الصغري ، فتقابل الجيشان البيزنطي والفارسي علي أرض أرمينية ، وجرت بينهما معركة كبيرة انتهت بانتصار البيزنطيين وبذلك حقق هرقل أول أهدافه ، وحرر آسيا الصغري من الفرس الذين كانوا يحتلون بعض مقاطعاتها (١) .

وأثناء غياب الامبراطور هرقل عن عاصمته القسطنطينية حاول خاقان الآفار أن ينقض الصلح مع البيزنطيين ، لكن هرقل عاد سريعا إلي العاصمة ، وزاد في مقدار الجزية التي كان يدفعها للآفار بناء علي الاتفاق السابق بينهما كما أرسل بعض أقربائه كرهائن لديهم (٢) ، وذلك حتي لا تفتح أمامه جبهة قتال ثانية مع الآفار ، يكون لها تأثير سئ علي حربه مع الفرس .

وشهد عام ٦٢٦ م. أحداثا هامة وخطيرة في الصراع الدائر بين البيزنطيين والفرس من جهة ، وبين البيزنطيين والآفار من جهة أخري ، فقد صمم حاكم الفرس كسري الأول انوشروان (٥٣١ - ٥٧٩ م) علي حشد جيوشه لسحق البيزنطيين وقامت خطته علي أساس أن يستوقف أحد جيوشه هرقل بينما يزحف جيش آخر علي خلقيدونية Chalcedon ويهاجم العاصمة (القسطنطينية) ، ومن أجل ذلك اتصل الفرس بالافار أعداء بيزنطة ، وقام تحالف بين الفرس من جهة والآفار ورعاياهم من الجهة الأخري (٣) ، وكان هذا التحالف هو ما يخشاه هرقل ، وربما من

(1) Baynes : Op. cit , PP. 292 - 293 .

Ostrogorsky : Op. cit , PP. 100 - 101 .

(2) Ostrogorsky : Op. cit , P. 101 .

Baynes : Op. cit , P. 292 N. 2.

(3) Baynes : Op. cit , P. 295 .

Vasiliev : Op. cit , P. 197 . ==

أجل ذلك كان يحاول دائما أن يشتري ود الآفار بدفع الجزية لهم وزيادتها مرة تلو الأخري ، حتي لا يضطر لخوض حرب ضد خصمين في وقت واحد . ولكن حدث في ذلك العام (٦٢٦ م.) ما كان يخشاه هرقل ويحاول تفاديه ، وهو تعرض العاصمة البيزنطية للحصار برا وبحرا .

ففي الوقت الذي ظهر فيه القائد الفارسي شهر براز أمام مدينة خلقيدونية في أول يونية ٦٢٦ م. حيث قام باحراق ضواحي المدينة بكل ما تحتويه من كنائس ودور للسكن ، انتظر الفرس وصول الآفار ، الذين ظهرت مقدمة جيشهم أمام مدينة أدرنة في يوم الأحد ٢٩ يونية وأصبح موقف بيزنطة في غاية الخطورة ، لهذا حاول البيزنطنون تقويض هذا التحالف الفارسي الآفاري ، وأرسلوا إلي الخاقان رسولا بيزنطيا هو البطريق أثاناسيوس Athanasius الذي عرض استعداد البيزنطيين قبول كل طلباته واجابة رغباته علي شرط واحد فقط هو أن يتخلي عن خططه في غزو القسطنطينية ، لكنه رفض وأكمل الآفار سيرهم حتي وصلوا إلي الضواحي الشرقية للعاصمة وذلك في يوم ٨ يولية ٦٢٦ م. ، وأرسلوا دوريات استطلاعية تجاه القسطنطينية قامت بعمل اتصالات بجيش الفرس المرابط أمام خلقيدونية ، عن طريق أشعال النيران ، كما قاموا بتخريب القناة المائية التي تمد العاصمة بالمياه ، وفي يوم الثلاثاء ٢٩ يولية ٦٢٦ م. وصل الآفار بجيشهم كاملا إلي أسوار العاصمة البيزنطية وكان جيشهم يبلغ عدده نحو ثمانين ألف رجل من الآفار والسلاف والجيبيداي والبلغار والسيكثيين وغيرهم من القبائل الأخري الخاضعة للآفار ، وعسكروا أمام الأسوار الواقعة في الجهة الشرقية من

== Brehier : Op. cit , P. 56 .

القسطنطينية [١] .

وقد اتخذ الماجستر بونوس عدة اجراءات سريعة من أجل الدفاع عن القسطنطينية ، بينما أخذ البطريرك سيرجيوس يشجع ويقوي من عزيمة الشعب ، الذي كان يعاني من شدة الخوف ، وقد أرسل الامبراطور هرقل الذي كان بعيدا عن عاصمته يقاتل الفرس فصيلة من جيشه لتقوية دفاعات العاصمة وكلفها بابلاغ المسئولين في بيزنطة بأوامر الامبراطور الخاصة بخطط الدفاع ، وأخذ البطريق بونوس والبطريرك سيرجيوس يتفقدان الأسوار ويلهبان حماسة المدافعين عنها [٢] .

وفي يوم الخميس ٣١ يولية أخذ الآفار يتفقدون الأسوار ، ووقع اختيارهم على المكان المتوسط من الأسوار ، الواقع بين بابي بمبتون Pempton ، وبوليانديون Polyandrion في جنوب القسطنطينية ، وركزوا على هذا الجزء من الأسوار ، وحشدوا أمامه الجانب الأعظم من قواتهم ، فكان السلاف على خط المواجهة ، يليهم الآفار ، أما باقي الأسوار فقد حشدوا أمامها قوات من السلاف وباقي العناصر الأخرى المشتركة معهم والخاضعة للآفار .

(1) Pisidia : Bellum Avaricum , ed . Bekker , in C. S. H. B. , Bonnae , 1838 - 1839 , V , PP. 194 - 201 , 401 .

Theodore Syncellus , ed . Sternbach , Analecta Avarica , Seorsum . impressum ex tomo XXX , Dissertationum philologicarum Academiae , Litterarum Cracoviensis , 1900 , PP. 8 , 21 .

Nicephori Patriarchae : Breviarium ed. de Boor , leipzig , 1880 , PP. 17 , 25 .

Theophanes : Chronographia , ed. de Boor , Leipzig , 1883 , P. 315 .

(2) Theodore Syncellus, PP. 9 , 12 .

Barisić F. : Le Siége de Constantinople , par les Avares et les Slaves en 626 , dans (Byzantion) revue international des Etudes Byzantines , tome XXIV , Bruxelles , 954 , P. 380 .

ويبدو أن الآفار قد أدركوا أنه ينبغي أن تحاصر القسطنطينية بحرا أيضا ، لأن العاصمة كانت تمثل رأس مثلث يطل ضلعان منه علي المياه بينما يطل الضلع الثالث علي البر وحصارها من البر فقط يتيح لها أن تحصل علي المؤن والأغذية والامدادات العسكرية عن طريق البحر فيطول الحصار ويفشل في النهاية ، واذا حوصرت بحرا فقط ، فانها تستطيع أن تحصل علي ما يلزمها من مؤن عن طريق البر ، ويطول الحصار ويفشل أيضا ، لذلك استعان الآفار باسطول السلاف وحاصروا القسطنطينية بحرا وكان تركيزهم أشد ما يكون علي مياه القرن الذهبي في الناحية الغربية من العاصمة.

وقد اقتصرت الحرب بين الطرفين البيزنطي والآفاري حتي ذلك الوقت ، علي المناوشات المحدودة ، سواء في البر أو في البحر علي حد سواء ، وأرسل الماجستر بونوس إلي خاقان الآفار يعرض عليه أن يرفعوا الحصار عن القسطنطينية ويرحلوا، مقابل أن يدفع لهم تعويضا ماليا كبيرا ، بالاضافة إلي الجزية السنوية ، لكن الخاقان رفض هذا العرض ، وأصر علي أن يتم تسليم العاصمة له ، بعد اخلائها من أهلها ، الذين عليهم أن يغادروها دون أن يحملوا معهم أية أمتعة أو ثروات[1] .

ويبدو أن خاقان الآفار رأي أنه تشدد في مطالبه ، وأراد أن يفتح باب المفاوضات مع البيزنطيين من جديد ، فأرسل إلي المسئولين في بيزنطة يوم الأحد ٢ أغسطس ٦٢٦ م. يطلب ارسال سفارة اليه من أجل التفاوض ، وبعد مشاورات في القصر الامبراطوري بين ولي العهد قسطنطين الثالث ، والبطريرك سيرجيوس ، والماجستر بونوس ، ورجال مجلس الشيوخ (السناتو) فتقرر ارسال وفد إلي

(1) Theodore Syncellus , PP. 15 - 20 .

Barisié : Le Siége de constantinople , P. 383 .

الخاقان علي رأسه رجل الدين ثيودور سنكيلوس ، حاملين معهم الهدايا الثمينة للخاقان ، وعروض بيزنطة للسلام ، ويبدو أن القائد الفارسي شهر براز الذي كان يعسكر أمام مدينة خلقيدونية ، قد علم بأمر هذه المفاوضات ، فسارع بالعمل علي تقويضها ، فارسل ثلاثة رسل من طرفه إلي الخاقان وافوه في معسكره ، واجتمعوا به ، ويبدو انهم حرضوه ضد البيزنطيين اذ سرعان ما تغيرت سحنته ولهجته مع الرسل البيزنطيين " مثلما تتغير الحرباء " علي حد تعبير ثيودور سنكيلوس ، فعاد يصر من جديد علي ضرورة اخلاء القسطنطينية من أهلها وتسليمها اليه . وعندئذ رفض الرسل البيزنطيون شروطه وغادروا معسكره عائدين إلي القسطنطينية (١) .

كان ذلك مبررا لاشتعال المعركة بين البيزنطيين وجيش الآفار برا وبحرا في يوم الأربعاء ٦ أغسطس ٦٢٦ م. واستمر القتال علي امتداد الاسوار طوال النهار وجزء من الليل ، أصيب خلاله الطرفان باضرار بالغة ، وان كانت خسارة الآفار أكبر من خسارة البيزنطيين ، واستونف القتال بيوم الخميس ٧ أغسطس ، واختلطت أصوات آلات القتال بصيحات الحرب المرعبة ، في نفس الوقت جرت معركة بحرية كبيرة بين الأسطول البيزنطي واسطول المهاجمين كان مسرحها خليج كيراس Keras في القرن الذهبي ، وتمكن الآفار من الاستيلاء علي ملحقات قصر بلاكرناي ، الذي يقع في الزاوية الجنوبية الغربية من القسطنطينية ، وأخذوا في الاقتراب من القصر شيئا فشيئا ، لكن الماجستر بونوس أصدر أوامره للسفن الحربية بالالتفاف حول سفن المعتدين فأحاطوا به من كل جانب واشتعل القتال ، واندفع المقاتلون من الجانبين مهاجمين بالرماح والسيوف والحراب ، وثقب البيزنطيون سفن عديدة لاعدائهم فغرقت بمن فيها ، وكثر عدد القتلي الذين ذبحوا

(1) Theodore Syncellus : PP. 11 , 14 - 40 .
Pisidia : Bellum Avaricum , PP. 323 - 348 .

بسيوف البيزنطيين ، لدرجة أن اصطبغت مياه البحر باللون الأحمر لكثرة ما سال فيها من دماء ، وأبلي المقاتلون الأرمن في الأسطول البيزنطي بلاء حسنا وقتلوا وأغرقوا عددا كبيرا من البحارة السلاف ، ونجحت اعداد أخري منهم في السباحة والوصول إلي الشاطئ ، لكن خاقان الآفار الذي كان يراقب المعركة أمر بقتلهم حتي يجبر الباقين منهم علي القتال وعدم الفرار ، الا أن اعدادا أخري منهم آثرت الفرار والاختباء في الجبال ، وانتهي أمر اسطول الآفار تماما في هذه المعركة ، وامتلأت مياه القرن الذهبي القريبة من قصر بلاكرناي بجثث القتلي وبالزوارق الخاوية التي تتقاذفها المياه هنا وهناك ، وحينما أدرك خاقان الآفار أنه خسر المعركة ، أسرع إلي خيمته وجثي علي ركبتيه وظل يلطم رأسه وصدره [(١)] .

وأعلن المدافعون عن القسطنطينية نبأ انتصارهم علي الملأ ، ورفعوا رؤوس القتلي من الاعداء فوق رماحهم ، مما أدي إلي انسحاب كتائب السلاف واحدة في أثر الأخري ، وخوفا من الفرسان الآفار ، انطلق السلاف فارين ، وانتقلت عدوي الفرار إلي البحارة السلاف الذين كانوا مختبئين في الجبال ، فأخذ الفرسان الآفار في مطاردتهم ، علي حين أخذ المشاة في إخلاء أماكنهم تحت أسوار القسطنطينية . وأصدر الماجستر بونوس أوامره إلي كل الجنود البيزنطيين الذين كانوا خارج أسوار العاصمة أن يدخلوا إليها ، وأخذ الجميع يحتفلون بهذا النصر العظيم ، سواء في الكنائس أو المنازل أو الشوارع ، وخرج الماجستر بونوس والبطريرك سيرجيوس في يوم ٨ أغسطس إلي خارج أسوار العاصمة واشرفا علي حرق جميع آلات الحرب التي تركها

(١) يوجد وصف تفصيلي لهذه المعركة في المصدرين التاليين :

Theodore Syncellus , PP. 12 - 40 .

Nicephori Patriarchae : Breviarium , PP. 6 - 24 .

المعتدون تحت الأسوار [١] .

أما القائد الفارسي شهر براز وجيشه ، فقد استمروا معسكرين أمام خلقيدونية ، وقال ثيودور سنكيلوس أنهم استمروا أمامها (أياما عديدة) [٢] بعد رفع الأفار الحصار عن القسطنطينية ، علي حين ذكر ثيوفانيس وسكيليتزيس أن شهر براز " قضي فصل الشتاء " [٣] أمامها ، والغالب أن شهر براز انسحب من أمام خلقيدونية في فصل الربيع من عام ٦٢٧ م. [٤] .

والملاحظ أن شهر براز لم يكن له دور كبير في حصار القسطنطينية في عام ٦٢٦ م. ، اذ لم يشترك في هذا الحصار لا بالرجال ولا بالآلات ولا بالأسطول ، والأرجح أنه أراد من وصوله أمام خلقيدونية أن يشل حركة هجوم هرقل علي أرمينية، ويظهر للبيزنطيين أن ما أحرزه هرقل من انتصارات علي الفرس لم يكن لها قيمة كبيرة ، بدليل وصول الفرس إلي خلقيدونية المواجهة للعاصمة البيزنطية وربما أراد أن يجبر هرقل علي العودة لانقاذ عاصمته ، والدفاع عنها ضد الأعداء ، وبذلك تتاح للفرس فرصة استعادة مراكزهم في الاقاليم التي انتزعها منهم . لكن هرقل كان بعيد النظر فصمد في ميدان المعركة في الشرق ، وآثر عدم العودة إلي العاصمة ، فأفسد علي الفرس خططهم ، وهكذا لم يحقق الفرس أية مكاسب من وراء هذا التحالف الفارسي الآفاري .

(1) Theodore Syncellus , PP. 7 - 37 .

(2) Theodore Syncellus , PP. 17 - 22 .

Manjlovic : Le peuple de constantinople , dans (Byzantion) tome II , 1936 , P. 632 .

(3) Theophanes : P. 316 .

Skylitzes : Excerpta Exbreviaro Historiae , webri , Bonnae , 1840 , P. 729 .

(4) Barisié : Op. cit , P. 390 .

هذا عن الفرس ، أما الآفار ، فقد كانت خسارتهم فادحة ، ولا نكون مبالغين اذا قلنا أن فشل الآفار في حصار القسطنطينية في عام ٦٢٦ م. كان نقطة تحول خطيرة في وضعهم السياسي والحربي ، علي النحو الذي يتضح من خلال عرضنا التالي للحوادث .

ذلك أن العاصمة البيزنطية بما لها من موقع ممتاز علي مضيق البسفور ، وبما تملكه من ثراء ورخاء ، جذبت الآفار اليها وبهرت أنظارهم منذ أمد بعيد ، وبعد تجربة لهم فاشلة في عام ٦١٧ م. للاستيلاء علي المدينة عنوة ، لم يقنعوا لا بالأموال ولا بالهدايا التي قدمت لهم مع هدنة عام ٦١٩ م. ، وأصروا علي الاستيلاء علي العاصمة نفسها ، وقاموا بمحاولتهم هذه في عام ٦٢٦ م. وكانت الظروف مهيأة لهم تماما في ذلك الوقت ، فالتوقيت كان مناسبا نظرا لانشغال الإمبراطور هرقل بحربه ضد الفرس ، وكان بعيدا عن عاصمته هو ومعظم فرقه العسكرية ، كما أن الاستعدادات العسكرية كانت أيضا في صالح الآفار ، اذ وصل جيشهم إلي نحو ثمانين ألف مقاتل ، وهو عدد يفوق ثلاث أو أربع مرات عدد المدافعين عن العاصمة البيزنطية ، كما أنهم أتوا بآلات حصار كافية ، وتنبهوا إلي ضرورة حصار المدينة برا وبحرا ، حتي لا تستفيد من أية امدادات عسكرية أو تموينية يمكن أن تصل إليها ورغم ذلك كله فشل الحصار ، وليس هناك من تعليل لذلك سوي أن الآفار ورعاياهم من البلغار والجبيداي والسلاف وغيرهم من القبائل كانوا يفتقرون إلي النظام ، كما أن بعض هذه العناصر أخذت تقاتل بعضها البعض أمام ا لعاصمة البيزنطية مثل السيكثيين الذين أخذوا في قتل السلاف ، ثم تغلب عليهم السلاف بعد ذلك

(1) Pisidia : Bellum Avaricum , PP. 78 - 81 .
Barisić : Op. cit , P. 395 .

وقتلوهم (١) . وقد حالت هذه المذابح المتبادلة بين هذه العناصر وبين تحقيق أهداف الحرب التي جاؤا من أجلها . وذلك علي عكس الحال بالنسبة للبيزنطيين ، الذين تكاتفت فئاتهم ، والتفوا حول قادتهم من أجل هدف معين ، وخاضوا معركة كانت بالنسبة لهم معركة حياة أو موت ، فأما الانتصار علي هذه القبائل، والإحتفاظ بعاصمتهم ، واما يفقدون كل شئ ويصبحون عبيدا لهؤلاء البرابرة . أضف إلي ذلك أنهم كانوا يدافعون عن عاصمتهم وفقا لخطط وتدابير مدروسة ومنظمة ، اشترك في وضعها الامبراطور هرقل نفسه ، والماجستر بونوس ، كما قام الاسطول البيزنطي بدور هام في الدفاع عن العاصمة وألحق الدمار باسطول السلاف في مياه القرن الذهبي . كما قامت الكنيسة أيضا ممثلة في البطريرك سيرجيوس ورجال الدين بدور رئيسي في تقوية عزائم الشعب وبث الحماس في النفوس للدفاع عن العاصمة . وهكذا قدر للحضارة أن تنتصر علي البربرية ، وقدر لبيزنطة أن تنجو من مصير مظلم .

وقد ترتب علي فشل الآفار أمام القسطنطينية في عام ٦٢٦ م. نتائج علي جانب كبير من الأهمية والخطورة . فقد أخذت قوتهم في التداعي وتخلوا وبصفة نهائية عن حلمهم في فتح العاصمة البيزنطية ، فتراجعوا إلي اقليم بانونيا مدحورين ، ولم يجرؤا بعد ذلك علي الاقتراب من القسطنطينية .

كذلك انهار نفوذهم وفقدوا هيبتهم بين رعاياهم المغلوبين علي أمرهم ، وأخذت هذه الشعوب في التمرد وخلع طاعتهم ، ولا سيما سلاف مورافيا ، الذين ثاروا ضد الآفار وأسسوا لانفسهم مملكة تحت حكم سامو (١) Samo ، وهكذا ظهرت للوجود

(١) سامو هو أحد التجار الفرنجة تولي زعامة السلاف وحكمهم لمدة ٣٥ عاما ، راجع :

Gregoire : L'origine et le nom des croites et des Serbes , dans (Byzantion) tome , XVII , 1944 - 1945 , P. 112 .

أول دولة صقلبية في مورافيا (١) .

كما ثارت عليهم أيضا القبائل البلغارية التي كانت تسكن شمالي البحر الأسود وبحر الخزر ، وسلموا قياداتهم إلي زعيم منهم يدعي كوفرات Kouvrat ، وساعد البيزنطيين كوفرات في نضاله ضد الآفار ، وعقد معه الامبراطور هرقل تحالفا ومنحه لقب قائد بيزنطي ، وعمده عضوا في الكنيسة النصرانية ، وظل البلغار في صراعهم مع الآفار حتي استقلوا عنهم في النهاية حوالي عام ٦٤٠ م. (٢) .

ومن الشعوب التي استقلت أيضا عن الآفار بعد هزيمتهم عام ٦٢٦ م. الكروات (٣) و الصرب ، الذين كان موطنهم الاصلي وراء جبال الكربات ثم هاجروا

---

(1) Dvornik : The Slavs , Their early History and civilization , Boston , 1956 , American Academy of Arts and Siences , PP. 60 - 61 .

(2) Nicephori Patriarchae : P. 24 .

Theophanes : P. 357 .

Gregoire : L'origin , PP. 112 - 118 .

Runciman : A History of the First Bulgarian Empire , PP. 13 - 16 .

موص : ميلاد العصور الوسطي ، ص ٢٩٧ .

(٣) يذكر الامبراطور قسطنطين السابع أن كلمة كروات Croats تعني في اللغة السلافية (الذين يحتلون الكثير من الاراضي) راجع :

Constantine Porphyrogenetus : De Administrando Imperio , Chapter 31 .

ويذكر المؤرخ الفرنسي هنري جريجوار أن الكروات والصرب اسمان لشعب واحد ، فقد اتخذ الكروات اسمهم من اسم قائدهم واسمه كروات Croate ، واتخذ الصرب اسمهم من اسم قائدهم ويدعي صرب Serbe ، راجع :

Cregoire : L'origine et le nom des croites et des Serbes , P. 100 .

إلي شبة جزيرة البلقان ، وأخضعهم الآفار لسيادتهم ، وعمد الامبراطور هرقل إلي أن يضرب بهم الآفار عقب هزيمتهم عام ٦٢٦ م. ، فحرضهم علي قتالهم ، وتغلبوا عليهم ، فسمح لهم الامبراطور هرقل بالاستقرار في شبه جزيرة البلقان ، حيث سكن الكروات في المناطق الشمالية الغربية من البلقان ، وسكن الصرب في المناطق الجنوبية الشرقية ، واعترفوا جميعا بالسيادة البيزنطية (١) .

وتجدر الإشارة إلي أن الامبراطور هرقل لم يدعو الكروات والصرب لسكن البلقان ، لكنهم هم الذين كسبوا بالقوة أراضيهم داخل حدود الامبراطورية ، وكل ما فعله هرقل أنه اعترف بهم وأضفي الصفة الشرعية علي وضعهم كتابعين للامبراطورية ، وأخذ علي عاتقه تعليمهم استيعاب الحضارة البيزنطية واعتناق الديانة المسيحية . والواقع أن السيادة البيزنطية علي هؤلاء السلاف لم تكن الا سيادةاسمية ، وكل ما جنته بيزنطة من هذه التغييرات في البلقان ، هو الخلاص من غارات الآفار المتكررة علي أراضيها وطمعهم في امتلاك العاصمة البيزنطية ذاتها ، وهو الأمر الذي سبب قلقا دائما لهرقل حتي تمكن في النهاية من القضاء عليه .

واذا كان الامبراطور هرقل قد نجح في ابعاد خطر الآفار عن امبراطوريته وشجع رعاياهم علي خلع طاعتهم مما أدي إلي انكماش امبراطوريتهم واقتصارها علي اقليم بانونيا ، الا أن الفضل يرجع للامبراطور شارلمان (٧٦٨ - ٨١٤) في القضاء علي الآفار بصفة نهائية .

فقد اهتم شارلمان بمد نفوذه إلي بافاريا في الجنوب الشرقي من دولته ،

---

(١) بخصوص الكروات والصرب وعلاقاتهم بالآفار وبيزنطة راجع :

Constantine Porphyrogenetus : Op. cit , Chaptes 29 - 36 .

Cregoire : L'origine , PP. 101 - 103 .

وأذعن له البافاريون في البداية علي أساس الاعتراف بسيادته عليهم ، وتحويل مملكتهم إلي دوقية تحظي بنوع من الاستقلال الذاتي سياسيا وكنسيا . علي أن خروج ملك البافاريين عن الطاعة واعلانه العصيان في ٧٨٨ م. وطلبه المساعدة من جيرانه الآفار في بانونيا ، كل ذلك دفع شارلمان إلي المبادرة بخلعه ونقله إلي أحد الأديرة ، واجباره علي التنازل عن كل حقوقه وحقوق أسرته في بافاريا وادخالها في دائرة أملاك الفرنجة (١) .

وهكذا تم ضم بافاريا إلي أملاك شارلمان مما جعله في مواجهة مباشرة مع الآفار ، وقد بادرت جيوش شارلمان باتخاذ خطة الهجوم ، وتقدم اريك دوق فريولي Eric Duke of Friuli علي نهر الدانوب ، فاقتحم الحلقة الكبيرة التي أقامها الآفار من متاريس ترابية مستديرة تؤلف المعقل الرئيسي لهم ، ثم توالت بعد ذلك الحملات علي الآفار حتي بلغ عددها ثماني حملات علي مدي خمسة عشر عاما من ٧٩١ – ٨٠٥ م. ، قاد منها شارلمان نفسه حملة واحدة فقط في عام ٧٩١ م. بينما قاد ابنه بيبن Pepin باقي الحملات ، وكان بيبن يحكم اللومبارديين في ايطاليا بعد انتصار شارلمان عليهم ، ويقول اينهارد Einhard مؤرخ عصر شارلمان ، انه خلال هذه المعارك سالت دماء الآفار كالنهر ، حتي أن جميع نبلائهم قتلوا ، وخربت قصورهم وديارهم في بانونيا ولم يعد أحد من الآفار يعيش هناك (٢) .

---

(١) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطي ، جـ ١ ، ص ٢٠٢ .

محمد الشيخ : تاريخ أوروبا في العصور الوسطي ، ص ٢٥٧ .

(2) Einhard and Notk the Stammerer , Two lives of Charlemagve , P. 67 .

The Royal Annals , in " The Reign of Charlemagne " Documents on carolingian , Government and Administration , by H. R. loyn and Percival , 1975 , PP. 38 - 39 .

كما استولي الفرنجة علي كنوز هائلة من الذهب والفضة والمنسوجات الغالية والأواني النفيسة ، وكلها من الغنائم التي غنمها الآفار علي مدي أجيال متعاقبة . والمرجح أن معظمها كانوا قد نهبوه من مدن الامبراطورية البيزنطية وأديرتها وكنائسها التي طالما تعرضت للنهب من جانب الآفار . ويقول المؤرخ فيشر أن الأسلاب التي غنمها الفرنجة من الآفار ، قد اسهمت في رفع شارلمان من حالة الغني والثروة إلي حالة الثراء الفاحش والثروة الوفيرة (١) .

وهكذا تم لشارلمان القضاء علي الآفار ، فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة ، واختفوا من مسرح الحوادث التاريخية ، وتحولوا إلي سطور في كتب التاريخ .

تلك كانت سيرة شعب من الشعوب الآسيوية والقبائل الهمجية التي غادرت موطنها جريا وراء الغنائم والأسلاب ، وطمعا في الامبراطورية البيزنطية التي كانت تمثل قمة الثراء والحضارة في نظر هذه الشعوب ، وفي رحلتهم علي مدي ما يزيد علي القرنين من الزمان ، منذ اتصالهم بالامبراطورية البيزنطية في العقد السادس من القرن السادس الميلادي ، وحتي قضاء شارلمان عليهم في أوائل القرن التاسع الميلادي ، روع الآفار سكان المنطقة التي مروا بها أو تلك التي استقروا فيها ، وقاموا بدور يماثل الدور الذي قام به أسلافهم الهون ، وظل الآفار حتي النهاية علي وثنيتهم ، ولم يكن اتصالهم بالامبراطورية البيزنطية من أجل الثقافة أو التهذيب ، أو تذوق الحضارة ، أو التأثر بالديانة المسيحية ، علي عكس الشعوب والعناصر الأخري التي أغارت علي الامبراطورية ، ثم تأثرت بحضارتها واعتنقت ديانتها المسيحية ومذهبها الارثوذكسي ، كالقوط الشرقيين ، والروس ، والبلغار ، والكروات والصرب

(١) فيشر : أوروبا العصور الوسطي ، جـ ١ ، الطبعة الخامسة ، دار المعارف ، ص ٩٤ .

وغيرهم ، في الوقت الذي ظل فيه الأفار وحتي النهاية ، عناصر همجية هدفها السلب والنهب واغتصاب الأرض واخضاع الشعوب التي ساقها حظها التعس للوقوع في طريقهم .

ورغم التخريب والنهب والسلب والتدمير الذي مارسوه في الأماكن التي حلوا بها ، من بحر البلطيق إلي شبه الجزيرة المورة ، الا أنهم أثروا في مجريات الأمور في تلك المناطق بل وامتد أثر هذا التغيير إلي منطقة البلقان حتي العصور الحديثة .

فقد استعبد الأفار شعوبا كثيرة ، وضغطوا علي شعوب أخري ، مما دفعها إلي ترك أماكن استقرارها والهجرة إلي مناطق أخري ، مثلما حدث مع اللومبارديين الذين تركوا مقرهم علي نهر الدانوب ، تحت ضغط الأفار وهاجروا إلي شمال ايطاليا . كذلك ما حدث مع الأهالي من اليونان والرومان في شبه جزيرةالبلقان ، والذين اختلف المؤرخون حول ما حدث لهم من جراء هذه الغارات المدمرة ، فهناك رأي يقول أن العنصر اليوناني أبيد تماما في المناطق التي تعرضت لغزو الأفار والسلاف خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي وأوائل القرن السابع ، ومن هذا الفريق ، المؤرخ أزيدور أسقف أشبيلية ، الذي سبق عرض رأيه في ثنايا هذا البحث ، وهناك أيضا العالم الألماني الكبير الأستاذ فلّمرير Fallmerayer ، الذي كان استاذاً للتاريخ العام بالجامعات الألمانية ، والذي عرض رأيه بهذا الشأن في كتابه عن " تاريخ شبه جزيرة المورة في العصور الوسطي " ونشر في مدينة شتوتجارت الألمانية في عام ١٨٣٠ م. اذ قال الاستاذ فلّمرير ، ان ظهور الأفار في أوروبا كان عهد جديد في التاريخ اليوناني ، لان الأفار دفعوا أمامهم السلاف وقادوهم لفتح بلاد اليونان ، وأضاف قائلا : " لقد أبيد العنصر اليوناني تماما في أوروبا ، واختفي جمال الجسد ، وسمو الروح ، وبساطة التقاليد ، والابداع الفني ،

ونقاء العنصر ، وعظمة المدن ، وهدوء القري ، وفخامة الأعمدة والمعابد ، وحتي أسماء الناس اختفت من البلاد اليونانية ، وغطت قبور اليونان القدامي ، طبقتان من مخلفات الخراب والأوحال ، التي أحدثها عنصران مختلفين جديدين (١) . وتمثل بعض الأعمال الخالدة ، التي تتميز بروح الهللينية وبعض الآثار القديمة علي الأرض اليونانية ، الدليل الوحيد علي الحقيقة الساطعة ، بأن ثمة شعبا هللينيا كان يعيش علي هذه الأرض منذ زمن بعيد ... ولقد انتشر هذا الاعصار المروع فيما بين الجزء الأدني من نهر الدانوب ، وحتي أقصي ركن في البلوبونيز ، لذلك فانه لا توجد نقطة واحدة من الدم الهلليني النقي ، تجري في عروق السكان المسيحيين في بلاد اليونان الحديثة " (٢) .

وهناك فريق آخر من المؤرخين يؤكد علي أن العنصر اليوناني والحضارة الهللينية استمرت باقية ، وتمركزت في مناطق السواحل المطلة علي البحر الايجي كما تمركز الرومان علي السواحل المطلة علي البحر الادرياتي ، ومن هذا الفريق المؤرخين، نورمان بينز (٣) ، لمرل (٤) Lemerle ، استروجورسكي ، وموص .

وعلي سبيل المثال ، قال المؤرخ استروجورسكي (٥) : " انه رغم خضوع البلوبونيز للغزو السلافي لاكثر من قرنين من الزمان ، الا أن الأقاليم اليونانية لم تصبغ بالصبغة الصقلبية ، اذ حرصت السلطات البيزنطية علي المحافظة علي

(١) المقصود بهذين العنصرين الجديدين ، الآفار والسلاف .

(2) Fallmerayer J. P. : Geschichte der Hallinsel Morea Wahrend des Mittelalters , Stuttgart , 1830 , vol I , PP. III - XIV .

(3) Baynes : Op. cit , P. 296 .

(4) Lemerle : Invasions et migration des les Balkans , PP. 303 ff .

(5) O Strogorsky : Op. cit , P. 94 .

الطابع اليوناني بهذه الجهات ..... وبذلك استعاد العنصر اليوناني قوته مرة أخري وبطريقة تدريجية ، وساد علي السواحل الجنوبية والشرقية .... كما أكد العنصر الروماني وجوده علي السواحل الغربية " .

وقال المؤرخ موصي [١] : انه رغم غزوات الآفار والسلاف للبلقان الا أن السواحل المطلة علي البحر الايجي وشبه جزيرة البلوبونيز ظلت مراكز للحضارة والحياة الهللينية ، كما أن الرومان الذين فروا إلي الجزر والخلجان الادرياتية أقاموا حافة منعزلة من اللاتينية ، ظلت قائمة حتي العصور الحديثة ، وقد مات آخر ناطق باللغة اللاتينية في ١٨٩٨ م. ولم تكن لغته الا سلالة من اللسان الروماني القديم .

وهكذا نجد رأيين مختلفين تمام الاختلاف ، فالرأي الأول يقول أن العنصر اليوناني أبيد تماما ولم يبق له أثر نتيجة لغزوات الآفار والسلاف . والرأي الثاني يؤكد علي أن العنصر اليوناني والحضارة الهللينية استمرت باقية ولم تندثر . والأرجح أن الرأي الثاني هو الأصح لانه منذ حل الآفار بمنطقة البلقان في العقد السادس من القرن السادس الميلادي ، استعبدوا سكان هذه المنطقة من مختلف العناصر ، وخاصة السلاف وانطلق اعصار الآفار يعصف بموجات تتابع السلاف ويحيلها إلي تيارات عنيفة ، بما أضافوه لهذه القبائل من قوة دافعة ، وبما حرصوا عليه من انتشار في جميع أركان شبه جزيرة البلقان وبلاد اليونان وقد أدي ذلك إلي احتلال دائم من السلاف لمناطق ايلليريا ، دالماشيا ، مقدونيا ، وتراقيا ، والغالب ان هذه هي الفترة التي تم فيها صبغ المناطق الداخلية في شبه جزيرة البلقان بالصبغة الصقلبية ، وما ترتب علي ذلك من فصل روما القديمة عن روما الجديدة

(١) موص : ميلاد العصور الوسطي ، ص ص ٢٩٥ – ٢٩٦ .

(القسطنطينية) ، بعد أن وجدت كتلة من العناصر الصقلبية في شبه جزيرة البلقان . ورغم الجهود العسكرية لبيزنطة لرد اعتداءات الآفار والسلاف الا أن الامبراطورية لم تعد تستطيع السيطرة علي حدودها في منطقة الدانوب بعد عام ٦٠٤ م. كما سبق أن أوضحنا .

وفي وسط الفوضي التي عمت هذه المنطقة ، بدأت تظهر مستوطنات جديدة في بلاد البلقان ، تلك المستوطنات التي كونت نواة الأمم الصقلبية الحالية ، اما السكان الاصليين من اليونان والرومان ، فقد دفعوا أمام ضغط الآفار والسلاف إلي حافتي شبه جزيرة البلقان المطلتين علي البحر الادرياتي حيث استقر الرومان ، والبحر الايجي ، حيث استقر اليونان واستمرت الهللينية داخل هذه الأراضي بنفس مستواها الطبيعي في اللغة والشخصية ، وقد سبق أن أوضحنا ذلك في ثنايا البحث .

لذلك فان المقولة التي رددها الاستاذ فلّمرير ، ومن قبله ازيدور أسقف أشبيلية وملخصها أن الشعب اليوناني أبيد في المناطق التي تعرضت لغزو الآفار في البلقان وبلاد اليونان ، هي في واقع الأمر مقولة مبالغ فيها .

واذا كان هذا ما أحدثه ظهور الآفار في منطقة البلقان ، فان اضمحلال قوتهم وانهيار نفوذهم كان له أيضا آثار بعيدة المدي ، وكانت بداية هذا الاضمحلال هو فشلهم في الاستيلاء علي العاصمة البيزنطية في عام ٦٢٦م ، وتمرد شعوب كثيرة عليهم وخروجها عن طاعتهم ، واستمر اضمحلالهم حتي تم في النهاية تدمير قوتهم علي يد شارلمان في أوائل القرن التاسع الميلادي . وقد ترتب علي ذلك أن أصبح الطريق مفتوحا أمام عنصر

الفيكنج (١) ، للوصول إلي حوض نهر الدنيبر وسواحل البحر الأسود ، فقد دأبوا سواء أكانوا قراصنة أم تجارا علي الاغارة علي مناطق الصقالبة علي شواطئ بحر البلطيق ، وأقاموا بهذه الشواطئ معاقل دائمة لهم ، واستطاعوا أن يضعوا أيديهم رويدا رويدا علي طريق التجارة العظيم ، الذي يتألف من شبكة الطرق المائية التي تربط بين بحيرة لادوجا والبحر الأسود ، ثم توغلوا جنوبا وأسسوا دوقية كييف التي أصبحت نواة الامبراطورية الروسية فيما بعد (٢) .

وشمل انهيار قوة الآفار مجموعة الشعوب السلافية أيضا ، التي انحسر مدها غربا ، وارتد من أعالي النمسا لتؤلف تلك البلاد اذ ذاك جزءا من امبراطورية شارلمان ، وشرع مستوطنون من جرمان بافاريا يستقرون فيها ، ويستقرون أيضا في الجزء الغربي من المجر ، التي أصبحت مناطقها الشرقية بصفة خاصة جزءا من امبراطورية شارلمان ، وبذلك عاد إلي الوجود خط حدود بانونيا الذي كان معروفا عند الرومان .

وهكذا امتد تيار النفوذ الفرنجي امتدادا حثيثا حاملا معه سمات الحضارة

(١) الفيكنج هم العناصر الشمالية (سويديون ، نرويجيون ، ودانيون وهم سكان الدانمرك) التي سكنت شبه جزيرة سكنديناوة وشبه جزيرة الدانمرك ، وهم ينتمون من الناحية العنصرية إلي الأصل التيوتوني أو الجرماني . واسم الفيكنج بمعني سكان الفيوردات أو الخلجان وهي الظاهرة الطبيعية التي امتازت بكثرتها شواطئ الجهات الشمالية الغربية من أوروبا .

وعن كل ما يتعلق بالفيكنج وتاريخهم وحضارتهم ونشاطهم الحربي في العصور الوسطي راجع :

سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطي ، جـ ١ ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٢ ، ص ص ٢١٨ – ٢٤٧.

(٢) محمد الشيخ : تاريخ أوروبا في العصور الوسطي ، ص ص ٣٠٦ – ٣٠٧ .

موص : ميلاد العصور الوسطي ، ص ٢٩٨ .

المسيحية اللاتينية شرقا ، صوب الأراضي التي هي الآن ، النمسا وبولندا وبوهيميا والمجر ، بعد أن تم القضاء علي العقبة التي وقفت أمام امتداده لهذه المناطق ، والتي تمثلت في شعب الآفار .

المصادر والمراجع

1 - Alexander P. : The Patriarch Nicephorus of Constativople , 1985 .

2 - Barisié F. : Le Siége de Constantinople par les Avares et les Slaves en 626 . dans (Byzantion) Revue international des Etudes Byzantines , tome XXIV , Brux elles , 1954 .

3 - Barker : Justinian and the later Roman Empire , London , 1966.

4 - Baynes N. : The Successors of Justinian , in C. Med . H. vol II, ed. Bury, Cambridge , 1976 .

5 - Beisker : The Expansion of the Slavs , C. Med. H. Vol II, ed. Bury , Cambridge , 1976 .

6 - Brehier L. : Vie et mort de Byzance , Paris , 1969 .

7 - Bury Y. B. : A History of the Eastern Roman Empire , London , 1912 .

: A History of the later Roman Empire , U. S. A. , 1958 ..

8 - Chabot : La Chronique de Michel le Syrien , Paris , 1899 - 1904.

9 - Charanis P. : Hellas in The Greeke Sources of Six th , Seventh ,

and Eighte centuries, in late classical, and Medieval studies, in Honor of Albert Mathias Friend, Princeton University press, 1953.

10 - Constantine Porphyrogenetus : De Administrando Imperio, ed. Bonnae, C. S. H. B..

11 - Deihl et Marçais : Le monde oreintal de 395 a 1081, Paris, 1936.

12 - Dunlop : The History of the Jewish Khazars, U. S. A. 1967.

13 - Dvornik : The Slavs, their early History and civilization, Boston, 1956.

14 - Einhard and Notker the Stammerer Two lives of charlemagne, translated by thorp. Great Britain, 1969.

15 - Encyclopedia Britannica, William Benton Publisher, U. S. A., 1968.

16 - Evagrius : Historia Ecclesastica, ed. Bidez and Parmentier, London, 1898.

17 - Fallmerayer Y. P. : Geschichte der Hallinsel Morea wahrend des Mittelalters, Stuttgart, 1830.

18 - Fontaine Y. : Isidore de Seville et la culture classique dans l'espagne wisigothique, Paris, 1959.

19 - Gibbon : The Decline and Fall of the Roman Empire, London, 1976.

20 - Gregoire : L'origine et le nom des croites et des Serbes , dans (Byzantion) tome XVII , Bruxelle , 1944 - 1945 .

21 - Halphen L. ed. , Eginhard , la vie de charlemagne , Paris , 1923 .

22 - Hartmann : Italy under the Lombards , in C. Med. H. Vol II , ed. , Bury , 1976 .

23 - Hauptmann : Les Rapports des Byzantins avec les Slaves et les Avers Pendant la second moitié de vi ᵉ Siécle , dans (byzantion) tome IV , 1927 - 1928 .

24 - Haussing : A History of Byzantine Civilization , trans . from the German by Hussey , London , 1971 .

25 - Hoyet and Shodorow : Europe in the Middle Ages , Third Edition , U. S. A. , 1976 .

26 - Hussey Y. : The Byzantine World , London , 1955 .

27 - Johannis Biclarensis : Chronica , Chronica Minora , ed. by Th. Mommsen , Berlin , 1894 .

28 - John of Ephesus : Elcelesiastical History , translated from Syriac by Payne - Smith , Oxford , 1860 .

29 - The Illustrated Encyclopedia of Medieval Civilization , ed. Grabois , U. S. A. , 1980 .

30 - Isidore of Seville : Chronica Maiora , Patrologia Latina , LXXXIII .

31 - Lemerle : Invasions et Migration des Balkans , depuis L'epouque Romaine Jusqu'au VIII ε Siécle , Revue Historique , vol CCXI , 1954 .

32 - Lot : The End of the Ancient world and the Beginnings of the Middle Ages , London , 1931 .

33 - Manojlovic : Le peuple de Constantinople , dans (Byzantion) , tome II , Bruxelles , 1936 .

34 - Menander : Agathias Continuatus , fragments , in Historici Graeci Minores , edited by L. Dindorf , Leipzig , 1871 .

35 - Moss : The Formation of the East Roman Empire (330 717) in C. Med. H. vol IV , part I , ed. Hussey , Cambridge, 1966 .

: The Birth of the Middle Ages , Oxford , 1947 .

36 - Nicephori Patriarchae : Berviarium , ed. De Boor , Leipzig , 1880 .

37 - Obolensky D. : The Empire and its Northern Neighbours (565 - 1018) , in C. Med. H. , vol IV part I , ed . Hussey , Cambridge , 1966 .

38 - O'Callaghan Y. F. : A History of Medieval Spain , 1975 .

39 - Oman : The Dark Ages , London , 1908 .

40 - Ostrogorsky G. : History of the Byzantine State , English

Trans. by Hussey , Oxford , 1968 .

41 - Painter S. : A History of the Middle Ages , 284 - 1500 , London , 1979 .

42 - Paul the Deacon : History of the Lombards , trans. from latin by Foulke , ed. by peters , Penselvania press , 1974 .

43 - Pisidia : De expeditione Persica ,

: Bellum Avaricum .

: Heraclias .

ed. Bekker , C. S. H. B. , Bonnae , 1838 - 1839 .

44 - Rambaud A. : Etudes Sur L'histoire Byzantine , Paris , P. 1912.

45 - The Royal Annals , in (The Reign of Charlemagne) Ducuments on Carolingian Government and Administration , by H. R. loyn and Yohn Percival , 1975 .

46 - Runciman S. : The Byzantine Civilization . Seventh Impression , Great Britain , 1975 .

47 - Simocatta Th. : Historiae , ed , by De Bor , Leipzig , 1887 .

48 - Skylitzes G. : Excerpta Exbreviario Historiae , webri C. S. H. B. , Bonne , 1840 .

49 - Syncellus Th. , ed Sternbach , Analecta Avarica , Seorsum

Impressum ex tomo XXX , Dissertationum Philogicarum , 1900 .

50 - Theophaves : Chronographia , ed. de Boor , 2 vols , Leipzig , 1883 - 85 .

51 - Toynbeé. A. : Constantine Porphy\rogenitus and his world , London , 1973 .

52 - Vasiliev : History of the Byzantine Empire (324 - 11453) , 2 vols , wisconsin press , U. S. A.



المرأة في الغرب الأوربي في العصور الوسطى

المرأة

في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى

دكتورة
اسمت غنيم



دار المعارف

المحتويات

الصفحه



بسم الله الرحمن الرحـــــيم

يعتبر موضوع مركز المرأة فى الغرب الاوروبى فى العصور الوسطى مـــن الموضوعات المعقدة التى تحتاج لمعالجة موضوعية دقيقة، ذلك أنها لم تتمتع بمركز ثابت حددته الكنيسه أو القوانين أو العرف السائد ، وانما اخذت مكانتها تتغير وتتبدل من وقت لآخر تبعا لتغيير النظم والظروف فى المجتمع الغربى الوسيط .

وتعتبر هذه الدراسة عن مركز المرأة ووضعها فى المجتمع فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى ، أول دراسة من نوعها تظهر كبحث قائم بذاته باللغة العربية ، بل وفى اللغات الاجنبية لم يظهر الا عدد محدود للغاية من الكتب فى هذا الموضوع . وقد استلزمت دراسة هذا الموضوع الكثير من الجهد والوقت نظرا لاهمية الموضوع ودقته ، وقلة المصادر الخاصة به ، وتناثر المعلومات على شكل شذرات فى هذا الكتاب أو ذاك ، وتعدد اللغات التى كتبت بها هذه المعلومات من لاتينية إلى ايطالية إلى الانجليزية القديمة والفرنسية القديمة اللتين استعملتا فى الكتابة عن المرأة ، وخاصة بعض الابيات الشعرية التى قمـــت بترجمتها وساهمت فى خدمة موضوع البحث .

والبحث يعرض لوضع المرأه فى المجتمع الغربى الوسيط والنظريات التى تكونت عنها والتغيرات التى طرأت على مركزها خلال الحقب المختلفه فى العصور الوسطى ، ثم يتناول بالعرض حقوق المرأة وواجباتها كما اقرهـــا القانون والمجتمع ، ويعرض أيضا لفئة الراهبات وكل مايتعلق بحياة الراهبـة داخل الدير ، ثم يعرض لموضوع تعليم النساء فى العصور الوسطى، والملابس، والدور الذى لعبته المرأه الغربية فى الحياة العامة فى هذه الحقبة التاريخية .

وقد اختتمت هذا البحث بدراسة مقارنة بين مركز المرأة الغربية ومركز معاصرتها المرأة المسلمة .

ومن أهم المصادر التى أفادت فى هذا الموضوع مؤلفات علمين من أعلام النهضة الايطالية وهما دانتى اليجيرى (١) Dante Aligeieri وفرانسيسكو بترارك (٢) Francesco di petracco ودانتى هو صاحب الكوميديا الالهية الشهيرة Divina Commedia التى خلد فيها اسم حبيبته ، بياتريس أو بياتريتشى Beatrice أما بترارك فقد خلد هو الآخر حبيبته لورا Laura فى قصائده الشعرية التى نظمها باللغة الايطالية وفى مذكراته التى كتبها باللغة اللاتينية .

ومن المؤرخين المحدثين الذين اهتموا بالبحث فى موضوع المرأة فى الغرب الاوروبى فى العصور الوسطى المؤرخة الانجليزية ايلين بور Eleen power التى كان لعمق دراستها أن أصبحت مرجعا وحجة لاى دراسة فى هذا الموضوع .

وقد ارتكزت ايلين بور فى مصادرها على مادونته راهبات اديرة العصور الوسطى بالاضافة إلى التراث الذى تركه رجال الدين بالكنائس والكاتدرائيات العديدة المنتشرة فى جميع انحاء أوروبا .

وقد كان كل ماسبق معين لاينضب للحصول على قدر كبير من المادة العلمية عن المرأة فى الغرب الاوروبى فى العصور الوسطى ، شغلت بها ايلين

---

(١) يوجد ص ص (٢٧) ومابعدها من هذا البحث دراسة عن دانتى ومؤلفاته والدور الذى لعبته بياتريس فى حياته .

(٢) راجع نبذه عن حياة بترارك واعماله الادبية وعلاقته بلورا فى ص ص (٣٣) ومابعدها من هذا البحث .

بور الرأى العام فى أوروبا وفى الولايات المتحدة الامريكية ، عن طريـــق محاضراتها ومقالاتها العديدة التى كانت تلقيها فى جامعة كمبريدج بانجلترا ، أو فى الولايات المتحدة الامريكية ، أو فى الاذاعة عبر موجات الأثير .

وقد ظلت هذه الثروة التاريخية بدون نشر ، حتى قام بنشرها ــ بعد وفاة ايلين بور ــ العالم والمؤرخ بوستان M .M . postan فى كتاب ظهر باسم «نساء العصور الوسطى» The Medieval Women ونشرته جامعة كمبريدج وظهرت الطبعة الاولى للكتاب فى عام ١٩٧٥ ، ثم اعيد طبعه فى اعوام ١٩٧٦ ١٩٧٨ ، ١٩٧٩ ، ثم فى عام ١٩٨١ وهى الطبعة الاخيرة للكتاب التى اتيح لى الحصول عليها .

والكتاب يهتم بدراسة أحوال المرأة والدور الذى لعبته فى مختلف مجالات الحياة فى الغرب الاوروبى فى العصور الوسطى .

ولايلين بور كتب أخرى لم تقتصر على موضوع المرأة ، ولكن وردت بها اشارات عديدة تفيد الباحث فى هذا الموضوع ، وسيتم الاشارة إليها فى حواشى هذا البحث .

وبالاضافة لهذه المراجع السابقة ، هناك بعض الكتب التى وردت بهـــا اشارات سريعة عن موضوع المرأة الغربية فى العصور الوسطى واذكر منها على سبيل المثال كتاب المؤرخين كرامب Grump ,وجاكوب Jacob وعنوانـه «تراث العصور الوسطى» The Legacy of the Middle Ages الذى نشر فى اوكسفورد فى عام ١٩٢٦ .

وكذلك مؤلفات المؤرخين : بنتر painter ، وهويزنجا Huiznga كولتون Coulton وغيرهم من المؤرخين .

أما بالنسبة لمصادر البحث فى مركز المرأة المسلمه ، فان أهم مصدر هو القرآن الكريم ، وهو مصدر التشريع الاسلامى ، كذلك كتب التفسير وبعض المصادر الاسلامية لبعض المؤرخين مثل الطبرى ، والمسعودى ، وابن الاثير والجاحظ وغيرهم .

وبقدر مابذلت من جهد ووقت فى هذا البحث ، بقدر ماارجو أن أكون قد وفقت فى القاء بعض الضوء على المركز الذى كان للمرأة ، والدور الذى لعبته فى المجتمع الغربى فى العصور الوسطى .

والله الموفـــــــــق ،

إسمت غنيم

لوران

٧ أبريل ١٩٨٣ م

الفصل الأول

نظرة المجتمع الغربي للمرأة

فى المرحلة المبكرة من العصور الوسطى حيث سيطرت الكنيسه سيطرة تامة على المجتمع تكونت نظريات تنادى بان المرأة ماهى إلا اداة من ادوات الشيطان ، وهى المحرضة لآدم على المعصية والخطيئه ، وهى لذلك لاتستحق إلا الاحتقار والازدراء ، وهذه النظرية ظهرت فى تاريخ الكنيسه منذ وقت مبكر ويؤيد ذلك تلك العبارة التى ترجع إلى القديس اوجسطين (١) ، وآبـــــاء الكنيسة الأول ، الذين قالوا :

---

(١) هو اوريليوس اوجسطينوس Auriius Augustinus
ولد فى ٣٥٤ م فى شمال افريقية فى مدينة Tagaste (Munidia)
وتلقى دراسته فى مسقط رأسه وفى قرطاج . وابتداء من عام ٣٧٣ أخذ يدرس علم البيان وعكف على دراسة فلسفة اليونان القدامى فى التراجم اللاتينية لها ، وذهب إلى ايطاليا فى ٣٨٤ ثم عاد إلى افريقية فى العام التالى ، واصبح شماسا لمدينة هيبو Hippo التى تقع حاليا فى الجزائر .
ولاوجسطين مؤلفات عديدة تركت بصماتها الواضحة على العقلية الوسيطة ، ومن أهم مؤلفاته (مدينة الله) Decivitate Dei وهذا الكتاب فاق أثره أى كتاب آخر فى سياسة العصور الوسطى وفيه رسم القديس اوجسطين الحدود بين السلطتين العلمانية والدينية ونادى بان السلطه العلمانية قامت على اساس من الشر لانها من صنع البشر لذلك يجب ان تخضع لسلطة الكنيسه وهى الهيئة التى تمثل مدينة الله وتعمل على اقرار رسالته . والجدير بالذكر انه قام خلاف لقرون طويله حول المقصود بالمدينتين اللتين ذكرهـا القديس اوجسطين فى كتابه ، وماهو المقصود بها ، وقد تغلبت وجهة النظر القائلة بان المقصود بها مدينة الانسان ويعنى بها العالم الدينوى الذى نعيش فيه ومدينة الله والمقصود بها السماء .
وللقديس اوجسطين مؤلفات اخرى منها (اعترافات) التى تعتبر اول ترجمة يدونهـا شخص عن نفسه فى تاريخ الادب .
للمزيد عن القديس اوجسطين راجع :
Batiffol (P.): A Monument to st. Augustine, 1930.
Ullmann(w) : A History of political thought : The Middle Ages 1968
Thompson : The Middle Ages, London, 1931, P. voL I, pp 413 - 414
جوزيف نسيم : نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ، الطبعة الاولى ، ١٩٧١ صص ٢٩ - ٣٠

«المرأة بوابة الشيطان ، وطريق الشر ، ولدغة الحيه ، وفى كلمة موجزة المرأة موضوع خطير » .

ليس ذلك فحسب بل أن اباء الكنيسه استكثروا أن تكون للمرأة روح علوية فبحثوا فى ذلك واوشكوا أن يلحقوها بزمرة الحيوان الذى لا روح له بعد فناء جسده . (١)

هذه النظرية جعلت الكنيسه تطالب رجالها بعدم الزواج على اساس أن المرأة عامل من عوامل الغواية ، ولما كان رجال الدين الذين نادوا بأخذ التنسك مثلا أعلى للحياة هم الطبقة المثقفة والذين لهم صوت مسموع فى المجتمع خلال قرون عديدة لذلك كان لابد أن تكون النظرية التى تكونت عن المرأة تنادى بأنها شئ ناقص وشرير . وقد عبرت احدى سيدات هذا العصر عن ذلك بقولها :

«فى الواقع لن يتورع أى رجل من رجال الدين عن وصم المرأة بأية نقيصه آلا إذا كان يكتب عن امرأة من القديسات وفيما عدا ذلك لن يكتب خيرا عن نساء اخريات .»

وقد وجدت على جدار احدى القلاع مقطوعه شعريه تصور المرارة والأسى اللذين تشعر بها المرأة ، وتقول بعض ابياتها :

لستأدرى اذاظل آدم يمضى حياتــه	يحفر ويحرث ولا يخطو للامــــام
وظلت حواء ، تغزل ثم تنســـج	لتكسو آدم من العـــــــــراء
فأين آدم اللطيـــف الـرقيــق	الـذى يحمى المظلـومـه حــواء ؟

(I) Heer : The Medieval World, Europe (II00 - 1350) , London 1962, PP. 264 - 265 ..

ومنذ القرن الثامن الميلادى بدأت بذور النظام الاقطاعى تظهر فى غرب أوروبا، وفى القرن التاسع الميلادى بلغ هذا النظام مرحله حاسمه من مراحل نموه وتطوره ، وارتبط هذا النظام بالحياة الاوروبية فى العصور الوسطى ، سواء من النواحى السياسية أو الاقتصادية أو الإجتماعية ، بل والدينية أيضا.(١) ولم يتغير مركز المرأة كثيرا فى ظل النظام الاقطاعى اذ اعتمد هذا النظام فى المرتبه الاولى على الحرب والقتال ، وكان القتال أهم واجب على الفصل ان يقدمه لسيدة الاقطاعى، وطالما ان المرأة لم تكن تستطيع ان تمارس القتال، لذا فان مركزها فى العرف الاقطاعى كان ثانويا بحتا ، ومهما بلغت من العمر فهى قاصر ولابد ان تكون تحت وصاية رجل ، والدها فى البداية ، ثم زوجها بعد ذلك وفى حالة وفاته ، تصبح تحت وصاية السيد الاقطاعى أو أكبر ابنائها . (٢)

على انه منذ القرن الحادى عشر الميلادى، وحتى نهاية العصور الوسطى فى القرن الخامس عشر، أخذ مركز المرأة يحتل مكانة ممتازة فى الناحيتين الدينية والدنيوية على حد سواء . واذا بحثنا عن المسئول عن هذا التغيير فى مركز المرأة فى هذه الحقبة التاريخية ، وجدنا ان مسئولية هذا التغيير تقع على عاتق كل من الكنيسة ونظام الفروسية .

ذلك ان سمو المرأة والتفانى فى احترامها وتبجيلها ، انعقد على شخصية العذراء مريم فى السماء ، وشخصية المرأة على الارض . بمعنى ان التفانى فى

(I) Eyre : European civilisation, voI 3 (The Midfle Ages), London, 1935, P . 100 .

Hoyt & Chodorom : Europe in the Middle Ages, Third Edition U . S . A . I976, PP . 210 - 250 .

(2) painter : Mistory of the Middle Ages, 284 - 1500, great Britain, 1979, P . 121 .

احترام المرأة الذى ابتدعه نظام الفروسية ، كان الشطر الدنيوى لعبادة العذراء تلك العبادة التى كانت أقوى ظاهرة فى مسيحية العصور الوسطى حتى بلغت العذراء أسمى مكانه لها فى القرن الحادى عشر الميلادى وظلت كذلك حتى نهاية العصور الوسطى .

كذلك كان الحال بالنسبة لنظام الفروسية الذى ظل حتى القرن الخامس عشر يعد بعد الدين أقوى المفاهيم الخلقية جميعا التى تسلطت على العقول والأفئدة ، وكان الناس ينظرون إلى الفروسية على انها تاج على مفرق النظام الاجتماعى باجمعه . (١)

وقد سارت عبادة العذراء ، وتقديس الفرسان للمرأة جنبا إلى جنب ، وتجاوب احدهما مع الآخر تجاوبا مستمرا ، وكانت عبادة العذراء واحترام المرأة هما المثل الأعلى للفروسية .

والشائع ان عصر الفروسية يعتبر العصر الذهبى للمرأة فى غرب أوروبا وان النساء تمتعن فيه بمكانة رفيعة سامية حتى قيل « ان الفارس نصير الله والمرأة » . وتظهر فكرة تبجيل الفرسان للمرأة واضحة فى اشعار التروبادور (٢) التى

---

(١) هويز نجا : اضمحلال العصور الوسطى ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ١٩٧٨، ص ٦٠ .

(٢) الغالب أن هذا االفظ تحريفا لتعبير (طرب دور) أى (دور طرب) باللغة العربية، مع تقديم الصفة على الموصوف كما هو الحال فى معظم اللغات الاوربية نظرا لتأثر هذا الشعر بالموشحات الاندلسية العربية التى تمتاز بخفة اوزانها ورقتها وخيالها فضلا عن موضوعاتها التى تدور حول الغزل العفيف والحب العذرى ، والمعروف ان هذا الشعر نشأ فى البداية فى جنوب فرنسا ، فى اقليم بروفنسال على وجه التحديد ، ومن أشهر شعراء التروبادور وليم التاسع اميرا كويتين (١٠٨٧ - ١١٢٧ م) الذى عرف بالمرح وحب الموسيقى والغناء وسرعان ازدادت اعداد شعراء التروبادور واخذوا يتجولون من مكان لآخر وقد حمل كل منهم قيثارته ليغنى اشعاره على انغامها وأمتلأ

تبين كيف كان جمال المرأة ورقتها وعقلها تستهوى قلب الرجل ، وان المحب لم يستهدف شيئا سوى ادخال السعادة على قلب محبوبته ، فلا يأبه بطعام أو شراب ولا يتأثر بحر أو برد فى سبيل الفوز بابتسامة رقيقة منها .

واذا استعرضنا بعض العبارات التى قيلت عن المرأة فى ذلك العصر ادركنا مدى المكانة التى تبوأتها المرأة آنذاك .

قال القديس برناردينو (١٣٨٠ ـ ١٤٤٥ م) : « انه شرف كبير ان يكون الانسان امرأة ، لان عدد النساء التى تخلص رواحهن إلى الجنة يزيـد على عدد الرجال » .

وقال قديس آخر : « لو لم تكن المرأة خيرة مريحه لما خلقها ربنا الـه السموات ولما دعاها (عون الرجل) بل لكان دعاها (خيرة الرجـل) » .

وقال ثالث : « ان الرب لم يخلق المرأة من رأس آدم لانه لم يقصد إلى ان يجعل منها حاكمة له ، ولم يخلقها من قدمه لانه لم يقصد إلى ان يجعلها عبدة لـه وانما خلقها من ضلعه على وجه التحديد لانه اراد ان يجعلها رفيقة وشريكة له»

وجاء فى أحد المخطوطات الدينية التى ترجع لهذه الفترة من العصور الوسطى والمحفوظه حاليا بمكتبة جامعة كمبريدج مايلى :

=بهم بلاط الملوك مثل هنرى الثانى ملك انجلترا وابنه ريتشارد قلب الأسد ولويس السابع ملك فرنسا وفردريك بربروسا امبراطور المانيا ، وقد ترجم بعض الأدباء فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر قصيدة (فن الحب) Ams Amotooria للشاعر اللاتينى أوفيد ovid (٤٣ ق . م – ١٦ م) وهذه القصيدة أصبحت بمثابة انجيل شعراء التروبادور .

انظر عن ذلك :

Paris : Esquisse Historique de laliterature francaise au Moyen Age, paris, 1907, P. I62.

Lanson : Histoire de Ia Literature francaise, paris, 1916, PP. 86 - 87.

« ان المرأة تفضل الرجل من حيث المادة ، فآدم خلق من طين على حين خلقت حواء من ضلع آدم ، وهى تفضله من حيث المكان فآدم خلق خارج الجنة ، على حين خلقت حواء داخلها . ثم ان المرأة تفضل الرجل من حيث مقدرتها على الحمل ، فالمرأة هى التى حملت بالمسيح وهذا أمر يستحيل على الرجل ، والمرأة تفضل الرجل من حيث الرؤيا فالمسيح تبدى بعد البعث لأمرأة هى مريم المجدليه ، واما من حيث المنزله ، فالمرأة ورمزها مريم تحتل مكان الصدارة بين المترنمين من الملائكه فى السموات . (١)

وكان الاخلاص للمرأة واحد من أهم واجبات الفارس ، فكان يجب عليه ان يبذل كل ما يستطيع من جهد لمساعدتها ، وخاصة اذا كانت فى محنة من أى نوع ، وكانت هذه الروح هى التى دفعت السيرجون اوف هينولت Sir John of Hainault لكى يصبح المدافع عن الملكة ايزابيل Isabel زوجة الملك ادوارد الثانى EdwardII (١٣٠٧ — ١٣٢٧ م) التى كان الملك يسىء معاملتها .

وكانت المرأة من وجهة نظر الفارس،هى الاكثر كما لا بين جميع المخلوقات ، وكان يسر سرورا بالغا اذا نفذ جميع طلباتها مهما كانت بعيدة المنال . (٢)

وكان الفارس يختار واحدة من الفتيات أو السيدات ليحصها بحبه ، ولذلك فهو ينخرط فى خدمتها من أجل ان ينال حبها ، أو بمعنى آخر البطل الذى يعمل ابتغاء الحب وهنا تتحول مشاعرة الى الولع بالتضحية بالذات

---

(1) Grump a Jacob : The Legacy of the Middle Ages, oxford 1926, P. 402.

(2) Abram : Chivalry, in C . M . H . ed. Tanmer, canbridge, 1968, vol VI , P . 804 .

والرغبة فى اظهار شجاعته وفى اقتحام الاخطار واستعراض قوته ومكـابـدة العناء ونزف الدماء امام حبيبة مالكة الفؤاد .

ولكى يكسب رضاها ويرفع سمعتها كان دائما يرسل يتحدى الفرسان الآخرين من اجلها ، كذلك فأنه كان دائم البحث عن المغامرات سواء فى ميدان الحرب أو فى المبارزات التى تتم بين الفرسان فى الحلبه Lists وتعرف باسم منازلات البرجاس Tournaments وكان من العادات السائدة فى منازلات البرجاس هذه ان يحمل الفارس خمار محبوبته أوردائها ، وكانت السيدات اللاتى يشهدن النزال يخلعن حليهن قطعه بعد قطعة ليقذفن بها إلى الفرسان المشتركين فى الحومه ، حتى اذا ماانتهى النزال اذا بهن عاريات الرؤوس مجردات من الاكمام .

وكان الفارس يحاول جاهدا ان يكسب شعور حبيبته باصرار ومثابرة تجعل من المستحيل عليها ان تقاومه حتى لوكانت متزوجة ، ونسوق هنا فكرة قصة على شكل قصيدة ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى ، عنوانهـا « عن الفرسان الثلاثة والقميص» Des tre s chevaliers etde la chemise ومضمونها ان ثلاثة من الفرسان كانوا يتنافسون على حب سيدة متزوجـة من أحد النبلاء ، وكان الثلاثة يعملون فى خدمتها ابتغاء الحب ، وكل منهم يحاول ان يظهر ولاءه واخلاصه بشتى الطرق والوسائل ولكى تعرف السيدة أيهم أكثر حبا لها وتضحية من أجلها أرسلت قميصها اليهم حتى يرتديه أحدهم فى منازلة البرجاس التى سيعقدها زوجها ، بدلا من درعه وبغير أى دروع تحته . فاعتذر الفارسان الاول والثانى ، أما الفارس الثالث وهو رجل فقـير فانه قبل واخذ القميص فى شغف بالغ ، ونزل إلى حومة البرجاس مرتديـا ذلك القميص بدون درع يقيه كما اشترطت السيدة ، فاصيب بجرح غائـر

وتمزق القميص وتضرج بدمه . وعندئذ أدرك القوم مدى شجاعته الخارقة ومنح الجائزة ، وأدركت السيدة مدى حبه لها ومنحته فؤادها .

وقد طلب ذلك الفارس من السيدة ان ترتدى نفس القميص المدرج بدمائه فوق ثوبها اثناء المأدبة التى يختتم بها الحفل ، فأخذت القميص وضمته إلى صدرها وخرجت إلى الحضور وهى ترتديه ، ولامها غالبية من حضر الحفل ، وصعق زوجها ووقع فى خزى شديد .ويختتم المنشد قصيدته بتوجيه هذا السؤال ، أى الحبيبين اعظم تضحيه من أجل الآخر ؟ (١)

وهكذا دفع الحب ذلك الفارس إلى التضحية بحياته من أجل حبيبته ، لذلك كان حب الفارس يصنع منه بطلا شديد البأس فى أعمال الحرب ، لأنه كان يبعد عنه الخوف ، ويجعله يغفل عن الشعور بالألم . ويترجم أحد شعراء ذلك العصر هذا المعنى فى هذه الابيات التى يقولها على لسان أحد الفرسان .

عندما نجلس فى الحانه نحتسى الخمور القويـة
وتمر السيدات وتنظـرن الينـا
باعناقهن البيضاء وصداراتهن الضيقة المحبكـه
وتلك الاعين اللامعـه المتألقـه بالجمال الباسم
تحرضنا الطبيعة ان تكـون لنـا قلوب تشتهـى
وعندئذ كنا نستطيع التغلب على يومونت واجولان
ويتغلب الآخرون على اوليفييه ورولان . (٢)

وبدأ يظهر فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الميلادى فى اماكن

(1) Abram : chevalry, pp . 810 - 812

هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ، ترجمة عبد العزيز جاويد ص ص ٨٤ — ٨٥ .

(٢) هذه كلها اسماء لأبطال عرفوا بالشجاعة الفائقة والتضحية بالذات .

كثيرة فى الغرب الاوروبى مايعرف باسم (محاكم الحب) The Courts of Love وهى عبارة عن مجلس من السيدات اللاتى يجبن على أسئلة عن (الحب فى الفروسية) Chivalric Love وكانت هذه الاسئلة ترفع اليهن عن طريق ثلاثة اشخاص ينوبون عن الفرسان المحبين الذين تظل اسماءهم سرا وكانت اولئك السيدات تصدرن فتاوى تحكم (فن الحب) The Art of Love وكانت هذه الفتاوى والاحكام تخضع للاسس الهامة لفن الحب الموجوده فى اشعار التروبادور ، وكتاب (فن الحب الصادق) De Arte Honeste Amandi الذى كتبه اندرياس كابلانوس Andıaes Capellanus الذى عاش فى فرنسا فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر . (١)

والكتاب عبارة عن رسالة بحثية عن فن الحب تظهر حياة واسلوب مجتمع الفروسية فى فرنسا فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، وقد تأثر فى كتابته بكتاب الشاعر اللاتينى أوفيد عن (فن الحب) Ars Amotoria ، وكذلك تأثر اندرياس باشعار الحب التى كتبها الشعراء المسلمون فى اسبانيا ، وقد أجرى اندرياس فى كتابه هذا مانطلق عليه فى الوقت الحاضر (البحث الميدانى) اذ اختبر موقف مختلف طبقات المجتمع فى فرنسا فى عصرة تجاه الحب ، وقارن بين الشهوة ، ومظاهر الحب الافلاطونى . (٢)

وقد ظهرت محاكم الحب هذه أول ماظهرت فى جنوب فرنسا وخاصه فى دوقية اكويتين ومنها انتقلت إلى شامبنى Champagne ثم إلى باقى انحـاء أوروبا .

---

(1) Abram : chivarly : 805 .

(2) parry (Y) : The Artof Courtly Love by Andreas capellanus, 1941, p . 10 FF .

وانظر الصورتين ١ ، ٢ كظهرين من مظاهر الحب فى عصر الفروسية .

وقد اخذ الافتاء فى شئون الحب يستحوذ على حيز ضخم من احاديث القصور حتى رفع إلى حد الاشكال الادبية فكانت السيدات والنبلاء والشعراء يعقدون الجلسات للاجابة عن مجموعة من الاسئلة عن « تباريح الحب ومخاطرة » ويجرى بحث كل قصة غرام وفق قواعد صارمه . وعلى سبيل المثال يكـــون السؤال هكذا :

ـ ايها السيد العاشق أى الامرين تفضل ، ان يقول الناس قالة السوء عن حبيبتك ثم تجدها طيبة قويمه أم ان تحسن سيرتها على افواههم ثم ينكشف لك انها سيئة الطويه ؟ وكان التصور السليم والصائب للشرف يحتم على الفارس أن يجيب على النحو التالى :

ـ سيدتى انى لأفضل ان تحسن سيرتها على أفواههم وأن أجدها سيئة الطويـــه .

وسؤال آخر مثل : هل تخون العهد سيده أهملها حبيبها ان هى اختارت آخر ؟

وسؤال ثالث يقول : هل يصح أن يعمل فارس حُرم من كل أمل فى لقاء حبيبته التى يحبسها زوج غيور إلى البحث عن حبيبة اخرى ؟ وهكذا (١)

وكانت للالوان والزهور والخمارات والاشرطة والخواتم وجميع الجواهر والهدايا ، وظائفها الخاصة كرمـوز للحب ، وكـــان المعنى الرمزى للـــونين الازرق والاخضر ملحوظا وعجيبا إلى حد جعلهمـــا لايصلحان للارتداء العادى ، اذ انهما كانا اللونين الخصوصيين للحب ، فكان الازرق يعنى الوفاء والاخضر يعنى العواطف والاحاسيس الغراميـــة .

وتقول اغنية من اغانى القرن الخامس عشر :

ستضطر إلى ارتداء الاخضـــــر

فهـــــــــــوزى العشــــــــاق

(١) هويزنجا : اضمحلال العصور الوسطى ، ص ١٢١ .

ويقول شاعر من نفس القرن الخامس عشر عن عشاق أحد ى السيدات:

يـرتـدى بعضهم مـن أجلها اللون الاخضـر
ويـرتـدى آخـــر الازرق
فـأمـا من اشتدت بـه الـرغبـه فيهـا
بسبب شجـاه المبرح فـيرتـدى السـواد

وقد كابدت الكنائس تدنيسا شديدا بسبب الخدمات الغرامية ، اذ انتشرت عادة جعل الكنيسه ملتقى للشبان والشابات ، وتقول الاديبه الفرنسية كريستين دى بيزان (١) Chrestine de pisan التى عاشت فى أواخر القرن الرابع عشر واوائل القرن الخامس عشر على لسان أحد المحبين :

ان كنت أكثر من الـتردد على الكنيسـه
فـا ذلك الا لـرؤيـة الحلـوة الحسناء
وهى نـاضرة كـوردة تفتحت مـن توهـا

وكثيرا ما كان القارس يقدم إلى محبوبته (قبلـه السلام) فى القداس Pax ويقول أحد الشعراء مصورا ذلك :

منحتـنى قبلـة السلام بـرقـة وحنـان
بـين عمـودين مـن الكنيسـة
وكنت حقـا فى حـاجـة اليهـا
وذلك لان قلـبى المولـه كان يضطـرب
اذ كـان علينـا ان نفـترق سريعـا

وحتى الحج إلى الكنائس البعيدة والمزارات لم يسلم هو الآخر من التدنيس. وقد استخدمت العاب كثيرة للدلاله على رقة العاطفة كلعبة (الملك الذى

---

(١) يوحد ص ص(٨٧) وما بعدها من هذا البحث نبذة عن كريستين دى بيزان واعمالها الا دبية .

لا يكذب) و (او كازيونات الحب) و (العاب للبيع) و (قلعة الحب) .

وكانت لعبة (قلعة الحب) تتألف من مجموعة من الالغاز المجازية وتدور على النحو التالى :

– عن قلعة الحب اسألك فخبرنى ماهو الاساس الأول ؟

– ان تحب بولاء .

– والآن اذكر الحائط الرئيسى الذى يجعلها بديعه وقوية ومكينه !

– ان تدارى بحكمه .

– خبرنى ماهى فتحات الرمى وما النوافذ والقذائف ؟

– النظرات الساحره .

وهكذا يدور الحوار بين الطرفين .

والواقع ان (قلعة الحب) لم تكن شيئا خياليا ، وانما كانت حقيقة واقعه وقد بناها بالفعل البيزود افيور Albizze dafiure رئيس جمهورية بادوا Podesta of padua فى ايطاليا . وكان البيزو قد تولى حكم بادوا فى ١٢١٤ م. وكان رجلا عاقلا حصيفا ، دمث الاخلاق ، مهذب ، كريم ، وبرغم كل هذه الصفات التى امتاز بها ، الا أنه كان مولعا بالمرح ، وفى خلال سنوات حكمه اقام عند Trevise قلعه للتسليه والمرح اطلق عليها اسم «قلعة الحب» (١) The castle of Love وقد حصنت هذه القلعه بالفراء والسندل (٢) والساميت (٣) ومختلف أنواع الاقمشه الثمينه . وكان يقوم بالدفاع عن هذه القلعة اثنتى عشر سيدة من أجمل وأعرق النساء فى بادوا

---

(١) انظر الصوره رقم (٣) لقلعة الحب .

(٢) السندل هو قماش حريرى رقيق .

(٣) الساميت هو نسيج حريرى تخالطه خيوط ذهبية وفضية .

ومعهن وصيفاتهن . وكانت اولئك السيدات يحلين رؤسهن بتيجان من الذهب مرصعة بالاحجار الكريمه كالزمرد والتوباز واللؤلؤ ومختلف انواع الزينات التى تدافعن بها عن انفسهن ضد المهاجمين .

وكان يقام مهرجان سنوى لهذه القلعه فيأتى الفرسان من البندقيه وهم يحملون راية القديس مرقص ويتنافسون مع اهالى بادوا من اجل اقتحام القلعه . ويأخذ الجميع فى قذف السيدات المدافعات عن القلعه بمختلف انواع الاسلحه الهجومية ، التى استبدلوها بحبات التفاح والكمثرى والسفرجل والكعك والبندق ، ومختلف أنواع الزهور كالزنبق والبنفسج ، والعنبر والكافور وغيرها من الزهور الجميلة .

ويشتد الصخب والمرح بين المتنافسين ، وأول من يقتحم القلعه من الفرسان يكون له شرف حكم السيدات اللاتى فى القلعه وجميع من بها من الفرسان . (١)

ولعل اكبر تعظيم وتبجيل حصلت عليه المرأة فى غرب أوروبا من جانب الكتاب والادباء فى العصور الوسطى ، تلك المكانه التى رفعها اليها كل من دانتى الليجيرى Dante Aliglieri باختياره لبياتريس Beatrice أو بياتريتش لتقوم بالدور الذى اسنده اليها فى الكوميديا الالهيه Divina Commedia وبترارك Petrarch فى قصائده الشعرية Canzoniere التى خلد فيها اسم حبيبته لورا .

وقد ولد دانتى فى فلورنسا فى منتصف مايو ١٢٦٥م . من اسرة نبيله وماتت امه وهو طفل صغير ، ثم توفى والده وهو فى سن الثلثة عشر ،

(1) Coulton : life in the Middle Ages, cambridge, 1967, pp . 47 - 48 .

وتعرف دانتى منذ طفولته على التراث اللاتينى القديم ، وتلقى علومه فى بادوا وبولونيا وباريس . ودرس الفلك ، الرياضيات ، الفلسفه ، المنطلق ، وعلوم الدين ، كذلك قرأ الشعر الذى وجد فى ايطاليا فى ذلك الوقت والذى كتب بالعامية الايطاليه

وكان دانتى معتزا بنفسه يميل إلى العزله والسكون والبعد عن الناس ، وقد شارك فى الحياة السياسية فى ايطاليا ، وشغل بعض المناصب السياسية الهامه بها ، وكان اشتراكه فى الحياة السياسية سببا فى نفيه من فلورنسا واستقراره فى رافنا من سنة ١٣١٣ وحتى توفى بالملاريا سنة ١٣٢١ م .

وقد كتب دانتى باللغة اللاتينية رسالة «الملكية» De Monarchia قرر فيها ان الحروب هى آفة التقدم وان السلام العالمى يجب ان يكون هدف الحكام كما وضع باللغه الايطالية كتابا اسمه «الوليمه» De conivivio عالج فيه موضوعات مختلفة فى السياسه والحكمه والاخلاق والحب ، وكتابا آخر بالايطالية كذلك سمى «العاميه الفصحى» De vulgaris Eloquenta
كذلك نظم دانتى بالايطالية الكثير من القصائد العاطفية جعلته من اعلام الشعر والادب فى نظر معاصريه ، واطلق على هذه القصائد اسم «ديوان القصائد» Canzoniere ومنها قصيدته «الحياة الجديدة» Vita Nouva التى خلد فيها اسم حبيبته بياتريس .

على أن أشهر أعمال دانتى هى الكوميديا الإلهية التى ظل دانتى يكتبها على مدى ثمان عشرة سنة ، والتى كان من أهم أسباب كتابته لها هو تمجيد بياتريس وتخليدها . وهى موجودة فى الكوميديا الإلهية بصور مختلفة ، فهى تارة مستترة ، وتارة ظاهرة ، وهى تمديد المساعدة لدانتى بشخصها حينا

وعن طريق الآخرين فى أحيان أخرى . وتظهر مرة كأنها بشر ، ومرة أخرى كأنها ملاك أو نور سماوى يقود دانتى إلى رحاب الله .

وبياتريس هى حب دانتى الوحيد – رغم معرفته لنساء عديدات بعدها – وقد عاشت فى فلورنسا فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى ، ووالدها هو أحد وجهاء فلورنسا ويدعى فلولكوبورتينارى . وقد أحبها دانتى حبا عميقا ، لكنها لم تبادله شعوره وتزوجت من أحد الأثرياء ويدعى سيمون دى باردى ، لكن الأجل لم يمتد بها طويلا فماتت فى شرخ الصبا ، وحزن دانتى لوفاتها حزنا كبيرا ، وصارت فلورنسا بعدها من وجهة نظره مدينة ثكلى ، وبكت عليها الشمس والنجوم وزلزلت الأرض وأكتست الطبيعة بالسواد .

وقد عكف دانتى بعد موتها على الدرس والقراءة للعزاء والتسلية وتحولت بياتريس فى نفسه وتجلت إلى تلك الصورة التى سجلها فى الكوميديا الإلهية فهى عنده ربة الفضائل وهى توحى إليه بشعلة من الرحمة والمحبة تجعله يصفح عن كل من أساء إليه . وهى تبذل فى سبيله كل مافى وسعها لكى تخلصه من أدران الدنيا وتسمو به إلى عالم الخلود .

وبياتريس عند دانتى هى فتاة وأمرأة . وفكر ورمز فى آن واحد ، فهى أمرأة بصفاتها الأنثوية التى أستطاع دانتى أن يقدم لنا من صورتها شيئا محدودا فلونها يشبه لون اللؤلؤ وعيناها خضراوتان ٤ وهى ترتدى اللونين الأخضر والأبيض .

ولاشك أن دانتى قد تأثر برمزية الألوان السائدة فى ذلك الوقت من العصور الوسطى فأختار لبياتريس اللون الأخضر بالذات لما يرمز إليه من

العواطف والأحاسيس الغرامية كما سبق أن أشرنا إلى ذلك ، أما الأبيض فهو رمز الطهر والبراءة .

أما الصورة الرمزية لبياتريس عند دانتى فهى مستمدة من أصول سابقة ولكنها قريبة العهد بالعصر الذى عاش فيه . فهى متأثرة بصورة المرأة عند شعراء التروبادور وفنهم الغنائى الموسيقى الراقص . فأحد هؤلاء الشعراء وهو جيوم الأكويتانى أخذ حبه فى أشعاره ينمو ويتشكل فى صورة حب روحى نبيل بلغ حد التبجيل والتقديس والعبادة . وشاعر آخر من شعراء التروبادور هو اندرياس كابلانوس — الذى سبق أن أشرنا إليه — فى كتابه عن (فن الحب)يعبر عن مضمون هذا الحب النبيل الذى من شأنه أن يدفع الفارس النبيل إلى التحلى بالفضائل والحرص على الصدق والوفاء والأخلاص والشهامة والعفة والسمو بالنفس إلى أرفع المعانى ، وهناك أيضا اليانور الأكويتانية (١) التى تعمل على تعليم النساء كيف يأسرن قلوب الرجال ، وكيف يقمن بتعليمهم

---

(١) ELeanor, Aleonor, Elienor, Eonor .

اليانوراوف كوتين هى ابنة ويليام العاشر آخر دوقلاكويتين WiLLiam X وبعد وفاة والدها انتقلت إلى بلاط الملك لويس السادس (١١٠٨ — ١١٣٧) الذى تولى رعايتها وتزوجت من لويس السابع فى ١١٣٧ ، واصبحت ملكة فرنسا ، وصحبته فى الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ — ١١٤٩) واشتد الخلاف بينها اثناء وجودهما بالشرق ، وانتهى الأمر بأعلان انفصالهما وفسخ زواجهما فى مجمع Beaugency فى ١١٥٢ ، وعادت اليانور إلى بلاط بواتييه Poitiers ثم تزوجت من هنرى الثانى ملك انجلترا (١١٥٤ — ١١٨٩) وتدخلت فى شئون الحكم وشجعت ابنائها على الثورة ضد والدهم الملك هنرى .

وعرف عن اليانور حبها الشديد وشغفها بالأدب والمجادلات الأدبية وجمعت فى بلاطها الشعراءو الفنانين واسبغت عليهم حمايتها ، وبعدوفاتهادفنت فى مقبرة Fonrcvanlt بجوار زوجها هنرى الثانى وابنها الاثير لديها ريتشارد قلب الأسد. للمزيد عن اليانور راجع :

kelly (A) : Alienorof A quitaine, London, 1952 .

وتهذيبهم وقيادتهم، وبذلك تكون قد أسهمت فى ظهور شخصية بياترس .

وبياتريس فى معناها الرمزى مستمدة كذلك من شخصية العذراء مريم والدة السيد المسيح ، والتى أصبحت موضوعا للتقديس والعبادة منذ القرن الحادى عشر كما سبق أن أوضحنا ذلك .

وفى بدء الجزء الأول من الكوميديا الإلهية وهو (الجحيم) يوضح دانتى كيف ضل طريقه وسط الغابه المظلمة ، وكيف هرعت بياتريس من عليائها وجاءت إلى فرجيليوس (١) باكيــة وحملته على أن يبادر إلى تخليص دانتى مما تعرض له من المخاطر وسارع ،فرجيليوس إلى أنقاذ دانتى الذى أستعان باسم بياتريس لكى يمده بالقوة التى تمكنه من متابعة رحلته الشاقة خلال (الجحيم) وأغلب (المطهر) وهو الجزء الثانى من الكوميديا الإلهية،أما الجزء الثالث وهو (الفردوس) فقد ظهرت بياتريس لدانتى فى موكب عظيم يجمع بين المعانى الواقعية والمثالية والإلهية فى آن واحد .

وفى الفردوس تحتفظ بياتريس بخصائصها الدنيوية والإلهية على السواء ، فهى تصعد بدانتى صوب الأعالى وهى تحنو عليه وتداعبه فى رفق وتسخر منه فى رقة وتعلمه وترشده وتدفعه إلى المزيد من الدهشة والعجب وهى تبعث من عينيها نورا يكسبه القدرة على رؤية الله الواحد الخالق . وفى أثناء ذلك لاتنسى بياتريس شئون الأرض فتتناولها من آن لآخر على سبيل السخرية أو العظة .

---

(١) بابليوس فرجيليوس Publius Virgilius ولد فى سنة ٧٠ ق . م . بالقرب من مدينة مانتوا فى شمال ايطاليا ، وقد انخرط فى حاشية الامبراطور اوجسطس (٢٧ق . م – ١٤م) . وكتب قصائد عديدة فى مدحه ، ويعتبر فرجيليوس من اشهر الشعراء اللاتين ، ومن أهم اعماله الملحمه الكبرى Aeneid ، وتــوف فرجيليوس فى سنة ١٩ ق . م . ، للمزيد عنه راجع :

Burgh : The Lgacy of the Ancient world, London, 1955, Vol I, PP. 303, 306, 313 - 314

وفى الأنشودة الثلاثين فى (الأمبريوم) أو سماءالسموات، أخذدانتى برؤية النور الألهى وقد أحاطت به حلقات الملائكة وحينما تعذرت عليه الرؤية أتجه بعينيه إلى بياتريس وعبر عن عجزه عن وصف جمالها بقوله :

«ولو أن كل ماقيل فيها حتى هذه الآونة قد جمع فى أمد وحه واحده ، لقصر عن الوفاء بما ينبغى لهذه المهمة ، ولايتجاوز الجمال الذى شاهدته ، أدراكنا فحسب ، بل أنى أعتقد حقا أن صانعه هو وحده الذى ينعم به كله إذ أن تذكرى لبسمتها العذبة يسلبنى قواى المدركة كأنه أثر الشمس عـــلى العينين اللتين يشتد بها أضطرابها » .

أما فى الأنشودة الثالثة والعشرين من الفردوس فيقول دانتى عن بياتريس :

كعصفور بين ماهو إليه حبيب من أوراق الأشجار
يحتضن عش صغاره الأحباب فى الليل الذى يحجب عنا الأشياء
ولكى يجتلى الوجوه التى إليها يتوق ويجمع الغـــــذاء
الذى به يطعمها وهو مايستعذب فى سبيله عناء السعـــى
اذ به يتعجل الزمن فوق الغصن الممتد ويرتقـــــــب
الشمس بمحبه عارمة وينظر متلهفا على بزوغ الفجـــر
هكذا وقفت سيدتى (بياتريس) ممشوقة القوام منتبهـــة
وقد أتجهت إلى الناحية التى بدت من تحتها الشمس أقل سرعة

....

وبدا لى أن وجهها قد توهج كله وأمتلأت عيناهــــا
بالنشوة حتى لم يكن بد من أن أتجاوز ذلك دون أن أعبر عنه

....

ايه بياتريس ، يامرشدتى اللطيفة الحبيبـــــــة

لقد قالت لى : «أن مايبهرك لهو فضـــــــــــل
ليس لاحد أن يدرأ منـه نفســــــــــــــــ».

هذه هى بياتريس عند دانتى ، هى الحب الأول وهى الحب الأخير ، هى الماضى وهى الحاضر ، وهى المستقبل ، هى أمرأة حية ، وهى قديسة مسيحية ، وهى رمزا للصورة المثلى ، وهى وسيطة بين الانسان والله خالقه ، وقد تجمع هذا كله فى بياتريس فى آن واحد، كما أراد لها دانتى أن تكون .(١)

أما فرانسيسكو دى بترارك Fiancesco di petraceo فهو شاعر أيطالى كبير وهو أحد مؤسسى حركة أحياء الدراسات الانسانية الكلاسيكية ويعتبر واحد من أعلام النهضة الايطالية ، ولد فى مدينة أريزو Arezzo فى ٢٠ يوليو ١٣٠٤ ، ووالده هو السير بترارك Sir petracco ، وكان يشغل منصبا هاما فى بلاط فلورنسا .

وقد درس بترارك القانون فى الفترة من ١٣١٩ – ١٩٢٥ وقد أشتهر عن بترارك حبه للترحال من بلد لآخر وفى الفترة من ١٣٣٠ – ١٣٣٧ أخـذ يتجول فى فرنسا وألمانيا وأيطاليا وكان شغوفا بالتزود بالعلم والمعرفـة

---

(١)فيما يتعلق بدانتى واعماله الادبية راجع مايلى فى مواضع متفرقة

Dante Alighieri : La Divina Commedia illustrata da Sandro Botteicelli, Roma, 1964 .

Parodi E. G. : La Peesia di Dante, 1921 .

Ricci : L' ultimo rifugio di Dante, new ed . 1921 .

Zingarelli : Vita di Dante in Compendip, Milan, 1905 .

Toynbee : Dante Alighieri, his life and works, 4 th ed 1910 .

دانتى : الكوميديا الالهية ، ترجمة حسين عثمان الجزء الاول (الجحيم) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، والجزء الثانى(المطهر) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٩ . والجزء الثالث (الفردوس) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

وخاصة الدراسات الكلاسيكية ونسخ الكثير من المخطوطات القديمة .

أما عن لورا فكان قد رآها فى يوم ٦ أبريل ١٣٢٧ وكان بترارك فى الثانية والعشرين من عمره وكان يعيش وقتذاك فى مدينة أفينون Avignon وقد ذهب صباح ذلك اليوم إلى كنيسة سانت كلارا Saint Clara لتأدية الصلاة وهناك وبالصدفة البحتة التقى بالسيدة التى ملكت فؤاده وأستولت على مشاعره ، التقى بلورا Laura .

وكانت لورا سيدة متزوجة ، ورغم الحب العنيف الذى حمله لها بترارك والذى دونه فى قصائده الشعرية عن حياة وموت السيدة لورا Rime in Vita e Morte diM adonna laura إلا أنها لم تبادله حبا بحب . فقد كان من دواعى سرورها أن تكون محورا لقصائد الحب التى نظمها فيها بترارك وثنائه على جمالها ورقتها ، غير أنها رفضت العلاقات الحميمة التى تنشأ عادة بين المحبين . وهكذا كان حب بترارك للورا حبا عذريا أفلاطونيا .

على أن الأجل لم يمتد بلورا طويلا وتوفيت فى ٦ أبريل عام ١٣٤٨ ، وحزن بترارك عليها حزنا كبيرا ، حتى وفاته فى قرية Aiqua المطلة على البحر الادرياتيكى فى ١٨ يوليو ١٣٧٤ .

ويقول بترارك أن حبه للورا قاده إلى معرفة الله ، وبدأت أحاسيسه ، تتفتح وترتبط بحب الخالق ، وكانت أشعاره فى لورا وخاصة بعد موتها مليئة بالنغمة الدينية .

كذلك فان حب بترارك للورا أرتبط فى قلبه بحب الحرية ، وقد أستمر

حب بترارك للورا لمدة واحد وعشرين عاما وكتب بترارك مصورا قوة هذا الحب : «هذا الحب أستمر عشرون عاما ، ووجد فى اليوم الأخير بنفس الحالة التى كان عليها فى اليوم الاول ، بلا تغيير ولاتبديل» .

كما قال أيضا فى القصيدة الثالثة Sonnet III فى موت السيدة لورا In Mortedi Madeonna Laura «العلاقةالتى تأججت نارها فى كل ساعة طوال واحد وعشرين عاما ، فصمها الموت» .

ويصور بترارك معرفته بلورا للمرة الاولى وحبه لها ثم موتها وكيف وصله خبر وفاتها فيقول فى مذكراته التى كتبها باللاتينية :

«لورا ، أشتهرت بفضائلها ، ولزمن مديد سيذيع صيتها بفضل شعرى . أتضح للمرة الاولى أمام ناظرى أننى بدأت سن المراهقة فى سنة ١٣٢٧ من ميلاد المسيح ، فى اليوم السادس من شهر أبريل وفى كنيسة سانت كلير فى أفينون ، فى ساعات الصباح .

وفى نفس شهر أبريل ، وفى نفس اليوم السادس ، وفى نفس ساعات الصباح ، ولكن فى عام ١٣٤٨ ، خطفت (لورا) فى وضح النهار ، حيث كنت فى فيرونا ، جاهلا بما حدث ، واحسرتاه على قدرى .

الخبر المشئوم ، جاءنى فى بارم parme فى رسالة من صديقى لويس صباح ١٩ مايو من نفس العام .

هذا الجسد الذى كم هو طاهر ، وكم هو جميل ، أودع فى دير الاخوة الفرنسيسكان فى مساء نفس يوم موته . أما روحه فقد عادت إلى السماء التى كانت قد أتت منها .... بفضل عناية الله سيصبح هذا الخطب محتملا ، لو

أننى واجهت بجرأة وشجاعة ، الاتجاهات غير المجدية ، الآمال التى لاطائل من ورائها ، والنهايات غير المتوقعة ، لحقبة السابقة » . (١) .

وهكذا تم تخليد بترارك لحبيبته لورا التى لم يقتصر دورها فى حياته على إدخال السعادة والبهجة على نفسه نتيجة لهذا الحب ، وإنما كان لها دورا أكبر وأعظم من ذلك كله ، حيث قادته إلى معرفة الله والحرية ، وهو أشرف وأنبل دور يمكن للمرأة أن تلعبه فى حياة الرجل .

---

(١) فيما يتعلق ببترارك وحياته واعماله الادبية راجع مواضع متفرقة من هذه الكتب :

De Sanctis : Saggip critico Sul petrarca, 1895.

Mazzei : La vita e Le opera di petrarca, 1927.

Tatham : Francesco petrarca, his life, and correspondence, 1925.

De Sade : Memoires de La vie de petrarque, Amesterdam, 1764 - 67.

Gilson : Petrarque et sa Muse, oxford, 1946.

الفصل الثانى

حقوق المرأة وواجباتها

يقول المؤرخ فريدريك هير F. Heer أنه لم يكن للمرأة فى الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى أى حق فى أى شئ ، فالقانون كان خاص بالرجال ، وحدهم ، والرجل هو صاحب السلطة الوحيد فى العائلة وفى المجتمع وفى الدولة . بل أن أحدى القواعد الثابتة فى العصور الوسطى كانت :

Woman'S Voice is not to be heard in public

هذا باستثناء حق واحد فقط هو الميراث ، فقد كان من حقها أن ترث والدها أو زوجها (١) .

على أن المؤرخة بور Power توضح أن القانون الأنجليزى كان يعتبر المرأه النبيلة غير المتزوجة أو التى توفى عنها زوجها ، شخصية متميزة عن العامة ، فكان يهتم بحقوقها وواجباتها للدرجة المساواة بالرجل ، فمن حقها حيازة الأرض الزراعية ، وتحرير وصية أو عقد، ولها أن تقيم دعوى أمام القضاء أو ترفع عليها الدعاوى ، لكن بمجرد زواجها فأن هذه الحقوق كلها تنسل من يديها ليستحوذ عليها الزوج .

وإذا كانت سيدة نبيلة كبيرة السن دون زوج فانها تمنح نفوذا وسلطة واسعة ، وتصبح شخصية عامة ذات شأن كبير فى المحيط الذى تعيش فيه ، ذات كيان عن أى رجل أقل منها حيازة للارض الزراعية .(٢)

أما فيما يتعلق بحقوقها فى الزواج ، فانه لم يكن للفتاة من الطبقة العليا فى المجتمع أى رأى فى أختيار شريك حياتها ، إذ كانت المصالح المادية هى

(1) Heer : op. cit. p. 261.

(2) Power: Medieval Women, edited by postan, Cambridge university press, Cambridge, 1981, p. 38.

صاحبة الرأى الأول والأخير فى هذا الأمر ، وكان زواج المصلحة Mariage de Convenance أمرا شائعا ومألوفا فى العصور الوسطى ومثل هذه الزيجات كثيرا ماأملتها المصالح التى تتعلق بالأرض وكانت عبارة «لاأدرى أية عوائق تحول دون الزواج بين أصحاب الاقطاعات الكبيرة» هى العبارة التى أسترشد بها كبار السادة الاقطاعيين للموافقة على زواج بناتهم أو قاصر تحت وصاية أحدهم .

وكانت قصص الزواج هذه تمتزج فيها الفكاهه بالكآبه الأليمة ، وليس أدل على ذلك من قصة الطفلة تدعى جريس دى سلبى ، زوجوها وهى فى الرابعة من عمرها نبيلا عظيما من أجل أراضيها الواسعة ، وبعد أن توفى عنها زوجها بعد عامين ، تزوجت شخصا ثانيا ، وعندما أصبحت فى الحادية عشر من عمرها تزوجها شخص ثالث . (١)

وهكذا يتضح أن الفتاة المنتمية للطبقة الارستقراطية لم يكن لها حق أختيار زوجها ولم تتح لها الفرصة لقبوله أو رفضه ، فكثيرا ماكانت تزف عفو الساعة ، أو تزف إلى رجل لم تره من قبل إما لتسهيل التحالف والأمدادات العسكرية ، أو من أجل صفقة من صفقات الضياع ، أو غير هذا وذاك من المصالح المادية البحتة . وكانت سعادة المرأة فى حياتها الزوجية متوقفة إلى حد بعيد على الحظ ، فربما سعدت بهذا الزواج ، أو حدث نوع من الألفة والمودة بينها وبين زوجها ، كما حدث مع الأديبة الفرنسية كريستين دى بيزان التى عبرت عن ذلك تعبيرا مؤثرا حين تداعت إليها ذكريات ، حياتها السعيدة مع زوجها الذى توفى عنها ، فقالت :

(١) Grump & Jacob : op. cit. p. 414.

بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ص ١٣٩ ، ص ١٨٨ .

كان يحبنى ، وكـان هـذا حقـه

الذى وهبه أياه سن الشباب

ولو أستطعنا تنظيم كـل شـئ

حبنـا وقلبينـا

لأحـب كل منـا الآخـر

حبا يفوق الاخـوة والاخـوات

ولكنا أندمجنـا قلبـا وقالبـا

فى السراء والضـراء (١)

على أنه فى معظم الزيجات كان يحدث عكس ذلك ، حيث تظل المرأة تشقى بهذا الزواج ، وربما قضت حياتها كما قضتها دوقة برنزويك التى صورت حياتها مع زوجها وهى على فراش الموت أمام القس الذى أدلت إليه باعترافها الأخير ، فقالت :

„ياأبى العزيز ، لماذا لاأذهب الآن إلى ملكوت السماء ؟ أنى عشت هنا فى هذه القلعة عيشة الراهبة فى الصومعة ، فما هى ألوان السرور والسعادة التى تمتعت بها هنا ، ماعداأنى وضعت هذا القناع الزائف على وجهى ، حتى أبدو سعيدة أمام خدمى وحاشيتى من الفتيات ، وأمام سيدات المجتمع .أن زوجى — كما تعلم — رجل فظ ، يكاد قلبه يخلو من كل عطف وأهتمام بالنساء أو ميل اليهن ألم تكن حياتى فى هذه القلعة كأنى فى صومعة ؟“ (٢)

كان هذا مايتعلق بالفتاة من الطبقة العليا ، أما الفتاة من الطبقة المتوسطة

(1) crump & Jacob : op. cit. p. 416.

(2) Johannes Busch : liber de Reformatione Monasteriorul, ed. Karl Grube, Halle, 1886, p . 779 .

أو الفقيرة فقد كانت أسعد حظا ، فلم تكن على جانب من الثروة بحيث تتحكم المصالح المادية فى أختيار شريك حياتها وإنما كان من حقها الموافقة على الخطيب أو رفضه . وفى حالة إذا لم تكن رأته من قبل ، كانت ترتب بينهما مقابلة ليتعرف كل منهما على الآخر . فيأتى الفتى مصحوبا باشقاء الفتاة إلى منزلها ، ثم تدخل هى إليه حافية القدمين . عارية الرأس ويجلسان بحضور أشقاء الفتاة يتفحص كل منهما الآخر ، ولها بعد ذلك أن تبدى رأيها أما بالقبول أو الرفض . (١)

وفى حالة الزواج يصبح على المرأة القيام بالعديد من الواجبات تجاه زوجها ، وأول هذه الواجبات ، أن تقدم له صداق عينى أو نقدى ، يتناسب مع حالتها من الغنى أو الفقر.فى حالة الفتاة التى تنتمى للطبقة الارستقراطية كان عليها أن تقدم لزوجها صداقا كبيرا يتمثل فى أقطاع واسع أو مبلغ محترم من المال . أما إذا لم يتهيأ لها ذلك ، فكان من الطبيعى أن تتعرض لادبار الرجال عنها وهو الأمر الذى كانت تخشاه الفتاه والأسرةمعا،وكانت الأسرة غالبا ماتتخذ الاحتياطات اللازمة لتلافى هذا الأمر . فكان الوالد إذا شعر بدنو أجله فعل كل مافى وسعه ليترك لبناته صداقا مناسبا لزواجهن .

ولاتعفى من موضوع الصداق هذا حتى الفتيات من أدنى الطبقات،وقد تعاون المجتمع المسيحى فى غرب أوروبا على حل هذه المشكلة فكانت أحدى أوجه الصدقات المعروفة إذ ذاك هو الجود بالصداق للفتيات الفقيرات . (٢)

وبمجرد أتمام عقد الزواج تصبح الزوجة وجميع ماتملك ملكا خالصا

(1) Coulton : Life in the Middle Ages, Cambridge, 1828, P. 219.

(2) Crump & Jacob : Op. cit., P. 262.

للزوج ، ومن حقه نقل ملكيتها لاى شئ سواء كان ذلك أقطاعا أو عقارا أو أموالا سائلة أو أى شئ آخر تملكه يصبح من حقه نقل ملكية هذا الشئ إليه وباسمه هو . وليس لها أية حقوق تجاهزوجهاو كمايقول المؤرخ بنتر painter كان الزوج بالنسبة لزوجته مثل الله بالنسبة له . (١)

وإلى جانب ذلك ، كان على الزوجه كواجب نحو زوجها ن تنجب له ولدا ذكرا واحدا على الأقل ، فان كانت سيئة الحظ لدرجة أن لايتحقق لها ذلك كان من السهل على الزوج أن يقنع الاسقف بفسخ عقد الزواج . (٢)

وبصفة عامة كان من أهم واجبات الزوجة الخضوع التام لزوجها والطاعة العمياء لاوامره والصبر على تصرفاته . ولعلنا نلم بمعلومات أوفر عن هذا الموضوع إذا ماقمنا بجولة بين صفحات كتاب «مدبر البيت الباريسى» Managier de paris وهو رجل ينتمى إلى الطبقة البورجوازية الرفيعة ، عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى ، وكان يبلغ الستين من عمره ، حين تزوج من فتاة صغيرة تبلغ الخامسة عشر ، أعرق منه نسبا. وقد ألف كتابه هذا لاعتقاده بأن زوجته ستتزوج غيره بعد وفاته ، فألف لها هذاالكتاب ، ودون فيه كل مالديه من معلومات عن جميع مايلزم المرأة لتكون زوجة صالحة ومدبرة بيت وسيدة كاملة ، حتى يضمن لزوجته حياة زوجية سعيدة ومستقرة فى زواجها المقبل .

وقد بدأ مدبر البيت الباريسى كتابه بفقرة طويلة عن مراعاة الدين والتقى والورع والمسلك اللائق ، ثم أنتقل إلى مخاطبة زوجته الشابه قائلا :

(1) Painter : History of the Middle Ages, p. 121.
power : Medieval women, pp . 38 - 40 .

(2) Stephenson : Medieval History, New York, 1942, p . 268.

„يجب عليك أن تهتمى بزوجك ، وتراعى حاجاته ، وأرجو منك أن تبقيه نظيف الثياب دائما فان ذلك من جملة وظائفك» .

بعد ذلك يتحدث عن الأعمال التى يقوم بها الزوج خارج المنزل ومايتكبده من المشقة والعمل والسفر هنا وهناك ، حتى إذا عاد للمنزل على الزوجة أن «تخلع حذاءه أمام مدفأة متأججة النيران ، وتغسل قدميه ، وتعطيه جوربا نظيفا ، وتضع على رأسه طاقية نوم جيدة الصنع ، وتغطيه بالفراء ، وتغمره بغير ذلك من الأفرح والمسرات» .

ويستطرد هذا البورجوازى الباريسى موجها كلامه لزوجته قائلا :
«وأنصحك بناء على ماتقدم أن تكونى دائمة البشاشة لزوجك فى جميع غدواته وروحاته ، دائبة عليها ، وأنصحك كذلك أن تكونى مسالمة معه ، بعيدة كل البعد عن كل مايجلب الشجار أو يؤدى إليه ، وتذكرى المثل الذى يقول : ثلاثة تبعد الرجل الصالح عن بيته ، سقف واكف ، ومدفأة داخنة وزوجة طويلة اللسان معنفة . لأجل ذلك أطلب إليك أيتها الأخت الجميلة أن تكونى محبة لزوجك ، وديعة ، دمثة الأخلاق ، حتى تنالى محبته وعطفه ورعايتــه» .

ولاشك أن هذا البورجوازى ، يعبر فى نصائحه هذه عن وجهة نظر أبناء جيله فى موقف الزوجة من زوجها ، ولعل من الطريف حقا أن يشبه حب الزوجة لزوجها ، باخلاص الحيوانات الأليفة لأسيادها فيقول :
«ترى بين الحيوانات الأليفة أن الكلب دائم القرب من الشخص الذى يتناول منه طعامه مبتعدا عن الآخرين ، هيابا منهم ، فظ فى معاملتهم سواء أكان ذلك فى الطريق أو على المائدة ، أو فى الفراش ، فإذا لم يستطع الكلب أن

يقترب من سيده ، فان عينيه تظلان متعلقتين به ، ويظل قلبه دائم الحنين إليه ، ونجد الكلب يتبع سيده ، حتى عندما يجلده أو يقذفه بالحجارة ، وهو يهز ذنبه ويستلقى على ظهره أمام سيده محاولا أسترضاءه وأسترجاع عطفه، وترى الكلب يتبع سيده أينما سار فى الغابات وفى الأدغال ، وفى الأنهار ، وإذا ماصال هاجما على السارق أو على الأعداء . لهذا ولسبب أقوى وأقوم يجب على المرأة التى وهبها الرب أحساسا طبيعيا وجعلها مدركه عاقلة أن تحب زوجها حبا كاملا . مهيبا مقدسا ، ولذلك أتوسل إليك أن تكونى عظيمة الحب لزوجك . شديدة الكتمان لأسراره » . (١)

وهكذا كان على الزوجة فى الغرب الاوروبى فى العصور الوسطى أن تتخذ من الكلب قدوة حسنة تقتدى بها وتسير على منوالها فى الأخلاص والوفاء لسيدها .

والزوجة المثالية هى تلك التى تتوفر فيها الصفات الثلاثة : المنفعة ، بحيث يكسب الزوج من ورائها أقطاعا كبيرا أومبلغا ضخما من المال ، والجمال، بحيث تدخل السعادة على قلب زوجها فى كل وقت ، والأخلاص بحيث تكون أمرأة فاضلة تحافظ على نفسها وبيتها وأسرار زوجها . (٢)

وعلى المرأة أن تقدم هذا كله لزوجها دون أن تنتظر منه شيئا ، بل أكثر من ذلك تكون عرضه للضرب لأقل كلمة تصدر منها ويعتقد الزوج أنها أكثر مما يظنه مناسبا .

---

(١) بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ص ص ١٥٠ — ١٥٥ .
power : Medieval women, pp . 50 - 52 .

(2) Coulton : op . cit . p. 219.

وقد أباح القانون للزوج ضرب زوجته ضربا مبرحا ، وكتب فى هذا الشأن الفارس الفرنسي جيوفرى لاتور لاندرى knight of la tour - Landry الذى عاش فى الفترة المتأخرة من العصور الوسطى ، فى القرن الرابع عشر ، كتب يقول : «لما كان القانون قد أباح ضرب الزوجات ضربا مبرحا لتصحيح مسارهن ومسلكهن ، وهذا التعذيب ذا فائدة كبرى لتقويم أخلاق النساء لذلك يجب على الأب أن يمارس هذا العقاب البدنى عمليا على نطاق واسع مع بناته قبل زواجهن حتى تتعودن عليه» . (١)

وقد أيد كتاب العصور الوسطى حق الزوج فى ضرب زوجته وإيذائها إذا خالفته أو سببت له أية مضايقة ، ورغم أن القانون الكنسى لم يحرم أنزال العقاب البدنى بالزوجة إلا أن الكنيسة تدخلت فى هذا الأمر ، وكل مافعلته أنها حددت حجم العصا التى يحق للزوج أن يستخدمها فى ضرب زوجته . (٢)

ولم يترفع الرجال عن أستعمال حقهم هذا ، ولم يتخلوا عنه حتى فى عصر الفروسية الذى أشتهر بانه العصر الذهبي للمرأة فى الغرب الاوروبى فى العصور الوسطى . وتقول المؤرخة بور «أنه كثيرا مانقرأ فى الأشعار التاريخية المعروفة باسم Chamsonde Jeste وفى الكتاب الذى وضعه فى القرن الرابع عشر الفارس الفرنسي جيوفرى لاتور لاندرى عن رجال يضربون زوجاتهم وهم فى ثورة من غضب » . (٣)

(1)La tour - landry : liver pour L, education de mes filles ed . de Montaiglon paris, 1854, p . 27 .

(2) painter : Medieval Society, New York, 1955.

: A Histery of the Middle Ages, p . 121 .

(٣) بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ص ١٤٢ .

وانظر كذلك الصورة رقم (٤) كنموذج لضرب النساء فى العصور الوسطى .

وقد أستعمل الرجال الضرب المبرح ، وهو الأمر الذى نهى عنه الأسلام وربما أحدثوا بهن بعض العاهات ، مثال ذلك الزوج الذى ضرب زوجته ضربا مبرحا أفقدها السمع باحدى أذنيهـا . (١)

وقد آمنت الزوجات من جانبهن بحق الرجال فى ضربهن ، ولم ينكرن هذا الحق وهذه زوجة البورجوازى الباريسى . تطلب منه أن يعاقبها بالضرب إذا فعلت مايوجب ذلك وهاهو يذكرها بهذا فيقول :

«فى الأسبوع الذى تزوجنا فيه . وكنت يومذاك فى الخامسة عشر ، توسلت إلى أن أنظر لشبابك وإلى خدماتك الصغيرة الجاهلة بعين العطف .... وقد توسلت إلى بضراعة وسألتنى بحب الرب أن لاأصلح أخطاءك بقسوة أمـام الغرباء ، ولاأمام ذوى قربانا ، وأن أنصحك وأصلح أخطاءك .... وأن أعاقبك بالضرب إذا رأيت ذلك ضروريا ، ووعدتنى بأنلاتقصرى فى أصلاح أخطاءك حسب تعليمى وأرشادى ، وأن تبذلى جهد طاقتك فى السير حسب رغبتى ومشيئتى» . (٢)

وإلى جانب واجبات المرأة تجاه زوجها ، كان عليها القيام بواجبات ، كثيرة كربة منزل ومن الأقوال المأثورة فى هذا الصدد :

قـــد يرسل الطقس شيئـــــــــا
من الراحـــــة لـــــلازواج
أما واجبـــــــــات المـــــرأة
فلا حد لها ولانهايـــــــة

---

(1) Crump & Jacob : op . cit . p . 403 .

(٢) بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ص‌ص ١٤١ .

فالسيدة من الطبقة الارستقراطية أو البورجوازية ، كان عليها إلى جانب عنايتها بالمنزل ومراقبة الخدم داخله والأشراف على أعمالهم ، الأشراف كذلك على صناعة المواد الغذائية والملابس التى تمكن صناعتها فى الأقطاعية ، وتخزين ماتبتاعه من الحوانيت أو أقرب مدينـــة أو الأسواق الموسميـــة السنوية . والأشراف على عمل الخبز والجعة والجبن والزبد وتقديد اللحم وتخزينه لأستعماله فى فصل الشتاء .

كذلك التصرف فى كافة الأعمال المختصة بالضيعة أثناء غياب زوجهـا وكثيرا ماكان الزوج يتغيب ، سواء فى الحج أو فى الحرب أو فى العمل أو غير ذلك من الأسباب . لذلك كان على الزوجة أن تكون على ألمام بالقانون الأقطاعى لتدافع عن حقوق زوجها وأولادها .

والجدير بالذكر أنه رغم أن الزوجه لم تكن تتمتع بأية حقوق تجـــاه زوجها إلا أنها تمتعت بكل مالزوجها من حقوق تجاه الآخرين . كذلك كان عليها أختيار العمال والمداومة على مراقبتهم أثناء تأديتهم لعملهم ، ومعرفـة المواسم الملائمة للزراعة وأنواع المحاصيل المناسبة للتربة ، والأعتناء بالحيوانات والأسواق التى تباع فيها المنتجات الزراعية بأحسن الأسعار حتى تسوق منتجات الضيعة كذلك كان عليها التجول الدائم فى الضيعة وملاحظة الحقول والمراعى والغابات . (١)

ولعل الشاعر الفرنسى ديشامب الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر يرسم صورة صادقة للاعباء الملقاة على عاتق المرأة فى الضيعة الأقطاعية حين يقول على لسانها :

(1) Crump & Jacob : op . cit . p . 418 .

أنى مكلفة بالأشراف على كل شـــــــــــــى
وليس لـــدى وقت لتحريك قدمـــــــــــــى
ومسئوليتى تقـع فى عشرين مكانـــــــــــــا
فهذا يقول لى «الأغنام فى حاجة لجز صوفهــــــا»
و ذاك يقول لى «الحملان فى حاجة إلى الفطـــــام»
وآخر يقول «الكروم فى حاجة إلى العنايــــــــة»
وآخر يقول « أنــا مشغول بحــــــــرث الأرض»
وآخر يقول «لابد من مراقبة سير القطيـــــــــع »
وآخر يقول «يجب أن أسلخ البقرة التى نفقـــــــت»
وآخر يقول «لابد من تغطية الأجران والحظـــــيرة»(١)

وكان على السيدة قبل أن تأوى إلى فراشها بعد هذه الأعمال اليومية المرهقة أن تجوس خلال الدار تغلق الأبواب وتتأكد أن الخدم قد أووا إلى مضاجعهم .

ولم ينسى مدبر البيت الباريسى أن يقدم النصيحة لزوجته بخصوص موضوع الخدم ، ومما قاله فى هذا الشأن :

« إذا أستأجرت خادمة (أو خادما) وكانت أجابتها على أسئلتك بثرثرة أو بتعجرف فأعلمى أنها عندما تترك خدمتك سوف تسئ إلى سمعتك بقــــدر أستطاعتها ، وعلى العكس إذا أطرتك وكلها ملق ومداهنة ، لاتثق فيها ، فهى متفقة مع أحد ماعلى خداعك . أما إذا أحمر وجهها خجلا وكانت صامتة عندما تصححين أخطائها فاسبغى عليها حبك وكأنها أبنتك» .

---

(1) I b id : p . 423 .

ويستطرد فى تقديم نصائحه بخصوص الخدم فيقول « فى المساء لا بدأن يتناولوا طعامهم ثانية ، ولابد أن يكونوا قادرين على تدفئة أنفسهم حـول النيران ، وفى منتهى الأسترخاء ويجب على الزوجة أن تغلق أبواب المنزل وتقودهم إلى الفراش ، وتضع بجانب كل فراش شمعدان ليضع فيه شمعته ويجب ن نلقنيهم بحكمه أطفاء الشمعة بالفم أو باليد قبل الولوج إلى الفراش وليس بقذف الشمعة بقميص» .

«وإذا أستخدمت خادمة تبلغ من العمر خمسة عشر عاما أو عشرين عاما ، أعلمى أنهن فى هذا العمر يكن حمقاوات ولايدركن مايجرى فى الدنيا ، لذلك يجب أن ينمن بالقرب من الردهة المؤدية إلى حجرة نومك . أو فى حجرة بدون منور أو نافذة منخفضة تطل على الطريق ، وأتركيها تنام وتنهض من النوم فى نفس ميعادك ، وأعتنى بها ، وإذا مرض أحد الخدم دعيه ينام بعيدا عن الآخرين ، وأوليه كل الحب والود والأهتمام ، وداومى على زيارته حتى يهدى إليه الشفاء» . (١)

كانت هذه الأعباء كلها ملقاه على عاتق السيدة المنتمية للطبقة العليا ، فإذا هبطنا درجة فى سلم الطبقات الإجتماعية ، حيث لاتوجد ضياع تتولى المرأة الأشراف عليها ولاخدم يعاونونها فى تنظيم شئون المنزل ، وجدنا أن على المرأة أن تقوم بكافة أنواع المنزل وحدها ، وعليها أن تمد أسرتها بكافة مايلزمهم حتى الملابس عليها أن تقوم بغزلها ونسجها أعتمادا على نفسها . وإذا هبطنا إلى أدنى درجات السلم الإجتماعى وجدنا من الطبيعى أن تزداد أعباء ربة

(1) Power : Medieval Women, pp . 40 - 52 .

المنزل ، إذ أنها كانت مضطرة بوجه عام لمساعدة زوجها فى حرفته وعليها كذلك أن تقوم بحرفة ثانوية مستقلة هذا بالإضافة لعنايتها بالمنزل والأطفال .

وبصفة عامة كان من المنتظر من ربة البيت فى جميع طبقات المجتمع الغربى الوسيط بالإضافة لأعبائها السابقة الذكر ، أن تعتنى بأفراد الأسرة فى الصحة والمرض على السواء لذلك كان عليها أن تكون على دراية بالطب ، والجراحه ، وكانت أسرار أعداد العقاقير الطبية تنتقل من الأم إلى الأبنة مع وصفات عمل أطباق الحلوى وزجاجات العطر . (١)

(1) Covlton : op. cit., pp. 225 - 226.
Crump & Jacob : op. cit., pp. 421 - 423.

الفصل الثالث

الراهبات

لقد كانت هناك فئة من الفتيات اخترن حياة النسك والرهبنه (١) والجدير بالذكر أنه كان فى مطلع العصر الذهبى للرهبنة لا يدخل الدير ، الا اللاتى لهن استعداد طبيعى لحياة الرهبنة ، فكن يدخلن الدير لاشباع الناحية الدينية فى نفوسهن ، على انه بعد ذلك أصبح الوالد هو الذى يقرر ، كم من بناتــه يتزوجن ، وكم منهن تختار لهن حياة الرهبنة فان لم يستطيع تحقيق ذلك فى حياته ، كان ينص عليه فى وصيته .

والغريب أن أبواب الاديرة كانت مفتوحة لبنات النبلاء والاغنياء وكبار التجار فقط ، مغلقة فى أوجه الفتيات الفقيرات أو ذوات النسب الوضيع ، وكانت فتيات الفئة الاولى لايدخلن الاديرة فى الاعم الاغلب ، الا بعد أن يبلغن السن التى يستطعن فيها الترهب عن ارادة حرة ورغبة اكيدة ، غير انه اذا حدث ان دخلت فتاة لم تبلغ تلك السن بعد ، كان يتحتم عليها ان تقضى بضع سنوات كراهبة مبتدئة حتى تبلغ السن التى تصبح فيها أهــلا للترهب عن حرية واختيار .

وكان من الضرورى أن تقدم الفتاة للدير عند دخولها مبلغا من المال ، تماما كما يحدث مع الزوج الدنيوى ، وان كان الدير أقل جشعا ، اذ كان الصداق الذى يتطلبه أقل من صداق الزوج الدنيوى

(١) من أحسن البحوث التى ظهرت فى هــذا الموضــوع كتاب بور «الا ديرة الا نجليزية الوسيطة» ، وهو يتعرض لنظام اديرة الراهبات وحياتهن داخلها ، وهذا الكتاب هو المرجع الرئيسى الذى تم الاعتماد عليه عند معالجة هذا الموضوع إلى جانب ما سيتم الاشارة اليه من مراجع فى حواشى هذا الفصل راجع :

Power : Medieval English Nunneries, Cambridge, 1922 .

راجع أيضا :

Eckenstein : Women Under Monasticism, Cambridge, 1896 .

وكان هذا الامر يتنافى مع قانون الكنيسة الذى يمنع تقديم أى شىء للدير ماعدا الهبات التى يقدمها صاحبها عن حرية واختيار . (١)

وفى اليوم الذى تصير فيه الفتاة راهبة ، كان على والدها أو الوصى عليها ان يولم وليمة فاخرة يدعوا اليها جميع الراهبات فى الدير وعدد من أقاربه واصدقائه ، وكان عليه أن يهب القس الذى يقرأ الموعظة فى ذلك اليوم مبلغا من المال . ومتى أصبحت الفتاة راهبة منحت لقب (دام) أو (مدام) وهو لقب غير رسمى كان يمنح لها تأدبا واحتراما .

وكان على الراهبة أن تتحلى بأمور ثلاث اساسية ، هى الطاعة والفقر والطهارة ، وتحقيقا للامر الثانى وهو الفقر ، كانت الراهبة ترتكب اثما كبيرا اذا مالدعت لنفسها ملكية خاصة مهما تضاءل شأنها ، وبناء على ذلك كانت تعتبر غير موجودة بالنسبة لعالم الاحياء، فلا تستطيع أن ترث أرضا أو غير ذلك من الاملاك العينية أو النقدية . (٢)

وكان كل دير له فى الواقع صفتان ، الصفة الدينية، والصفة الاجتماعية ، فاذا نظر اليه من حيث أنه وحده دينية ، فهو دار للعبادة والتقوى والورع ، وكانت الصلاة واجبا أساسيا على الراهبات أن يقمن بها، وكن يصلين سبع مرات فى اليوم الواحد ، وتبدأ اولى هذه الصلوات فى حوالى الساعة الثانية صباحا وهى صلاة السحر ولاشك أن الراهبات كن يعانين صعوبة كبيرة

---

(1) Cump & Jacob : op . cit . p . 43 .

(٢) كولتون : الديرية ، اسبابها ونتائجها ، مقال فى كتاب تاريخ العالم ، ترجمة إلى العربية الدكتور جمال الدين الشيال ، ونشره فى مجلة كلية الاداب جامعة الاسكندرية المجلد الحادى عشر ، سنة ١٩٥٧ ، ص ١٩٢ .

بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ، صص ١٠٨ — ١٠٩

فى الاستيقاظ فى هذه الساعة ، ولقد توقع القديس بندكت (١) هذه الصعوبة فكتب فى قواعده « عندما يستيقظ الرهبان والراهبات لاداء الصلاة المقدسة فليشجع بعضهم بعضا ، ويحثوهم بلطف على النهوض بسبب الاعذار التى يقدمها الذين مازالوا فى حالة نعاس » .

بعد هذه الصلاة يعدن إلى مراقدهن ليستيقظن فى الساعة السادسة صباحا فيقرأن قداس الفجر Prime ، ويعقب ذلك خمس صلوات اخرى هـم صلاة فى التاسعة صباحا تسمى Tierce واخرى تسمى Sext والثالثة صلاة الظهر ، ثم صلاة العصر واخيرا صلاة النوم . وقد كانت الصلاة الاخيرة تؤدى فى الساعة السابعة مساء فى الشتاء والثامنـة

---

(١) يعتبر القديس بندكت المؤسس الحقيقى للديريه فى ايطاليا ، وقد ولد بها فى سنة ٤٨٠ م ، وهو ينتمى لعائلة ايطالية ارستقراطية ثرية ، وعندما بلغ بندكت مرحلة الشباب هجر دراسته فى روما واثر الا نعزال فى كهف بعيد تفرغ فيه التعبد ، ولما كثر حولـه المريدين انتقل معهم حوالى ٥٢٠ م. للاقامة فى معبد قديم للاله ابو لو عند مونتكاسينو فى منتصف الطريق بين روما ونابلى ، وتم اعداد هذا المعبد لا قامة أول دير اسمه القديس بندكت وهو دير مونت كاسينو ، ووضع له النظم الدينية التى سار عليها والتى كان اهمها انكار الذات والطاعه والعمل والمساواة التامة بين افراد الدير ، وقد انخرط كثير من بنات الطبقة الا رستقراطيه وخاصة فى انجلترا فى سلك الرهبنه واخترن النظام البندكتى كأساس لحياتهن الديرية وكن على مستوى مرتفع جدا من الثقافه ، كما كانت الا ديرة البندكية تمتاز بالتنظيمات الدينية الهامه والنفوذ الا جتماعى الكبير الذى استحوذت عليه فى المجتمع .

للمزيد عن النظام البندكتى راجع :

Butler : Monas'icism, C . M. H, ed Bury, Cambridge, 1975 , vol, ch .xv III , pp . 535 - 542 .

Workpan : The E volution of the Monastic Ideal, London, 1957 .

Thompson : The Middle Ages, Vol I, London 1931 .

مساء فى الصيف . وبعد تأدية هذه الصلاة كان يفترض ان تأوى الراهبات إلى مضاجعهن دون أبطاء .

وقد كانت الراهبات يتناولن ثلاث وجبات فى اليوم . الاولى هى وجبة القطور وكن يتناولنها بعد صلاة الفجر وكانت غالبا تتكون من الخبز والبيرة اما الغذاء فكن يتناولنه عند منتصف النهار تصاحبه قراءة جهورية ، والوجبة الاخيرة وهى وجبة العشاء كن يتناولنها بعد صلاةة العصر مباشرة فى الساعة الخامسة أو السادسة مساء . (١)

وكان يفترض ان يسود السكون المطلق فى الدير . اذ كانت قوانين الرهبنة تفرض على الراهبات الصمت . ولم يكن المقصود الصمت التام غير ان المصلحين المتزمتين كانوا يفسرونه على هذا الوضع ، لذلك كان عـلى الراهبات ان تتحاشين المحادثات العامة سواء كان ذلك فى مكان العمل أو فى اى مكان أخر . ولذلك كن يتفاهمن بالاشارات ، وقد كانت هناك قوائم خاصة بالاشارات التى يتعين على الراهبة استعمالها داخل الدير تحاشيا للكلام .

وقد كانت هذه الاشارات تستعمل حتى حول موائد الطعام ، ولاشك انها كانت كفيلة باحداث جو من المرح اكثر مما تثيره الاحاديث المرحـة . فقد كان يتعين على الراهبة التى تريد ملح مثلا ان تنقر بابهام وسبابة اليد اليمنى ابهام اليد اليسرى ، والتى تريد سمكة ان تهز ذراعيها هذا تقلد به السمكة ، والتى تريد نبيذ ان تحرك السبابة صعودا وهبوطا على نهاية الابهام امام العين واذا ارادت لبنا يجب عليها أن تسحب أصبعها الصغيرة بطريقة تدل على حلب

(1) power : Medieval women, pp . 92 - 93 .

اللبن ، والتي نسيت احضار البخور لصلاة القداس عليها ان « تضع اصبعها فى فتحى الانف » . وهكذا .(١)

وقد احتوت احدى القوائم الموضوعة للراهبات على مالا يقل عن مئة وست أشارة وقد كان نظام الراهبات ينص على أنه « غير مسموح اطلاقا استعمال هذه الاشارات دون سبب مبرر ، ودون حاجة نافعة » . غير أنه فى وقت متأخر ابيح للراهبات استعمال غرفة المحادثات Parlaterium لاوقات معينة اثناء النهار . (٢)

أما من حيث ان الدير كان وحده اجتماعية فهو يضم بين جدرانه جماعة انسانية من البشر تطعم وتكسى ، ويعاونها مستخدمون يديرون مزرعة الدير ويقومون بعمليات البيع والشراء وتدوين حسابات الدير ، وعلى الراهبة المشاركه فى هذه الاعمال كلها ، شأنها شأن صاحبة الضيعه .

وكانت الاعمال والواجبات اليومية تمارس تحت اشراف عدد من المسئولات يطلق عليهن اسم «صاحبات الطاعه والانقياد الرهبانى» Obedientieries يخترن من بين الراهبات ذوات الخبرة والدراية . واهمهن جميعا « خادمة الكنيسة « أو » القندلفت » Sacristan التى يوكل اليها أمر ترتيب الكنيسة وانارة الدير .«وخادمات غرف النوم» Chambresses وهن اللاتى يعتنين بملابس الراهبات و (خازنات المؤنه) Cellaress وهن اللاتى يشرفن على الطعام ويدون منزل الضيعه .

وكان يوجد بكل دير (منزل الضيعة) وهو المكان الذى يخزن به الخبز

---

(1) Aungier G : History and Antiquities of syon, London, 1840 , 405 - 409.

(٢) كولتون : الديرية ، اسبابها ونتائجها ، ص ١٩١ .

واللحم والجعه والخضروات ومنتجات الالبان وكل مايتعلق بالطعام ، وخصوصا ثلاث سلع استهلاكية مهمه وهى السمك ، الملح ، والتوابل ، وهى السلع التى كانت الراهبات يستهلكن منها كميات كبيرة . اذ كان الطعام الرئيسى أثناء الصوم الكبير قبل عيد القيامه هو السمك المجفف والملح وقطعة من اليخنى مع بعض الحلوى المكونة من التين والزبيب واللوز . وكانت المواد الغذائية تختلف من دير لآخر تبعا لحجم الدير . والاديره الكبرى كانت تستخدم طباخا وصانع جعه وخبازا وامرأة تشرف على منتجات الالبان ، ونساء يغسلن ويكوين ملابس الراهبات ، وحارس على بوابة الدير (بواب) وواحده أو اكثر من الخادمات. وفى بعض الاديرة الكبيرة كانت هناك راهبات متميزات يزودن بخادمات خصوصيات يقمن على خدمتهن دون باقى الراهبات هذا كله غم أن القديس بندكت كان يوصى دائما بان تقوم الراهبات بتأدية اعمال الخدمة بانفسهن . على ان هذه التعاليم نبذت شيئا فشيئا حتى نبذت تماما فى القرن الثالث عشر ، واذا وجدت بعض حالات لراهبات فى الاديره الصغيرة يقمن بطهى الطعام وادارة اعمال الدير بانفسهن ، فهذا يرجع إلى اضطرارهن لذلك بسبب. فقر الدير وعادة يصحب ذلك شكوى الراهبات .

وكثيرا ما وجدت امثله لاديرة فقيرة وانعكس هذا الفقر على مظهر الراهبات حيث كن يلبس ملابس مليئه بالثقوب وكثيرا ماابدى الاسقف اثناء زيارته الرسمية التفتيشيه على الاديرة ملاحظاته ولفت الانتباه إلى تلافى هذه الثقوب الواضحه للعيان . كذلك وجدت امثله لاديرة خربه تسمح سقوفها بتسرب المطر على رؤوس الراهبات بها كما وجدت اديرة أخرى غارقه فى الديون بصفة مستمره . .

والواقع ان الكثير من الاديره عانت اشد المعاناه من العديد من المتاعب

منها الفيضانات المدمره وهجمات الغزاة مثل غزوات الاسكتلنديين المفاجئه على الاديرة فى شمال انجلترا والخارجين على القانون وما يفرضونه على الاديرة من اتاوات ، إلى جانب عدم كفاءة المشرفات على الاديرةوموظفاتهن المسرفات ، اللائى فى سبيل حصولهن على النقود كن يلجأن إلى طرق ليست سليمه كأن يبعن الاخشاب اللازمه للدير ويؤجرن الضيعة الخاصة به آجالا طويلة مقابل مبالغ ضئيله ، أو تقمن برهن الضيعه أو الصحاف الفضيـــه المقدسه إلى آخر هذه الطرق .

وقد وجدت الراهبات انفسهن فى الاديره فى حالة أفضل ، اذا اسبغت عليهن الرهبنه احترام النفس واحترام المجتمع ، ولكن خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، أصبح مركزهن على جانب من الصعوبة ، واحجم الرجال عن تحمل مسئولية التوجيه الروحانى لهن واجتنبوا ذلك بقدر استطاعتهم واستمر رجال الدين يرتابون فيهن ، وكانت طبيعتهن القلقة فى نظرهم سببا فى اتهامهم لهن بالهرطقة فى كل حين (١)

وفى اواخر العصور الوسطى ، بدأت الشبات تدخلن اديرة الرهبنـة واخذن ينظرن للرهبنة على انها حرفة أكثر منها خدمة ربانية . وقد حطت اولئك الفتيات من مستوى الرهبنة لانها كانت صعبةعليهن ، مخالفةلطبائعهن ، لذلكفأصبحت الراهبات فى هذه الحقبة أكثر كسلا وتراخيا ، وكن يقمـن بقليل من العمل بأيديهن ، واقل من ذلك بعقولهن بعد ان تناسين التقاليد التى تحثهن على التعلم ، وتشجعهن على الاستزادة من المعرفة وبعد أن اصبحت الكثيرات منهن يجهلن اللاتينية المكتوبة بها الكلمات الدينية اللاتى يرتلنها.ومن ثمة

(1) Heer : op . cit ., p . 264 .

فقد اصبحت الصلاة التى يقمن بها مجرد اشكال فارغة ، يسرعن بها بقليل من الورع احيانا وبشيء من عدم الاحترام احيانا اخرى .

كذلك فان الراهبات اصبحن يملن إلى التسلل من القداس قبيل انتهائه لسبب وجيه احيانا ، وبدون سبب فى كثير من الاحيان ، فمثلا يعتذرن بانهن ذاهبات للمساعدة فى اعداد الغذاء ، او للاشراف على دار الضيافة ، اولان حديقة الدير بحاجة إلى اقتلاع الاشواك والاعشاب الضارة ، او لانهن منحرفات المزاج مريضات . . الى اخر هذه الاعذار التى لاتنتهى ابدا .

اما اذا اضطررن لتأدية القداس ، فانهن كن يسرعن فى تلاوته حتى يخلصن منه فى اقصر وقت ممكن ، لذلك كن يهملن قراءة المقاطع الاولى والأخيرة من الكلمات ويحذفن مواطن الوقف بحيث ان جانبا من المترنمات يبدأن فى انشاد السطر الثانى قبل ان ينتهى الجانب الآخر منهن من انشاد السطر الاول . وقد يتركن تلاوة جمل بكاملها ويغمغمن ويجمجمن الكلام وبذلك يحلن الانشودة الفخمة الواضحة إلى مجموعة متنافرة من الاصوات والكلمات غير المفهومة . (١)

وقد اعتبر الاخلاقيون ان الاختلاط بالعالم الخارجى هو اساس كل هذا

---

(1) Power : Medieval women, pp . 97 - 98 .

هذا ولم يقتصر هذا الفساد على أديرة الراهبات فقط وانما كان موجود كذلك فى اديرة الرهبان ، وقد دفع ذلك القائمين بالاشراف على الاديرة إلى اصدار مرسوم فى عام ١٣٣٠ يحرم « الضحك والنكت أثناء القداس وتنقيط دهن الشموع الساخن من الاماكن العليا بالكنيسة على رووس المترنمين الحلبقة والمتواجدين بالاماكن السفلى للكنيسة » .

الشر الذى زحف إلى حياة الرهبنة وانظمها ، ورب قائل وكيف تختلط الراهبات بالعالم الخارجى وهن يقضين حياتهن داخل جدران الدير ؟

والاجابة عن هذا ان الراهبات لم يكن حبيسات الاديرة وانما كان يسمح لهن بقضاء بعض الوقت خارج الدير . وقد كانت الراهبات بارعات فى اختلاق الاسباب المعقولة التى تدعوا إلى مغادرة الدير ، فتارة تزعم الراهبة ان والديها مريضان ولابد من زيارتهما ، وتارة اخرى تزعم انها ذاهبة لتعترف فى دير آخر . . . . . وهكذا ، وبذلك اتيحت لهن الفرص للطواف خارج الدير فى هذا العالم الواسع .

أضف إلى ذلك ان اتصال الراهبات بالعالم الخارجى كان يتحقق بطريق آخر ، ذلك ان النبلاء فى الارياف والاغنياء بالمدن كانوا يستخدمون الاديرة نزلا تأوى اليه نساؤهم وبناتهم اذا ماذهبوا للحرب أو للحج فتأتى زوجاتهم وبناتهم إلى الدير ويعشن فيه على نفقتهن الخاصة .

وقد كان لهذا الامر مساوئه اذ كانت اولئك السيدات الدنيويات قدوة سيئة للراهبات فقد كن يرتدين الثياب البهيجة الزاهية الالوان والقبعات المرتفعة إلى غير ذلك مما سنعرض له بالتفصيل عند الكلام عن الملابس ، وكذلك كن يعتنين بتربية الكلاب ، ومن هنا فقد حذت الراهبات حذوهن . وقد حاولت المجامع الدينية والاساقفة والمصلحون طوال العصور الوسطى ان يقضوا على اتصال الراهبات بالعالم الخارجى ، سواء كان ذلك عن طريق الخروج من الدير أو ايواء السيدات الدنيويات فى الاديرة ، غير ان هذه المجهودات ذهبت ادراج الرياح .

وقد ظهرت عظمى هذه المحاولات فى عام ١٣٠٠ م.عندما إعلن البابـــا

بونيفيس الثامن (١٢٩٤ – ١٣٠٣) فى نشرة بابوية امره بان تلزم الراهبات اديرتهن لايغادرنها ابدا الا عند الضرورة القصوى ، وان يمنع اى انسان علمانى من الدخول إلى اديرتهن أو زيارتهن بدون ترخيص وبدون سبب معقول يدعوا للزيارة .

وحدث ان الاسقف جاء بنفسه إلى احد اديرة ابرشيه لنكولن واودع فيها نسخة من النشرة البابوية وطلب من الراهبات اطاعة ماورد فيها من الاوامر والنواهى ولكن الراهبات لحقن به إلى الباب ورمين النشرة على رأسه وهو يهم بالركوب صارخات انهن لن يطعن هذه الاوامر ولن ينفذن حرفا واحدا منها(١)

وهكذا فشل الاساقفة فى ايجاد حل لهذه المشكلة وكثيرا ما كان الاساقفه ورؤساء الاساقفة يهزون رؤوسهم الوقوره وهم فى حيرة من امرد بابيس الشعر الذهبية والاحزمه الفضية والخواتم المرصعة بالجواهر والاحذية المزينة بالشرائط والفساتين المفتوحة الصدور واطواق الفساتين الواطئة واهدابها الطويلة الفضفاضه والالوان الفاتحه والملابس المرتفعه الاسعار والفراء الثمينه التى ترتديها الراهبات. ولعل فى وصف تشوسر(٢) Chaucer فى مقدمة

(1) Registrum Simonis de Gandavo Episcopi Sarisbiriensis, ed Flower, Canterbury and York socienty, 1914, pp . 10 FF .

(٢) هو الشاعر الانجليزى الشهير جوفرى تشوسر عاش فى انجلترا فى الفترة (١٣٤٠ – ١٤٠٠) ومن أهم اعماله واضخمها قصص كنتربرى التى توفى قبل اتمامها ، للمزيد عنه انظر :

Chaucer : canterbury tales in complete works, ed Pollord, 1908.

Clemen : Chaucer' S early poetry, London, 1963.

Halliday : Chaucer andhis world, London, 1968.

Hussey : Choucer an Introduction, Londen, 1968.

Myers : England in the Later Middle Ages, London, 1953.

قصص كنتربرى لرئيسة احد الاديرة وتدعى مدام ايجلينتاين التى عاشت فى القرن الخامس عشر ، وحجت إلى كنتربرى بصحبة جماعة من رفاقها ، اصدق دليل على ما اعترى الراهبات من تغيير ابعدهن عن البساطة والتقشف والزهد . قال تشوسر فى وصفه لمدام ايجلينتاين :

وكان بين تلك الرفقة المختلطة راهبة رئيسة دير

تبتسم ، حين تبتسم ، ببساطة وخفر

واذا اقسمت كان قسمها الاعظم

وحق القديس لويس

وكانت تعرف بمدام ايجلينتاين

وكانت ترتل القداس ترتيلا رائعا

وتنغم الكلمات تنغيما جميلا لائقا

وكانت تتكلم الفرنسية بطلاوة واناقة عظيمة

باسلوب مدرسة ستراتفورد - ات - باو

فما كانت لتعرف فرنسية الباريسيين

وزد على ماتقدم أن اسلوبها فى تناول اللحم

كان حسن التهذيب

فما كانت لتدع كسرة واحدة تسقط من بين شفتيها

وما كانت تغمس اصابعها فى المرق عميقا

لقد كانت تستطيع ان ترفع اللقمة إلى فمها

دون ان تدع قطرة واحدة من المرق تسقط على صدرها

وكانت لها حماسة خاصة لمجاملة الناس

وكانت تحرص على مسح شفتها العليا مسحا نظيفا

بحيث لاتترك للشحم اثرا يرى على الكأس
بعد ان تفرغ من الشراب
واذا اكلت مدت إلى اللحم يدها برصانة وهدوء
وكانت يقينا ، لطيفة المعشر
مسلية ، مبهجة ، ودودة
وكانت تجهد نفسها لتصطنع لطف الندماء الظرفاء
ولتتخذ سمتا يليق بمكانتها
ولتبدو وقورة فى كل تصرفاتها
اما عن عطفها الشامل وشعورها الرقيق
فقد كانت تسفح دموعها الحارة عطفا وحزنا
لمجرد ان ترى فأرة فى المصيدة ، مدماة أو ميتة
وكان لها كلاب صغار تطعمها اللحم المشوى
والحليب والخبز الابيض اللطيف
وكانت تبكى بكاء مرا اذا مات احدها
او اذا ضربه احد الناس بالعصا ضربا موجعا
لقد كانت كلها عواطف ، كلها قلب رقيق رؤوم
وكانت تضع خمارها على رأسها بشكل جميل لائق
وكان انفها دقيقا ، رشيقا ، وعيناها فى زرقة الزجاج
وكان فمها صغيرا ، ناعما ، احمر الشفتين
اما رأسها فكان بكل تأكيد ، جميل التكوين
يفصله عن الحاجبين جبين عرضه شبر
يقينا انها لم تكن ناقصة التكوين ابدا

ومما لاحظته ان ثوبها كان رائع السحر فتانا
وكانت تضع على ساعديها سبحة
من حبات المرجان الصغيرة طوقت طوقتين
وكان يتدلى من هذه السبحة المفصلة بحبات خضر
قرص ذهبي رائع التألق ، شديد اللمعان
خط فى اعلاه حرف « أ » وخطت أسفله هذه الكلمات
« الحب يقهر كل شيء » (١)

---

(١) بور : نماذج بشريه من العصور الوسطى ، ص ٩٩ — ١٠١ .

الفصل الرابع

التعليم والملابس



لقد كان حظ الفتاة من التعلم فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى ضئيلا . وكان للمجتمع الغربى نظرة خاصة فى تعليم الفتيات . فميزوا فيما يتعلق بالتعليم بين الاميرات وبنات النبلاء وبين سائر الفتيات فمثلا نجد أحـد المعاصرين ويدعى فرنسيسكودا باريارينو Fransesco da Bardarino يسمح لطبقة الفتيات النبيلات أن يتعلمن القراءة والكتابة ليتمكن فيما بعد من ادارة ضياعهن ، واما فيما يتعلق ببنات السادة من رجال البلاط ، وكذلك بنات القضاة والاطباء ومن على شاكلتهن فانه تردد لمدة طويلة فى الحكـم عليهن ، ثم قرر انه من الخير لهن الا يتعلمن القراءة والكتابة ، وبالنسبة لبنات التجار والصناع فقد كان الحكم حازما بالا يتاح لهن أى لون من ألوان التعليم .

إذن فقد حبذ المعاصرون تعليم الفتيات من طبقة النبيلات فقط ، ولم يكن المقصود من تعليمهن أفادة الفكر أو حبا للثقافة ذاتها ، وإنما الدافع لذلك كان اداريا بحتا وحتى يتمكن من إدارة ضياعهن . لذلك كانت الفتاة مـن هذه الطبقة تقضى بضع ساعات مع مؤدب خاص . أو ربما التحقت بنـوع من المدارس يلتحق به الهواة ليتعلمن القراءة . وجدير بالذكر أن معظم كتاب العصور الوسطى حبذوا تعليم الفتيات حتى من هذه الطبقة القراءة دون الكتابة حتى لايستخدمن معرفتهن للكتابة فى تحرير الرسائل الغرامية . (١) وربمـا عبر فارس لاتورلاندرى عن وجهة النظر المعاصرة بقوله : «أحب أن تكون بناتى قادرات على القراءة ، وفيما عدا ذلك فالبنت يجب أن تتعلم الفضائل من الكتاب المقدس لتعيش فى بيتها عيشة غير شريرة» . (٢)

---

(1) Painter, History of the Middle Ages, P. 465.

(2) La Tour-Jandry : Iiver pour L' education de mes filles, P. 36.

أما مدبر البيت الباريسى Managier de Paris وكريستين دى بزان فقد تمسكا بضرورة تعليم النساء القراءة والكتابة . (١)

وبالنسبة للراهبات فقد أتاحت لهن الديرية نوعا من التعليم أرقى كثيرا من التعليم الذى كان متاحا للرجال وللنساء خارج نطاق الدير ، فقد كان لزاما على الراهبة المبتدئة أن تقضى سنوات عديدة تتعلم القراءة والترتيل ، إلى جانب قضاء الراهبات بعض الوقت يوميا فى مكتبة الدير يقرأن فى الكتب الموجودة بها . (٢)

وقد ساهمت الراهبات بدور ملموس فى تعليم البنات ، إذ كان يلتحق بكل دير كبير مدرسة صغيرة ، ومدرسة أخرى أصغر منها لتعليم التراتيل وكانت راهبات الدير يقمن بالتدريس فى هاتين المدرستين .

ولكن ليس معنى ذلك أن كل دير كان لابد أن توجد به مدرسة لتعليم البنات لانه كان هناك أديرة صغيرة وفقيرة ولاتستطيع أن تتولى فتح مدرسة للتعليم ، وحتى الأديرة التى أتيح لها فتح مدرسة ، فقد كانت هذه المدارس الملحقة بالأديرة صغيرة ولاتستطيع أن تستوعب أكثر من عدد محدود مـــن الأطفال ، وكانت هذه المدارس مختلطة أى يلتحق بها البنات والبنين فى آن واحد ، كما كانت تضم قسما للداخلية يقيم فيه الأطفال أقامة كاملة وكانت الأديرة تتقاضى أجورا مرتفعة نظير ماتقدمه لهم من تعليم .

وقد كتب فروسارت Froissart (٣) ، فى حوالى سنة ١٣٥٠ ،

(1) Power : Medieval women, PP. 97-80.

(2) Crump Jacob : op. cit., P. 431.

(٣) يوحنا فروسارت Johan Froissart (١٣٣٥ – ١٤٠٥ م) ولد فى اقليم الفلاندرز وتربى فى بلاط كونت هذا الاقليم ،واصبح ملما بفنون الفروسية والسياسة

فى قصائد شعره Espinette Amoureuse يوضح كيف أنه ذهب إلى المدرسة ليتعلم اللغة اللاتينية عندما كان فى الثانية عشر من عمره ، ولكنه كان لايهتم بدروسه لأنشغاله فى تقديم دبابيس الشعر والتفاح كهدايا للبنات الصغيرات اللاتى يجلسن بجواره على نفس المقعد ، ويتعجب كيف أنه عندما نمى وكبر أمكنه أن يبادلهن الحب . (١)

وفى باريس كان هناك مايسمى بالمدارس الصغيرة Little Schools تحت إدارة قائد جوقة الترتيل فى كنيسة العذراء Contor of Notre Dame وكان يدرس بهذه المدارس القراءة ومبادىء النحو والصرف فى اللغة اللاتينية وكانت هذه المدارس أيضا مفتوحة أمام الفتيات والفتيان على حد سواء .

وإلى جانب الدور الذى قامت به الأديرة فى تعلم البنات ، فإنه كان من الممكن إرسال الفتيات إلى قصور سيدات الطبقة العليا فى المجتمع ليتعلمن هناك ويتدربن على أصول التربية الجيدة . (٢)

ومن الأهمية بمكان أن نتعرف على المواد الدراسية التى كانت الفتيات

=وفى عام ١٣٦١ ذهب إلى انجلترا حيث عمل كسكرتير للملكه فيليبا philippa زوجة الملك ادوارد الثالث (١٣١٢ – ١٣٧٧) وبدأ يجمع المادة التاريخية اللازمة للحوليات التى كتبها واستغرقت كتابتها زمنا طويلا ، وغطت الفترة التاريخية الممتدة من١٣٢٧– ١٤٠٠ ، وضمت كذلك حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا . وتعتبر حولياته هذه من أهم مصادر تاريخ غرب أوروبا فى القرن الرابع عشر . وقد احتوى الجزء الأكبر من حولياته على قصص الفرسان وبطولاتهم وقد نشرت هذه الحوليات فى ١٨٦٩ – ١٩٥٧ نشرها كل من :

S. Luce, G Raynaud and Mirot.

للمزيد عن فروسارت راجع :

Wilmotte : Froissart, 1958.

(1) Power : Medieval women , P. 83.

(2) Power : Medieval women : P. 82.

تتعلمها فى هذه الفترة الزمنية ، وهذه المواد كانت عبارة عن اللاهوت ، والترانيم الدينية ، وأعمال التريكو وتربية الأطفال وتضميد بعض الجروح وكيفية مداواة بعض الأمراض ، والكتابة والرسم. وفى منتصف القرن التاسع كن يتعلمن الحساب .

وقامت المدارس ستراتفورد Stratford الفرنسية بتدريس فـــن الزخرفة والموسيقى وأيضا تحضير العطور وعمل المربى والمسكرات والحلوى بصفة عامة . ويقال أن أحدى البنات الحقت بمدرسة بأحد الأديرة وهنـاك تعلمت كثيرا لدرجة أنها تعلمت كيفية تحضير الأرواح . وهذا يدل عـلى إضافة مادة السحر الأسود إلى مناهج الدراسة بمدراس الأديرة . (١)

ولم يقتصر الأمر على تلقى البنات للعلم بل قامت بعض النساء بالتدريس فى المدارس وفى عام ١٢٩٢ سجل أسم أحدى المدرسات اللاتى التحقـــن بالمدارس الصغيرة Little School فى باريس . وفى القرن التالى أى القرن الرابع عشر ذكر أحد رجال التعليم أن «النساء بقين ودرسن فى المدارس فى فن النحو والصرف » وفى ١٣٨٠ وجد اسم واحد وعشرين مدرسه مسجلا مع اسماء المدرسين بهذه المدارس .

وقد أثمر تعليم البنات وأخرج أديبات يشار إليهن بالبنان مثل مارى دى فرانس (٢) Marie de France وكريستين دى بزان Christine de Pisan التى أطلق المعاصرون عليها اسم (المرأة المثقفة) والتى دافعت بقوة وحماس وبلاغة عن تعليم النساء .

(1) Power : Medieval women, P. 82.

(٢) يوجد صفحة (٨٧) نبذة عن مارى دى فرانس .

وقد ذكرت كريستين دى بيزان أن أحد أساتذة الجامعات فى إيطاليا ، قد عمل على تثقيف أبنته ، وكان يرسلها فى بعض الأحيان لتلقى المحاضرات نيابة عنه ، ولما كانت هذه الأبنة رائعة الجمال ، فقد كان والدها يطلب منها أن تضع حجابا على وجهها حتى لاتصرف أنتباه الطلبه عن الدرس . (١)

وفى نهاية العصور الوسطى زادت نسبة المتعلمات ، وتقول المؤرخةبور «أنمعظم الرجال والنساء فى القرن الخامس عشر كانوا يعرفون القراءة ، والكتابة وأن كانت تهجئتهم للكلمات وطريقتهم فى الترقيم غريبة ، ولكـــن ليس فى هذا بأس كبير ، فقد كانت معانيهم جلية الوضوح» . (٢)

وفى عام ١٤٠٥ فى عهد الملك هنرى الرابع (١٣٩٩ — ١٤١٣) ملك أنجلترا صدر المرسوم الشهير الذى ينص على مايلى :

,,كل رجل أو أمرأة ، مهما تكن حالته، سوف يكون حرافى الحاق أبنه أو أبنته للتعليم فى أى مدرسة يشاء داخل المملكة,, . (٣)

وفى خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر أوضحت الوصايا التى تركها أصحابها حيازة النساء لبعض الكتب ، وكانت هذه الكتب فى معظمها كتبا دينيـة مثـل سفر المزامير وترتيـل الصلوات وفى بعض الأحيان كتب القصائد الشعرية وقصص البطولة والمغامرات العاطفية ، وأن كانت إحدى السيدات قد تركت لزوجة أبنها «كل كتبى اللاتينية والأنجليزية والفرنسية» ومعنى ذلك معرفة هذه السيدة لكل هذه اللغات ، كما كانت بعض السيدات

(1) Power : Medieval women, P. 82.

(٢) بور : نماذج بشرية من العصالوسطى ، ص ١٨٥ .

(3) Power : Medieval women, P. 84.

يقمن بترجمة بعض الأبحاث الطبية وخصوصا فى أمراض النساء لتستفيد بها السيدات فى علاج بعض أمراضهن دون الحاجة لعرض أنفسهن على طبيب من الرجال .

وأحد هذه الأبحاث يرجع للقرن الرابع عشر ، ترجم إلى الأنجليزية . وكتبت فى مقدمة الترجمة مايلى : ,,من المستحسن للنساء اللائى يتحدثن بلغتنا ويقرأن ويفهمن هذه اللغة عن أى لغة أخرى ، وعلى كل أمرأة متعلمة أن تقرأ لأخريات غير متعلمات وتساعدهن وتشير عليهن بالنصح فى أمراضهن دون أن يطلعن على مرضهن الرجل,, . (١)

أما فيما يتعلق بملابس النساء فقد كانت عرضة للتطور من وقت لأخر ، وكانت هذه الملابس فى بادئ الأمر بسيطة للغاية إذ كانت عبارة عن فستان طويل يمتد من أعلى الرقبة حتى الأرض . غير أنه بعد ذلك أدخلت عليها تطورات فأصبحت ذات ذيول طويلة وبعضها أصبح ذا فتحات من الصدر . والبعض الأخر كان على جانب من الأحتشام بحيث يكون مقفلا وذا (ياقة) وكان ينبغى على السيدة المهذبة أن تولى (ياقة) ثوبها عناية خاصة . كذلك أصبحت أثواب السيدات مطرزة بالشرائط الحريرية ومزينة بالأحزمة الفضية ومرصعة بالدبابيس الفضية والجوهرات . وقد كانت السيدات يعنين بثيابهن الثمينة كعنايتهن بمجوهراتهن وقد كن يرتدينها سنة بعد سنة على مدى العمر ، وكن يوصين بها لغيرهن بعد وفاتهن .

كذلك أرتدين المعاطف وأستعملت سيدات الطبقة الراقية الفراء الثمين . وكن يضعن فى رؤوسهن دبابيس للشعر ذهبية ، وبعد تصفيف شعورهن

(1) Essays in the Histroy of Medicine, Presented to Karl Sudhoff, ed. charles singer and Henry Sigerist, oxford, 1924, P. 129.

كن يضعن فوقها عصائب للرأس . وأستعملن أيضا القبعات العريضة المبطنة بالفرو والتى يبلغ عرضها (عرض الدرقة والتراس) . كما أستعملن غطاء للرأس ذا قرون وعرفن الشعور المستعارة وقد كانت الجباه العريضة هـى المودة الشائعة فى أواخر العصور الوسطى . لذلك كانت السيدات يحلقن شعر مقدم الرأس لتبدو جباههن أعرض مما هى عليه . (١)

أما عن الراهبات فقد كان عليهن أرتداء الملابس السوداء القاتمة ، وعليهن أيضا أن يرخين خمرهن حتى تلامس حواجبهن . (٢) غير أنه بعـد الفساد الذى تطرق للأديرة أصبحت الراهبات يقلدن السيدات الدنيويات فى ملابسهن خاصة وأنهن كن يختلطن بهن حين ينزلن ضيوفا على الدير ، أو أثناء خروج الراهبات وقيامهن بزيارات لبعض الأسر . وهكذا أخذت الأزياء الحديثة تغزو حتى الصالحات من الراهبات ، فأصبحن يرتدين الملابس الغالية الأسعار الفاتحة الألوان العارية الصدور المطرزة ، بالشرائط الحريرية والأحزمة الفضية والأحذية المزينة بالشرائط ، وأستعملن الفراء الثمين ودبابيس الشعر الذهبية والقبعات العريضة المبطنةبالفروإلىغير ذلك ، تماما كالسيدات الدنيويات .

وقد جاء فى وصف رئيسة أحد الأديرة أنها وتتزين بخواتم ذهبية فادحة الأثمان وأحجار كريمة مختلفة الأشكال والألوان ، وأحزمة مموهة بالفضة والذهب ، وخمر حريرية وأنها ترفع خمارها فوق جبينها عاليا ، بحيث يصبح جبينها العارى نهبا لانظار الجميع ، وأنها ترتدىالفرو الثمين ، ثم أنها ترتدى

(1) Stephenson : Medieval Fendalism New Yoık, 1942, PP. 61 - 62.

بور : نماذج بشرية ، ص ١٢٨ ، ص ١٦٤ .

انظر الصورة رقم (٥) لنماذج من ملابس النساء وقبعاتهن .

(٢) انظر الصورة رقم (٦) لملابس الراهبات التقليدية .

ثيابا مطرزة بالشرائط الحريرية مرصعة بالدبابيس الفضية والفضية المموهة بالذهب . وقد جعلت الراهبات يصنعن صنيعها ، ويحتذين مثالها ، وهى ترتدى فوق خمارها قبعة فاخرة مبطنة بالفرو . وتتدلى من عنقها قلادة طويلة من الحرير تنتهى أسفل صدرها بحلقة ذهبية وماسة» . (١) وهكذا نجد أن الراهبات لم يتركن شيئا لم يأخذنه عن السيدات الدنيويات ، حتى مودة الجباه العريضة أنتقلت إليهن سريعا ، فكن يرفعن خمرهن عاليا حتى تظهر جباههن..

وبالإضافة إلى رئيسة الدير هذه جاء فى وصف تشوسر لمدام إجليتتاين مايلى :

أما رأسها فكـــان بكل تأكيد جميل التكويـــــــن
يفصله عن الحاجبين جبين عرضه شـــــــــبر

وبديهى أنه لو لم تكن هذه الراهبة الرئيسه قد خالفت التقاليد التى تحتم عليها أن ترخى خمارها حتى يلامس حواجبها لما أستطاع هذا الشاعر الأنجليزى أن يرى هذا الجبين الذى يبلغ عرضه شبر .

وقد حاول الأساقفة طوال ستة قرون متتالية محاربة الأزياء الحديثة داخل الأديرة غير أن محاولاتهم أنتهت بالفشل . فالمرأة هى المرأة دائما ، والنساء مولعات فى كل الأزمنة بكل ماهو جديد وخاصة إذا كان هـذا الجديد يتعلق بالأزياء المبتكرة .

---

(١) بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ص ١٢٨ .

الفصل الخامس

المرأة في الحياة العامة

يقول المؤرخ ستيفنسن Stephensen : «لقد سلم عصر الإقطاع بالقول المأثور أن مكان المرأة هو البيت ، فطالما كانت المرأة لاتستطيع أن تكون فارسا ، فأى شئ تريد أكثر من أن تكون زوجة وأم لعدة أبناء» (١)

وهناك قول آخر عرف فى العصور الوسطى هو : «أن المرأة خلقت لتكون رفيقا للرجل ولكن دورها الوحيد يجب ألا يتعدى الحمل والولادة» (٢)

على أن هذه الأقوال ليست صحيحة فى كل الأحيان ، فقد ساهمت النساء فى أوروبا فى العصور الوسطى فى مختلف ميادين الحياة العامة ، ففى ميدان السياسة والحرب شاركت المرأة فى حضور الاجتماعات السياسية رغم تحذير الأساقفة للنساء ونهيهن عن حضور تلك الاجتماعات .

ففى القرن التاسع نهى أسقف مدينة Nantes النساء عن حضور ، الاجتماعات السياسية ولكن رغم هذا ظل لهن نصيب فى الانتخابات العمومية وإدارة المجالس البلدية فى جنوب فرنسا حتى القرن الحادى عشر . وفى عام ١٣٠٨ م كانت هناك نساء فى مدينة Touraine جديرات بالتعضيد فى أنتخاب نواب جمعية الولايات . (٣)

وخلال القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر كانت هناك حاكمات عظيمات أمثال الأمبراطورة ماتيلدا الكبيرة التى تولت حكم نورمانديا أثناء غياب زوجها وليم الفاتح (١٠٦٦ - ١٠٨٧) فى أنجلترا . وبلانش صاحبة قشتالة التى فرضت شخصيتها على كل فرع من فروع الحياة الفرنسية فى النصف الأول من القرن الثالث عشر بوصفها وصية على أبنها لويس التاسع

(1) Stephenson : op. cit., P. 268.

(2) Heer : op. cit., P. 264.

(3) Heer : op. cit., P. 261.

والأميرة بلانش أميرة شمبانيا التى تولت الحكم فى بلادها وأشعلت حربا عنيفة لمدة أربعة عشر عاما (١٢١٣ – ١٢٢٧) من أجل أبنها الصغير الذى كان لايزال تحت الوصاية .

وهناك أيضا أرمنجارد Ermengarde كونتيسة ناربون التى حكمت بلدها وقادت جيوشها لمدة خمسين عاما ، والتى أشعلت حروبا عديدة فى سبيل المحافظة على أراضيها ، والجدير بالذكر أن شهرة أرمنجارد لم تقتصر على السياسة والحرب فقط بل كانت ذات شهرة عظيمة كقاض وحكم فى كثير من المشكلات المعقدة للقانون الإقطاعى . (١)

وبينما كان فيليب أوجسطس ملك فرنسا (١١٨٠ – ١٢٢٣) مشغولا بتوحيد البلاد تحت سلطة التاج ، كانت بقاع كثيرة من فرنسا تحكمها النساء مثل اليانور دوقة أقطانيا واليكس أوف فيرجى التى حكمت برجنديا ، والكونتيسة بلانش فى شمبانيا وقد أدرن دفة الحكم بمهارة وعملن جاهدات على النهوض بالبلاد التى حكمنها .

وأثناء الحروب الأسكتلندية (٢) ظهر اسم سيدتين قامتا بدور كبير فى هذه الحروب وهما ، الكونتيسة بوشان Buchan التى دافعت عن قلعة برويك

(1) Heer : op. cit., P. 261.

(٢) الحروب الاسكتلندية بدأت فى عهد ملك انجلترا ادوار الأول ، حينما انتهت السلالة المباشرة للبيت المالك فى اسكتلنده فى ١٢٩٠ ، فتدخل الملك ادوار الأول فى مسألة اختيار وريث للعرش بغرض فرض سيطرته على اسكتلنده . ولكن الاسكتلنديين ملوكا وشعبا رفضوا التدخل الانجليزى فى شئونهم . ومن ثمة قامت الحروب بين الطرفين واستمرت خلال عهود من تلاه من الملوك الانجليز . راجع عن ذلك :

Tout : The History of England (1219 - 1377), London, 1920, 234 - 307.

Stephenson : Medieval History, PP. 490 - 536.

Berwick ضد ملك أنجلترا أدوارد الأول (١٢٧٢ – ١٣٠٧) الذى علقها بعد أن وقعت فى يده فى قفص على أكمة حولها سور حتى يهزأ بها جنوده . والثانية هي بلاك أجنس Black Agnes الشهيرة كونتيسة دنبر Dunbar التى دافعت فى سنة ١٣٣٨ عن قلعة دنبر ضد ملك أنجلترا أدوار الثالث (١٣٢٧–١٣٧٧).

وجاء فى إحدى الحوليات الأسكتلندية أبيات من الشعر بالأنجلزية القديمة تعارض تعذيب السيدات اللاتى يتولين الدفاع عن قلاعهن ضد العدو ، لأن الدفاع عن النفس والممتلكات حق مشروع للجميع كذلك تعطى فكرة عن مدى صلابة النساء فى الدفاع عن ممتلكاتهن ، تقول الأبيات (١) :

نعاقب السيدة دون كشفها أو تأنيبهـــا

نعاقب الأميرة دون خطأ أو جريمـــة

عنيفة كلها رجولة ، كأنها من نوع الرجـــال

فلماذا نكون ضدها ، وقد كانت تدافع عن قلعتهـــا؟

هذا ، ولم يقتصر نشاط المرأة فى ميدان السياسة والحرب على نساء الطبقة العليا فقط ، بل ساهمت بنات الريف أيضا فى هذا الميدان ولعل أشهرهن هى جان دارك Jeanne D'arc ، وهى أبنة أحد الفلاحين الفرنسيين الفقراء ويدعى جاك دارك Jaques D'arc وقد عاشت هذه الفتاة فى القرن الخامس عشر أثناء حكم الملك شارل السابع (١٤٢٢ – ١٤٦١) ، وعندما بلغت السابعة عشر من عمرها يقال أنها أخذت تسمع هاتفا يناديها ويدعوها للاسراع فى أنقاذ بلادها من الأحتلال الأنجلزى وكان ذلك خلال حرب المائة عام (١٣٣٧ – ١٤٥٣) التى أشتعلت بين فرنسا وأنجلترا وقد دفعها ذلك إلى

(1) The Buik of the croniclis of Scotland, ed. W. B. turnbull Rlls series, Vol III, London, 1858, PP. 341 - 342.

الذهاب إلى بلاط الملك شارل السابع فى شينون Chinon وأستطاعات أن تقنعه بتزويدها برداء عسكرى وبعض الجنود لأنقاذ مدينة أورليان من الحصار الذى فرضه الانجليز عليها ، وقد تمكنت رغم ذلك الحصار من أن تدخل إلى المدينة ومعها الأمدادات والمؤن . وقد أدى ظهورها فى أورليان وحماسها للدفاع عن المدينة إلى تقوية الروح المعنوية لدى المدافعين عن أورليان فقويت هممهم ، وتمكنوا من رد هجمات الأنجليز وأجبارهم على الأنسحاب .

وقد أخذت جان تحث الملك شارل على الحضور إلى مدينة رِيمس حيث تم تتويجه بها فى ١٤٢٩ فى كتدرائية ريمس الكبرى ، وقد وقفت جان خلفه تبكى من شدة الفرح .

بعد ذلك وبعد أن قامت جان بدورها فى إنقاذ بلادها من الاحتلال الأنجليزى لها أعلنت عن رغبتها فى العودة لقريتها الصغيرة لتمارس حياتها الأولى فى رعى الأغنام. ولكن فى طريقها إلى قريتها وقعت فى أسر البرجنديين فى مايو ١٤٣٠ ، وقد باعها دوق برجنديا إلى الأنجليز مقابل عشرة آلاف فرنك ذهبى ، وأتيح لهم الأنتقام منها ، فأتهموها بالهرطقة والشعوذة ، وأصدروا حكمهم عليها بالأعدام حرقا . وتم ذلك بالفعل فى وسط ميدان سوق مدينة روان فى ١٠ مايو ١٤٣١ . وفى سنة ١٤٥٥ نظرت البابوية فى قضيتها وثبت براءتها مما نسب إليها من هرطقة وأعتبرها الشعب الفرنسي قديسه.

وقد أعلن البابا بيوس العاشر فى سنة ١٩٠٩ ثم البابا بندكت الخامس عشر فى سنة ١٩١٩ تطويبها وتمجيدها فى السماء لتصبح فى عداد الشهداء.(١)

(١) فيما يتعلق بجان دارك والدور الذى لعبته فى تاريخ فرنسا راجع المراجع التالية :

Chabot H. : Jeanne D' Arc , Libraire Larousse, Paris, Vie, 7 edition, Aurie 21941, PP. 12 - 80.

وفى ميدان الأقتصاد ، كانت النساء يقبلن على الأشتغال بالصناعة وكن منافسات خطرات للرجال ، على الرغم من أن العمل كان شاقا ، وكانت ساعاته فى باريس مثلا تتراوح مابين ٨ — ١٦ ساعة يوميا ، وفى بعـض البلاد الأخرى كانت تتراوح مابين ١١ — ١٤ ساعة يوميا . (١)

على أن كثيرا من اللوائح المنظمة للحرف الصناعية ، حرمت أستخدام النساء ، وبنى معظم تلك اللوائح سبب التحريم على أساس أن منافسة النساء تبخس أجور الرجال . (٢) إذ أن أجر المرأة كان يتساوى مع أجر الصبى الذى مازال تحت التمرين ، وكان هذا الأجر يقل كثيرا عن أجر المعلم ، حتى لوقامت المرأة بنفس العمل الذى يقوم به المعلم . (٣)

وفى أواخر العصور الوسطى أستغنى عن الصانعات الماهرات وأستبدلن بالصناع من الرجال ، وكان ذلك سببا فى بطالة الكثيرات من النساء . (٤)

على أنه كانت هناك صناعتان على وجه الخصوص ظلتا بأيدى النساء لسهولة مزاولتها فى المنازل وهما صناعة البيرة التى كانت شراب الغالبية العظمى من الناس فى تلك العصور ،والثانية هي ندف الصوف وتمشيطه وغزله ، تلك العمليات التى كانت تعتبر ثانوية تقوم بها النساء فى أكواخهن ، فى الجهات

=
Perrey : La guerre de cent Ans, Paris, 1954, PP. 248.
Pirrene : La Fin du Moyen Ages, tome I, paris, 1931, PP. 442-443.
Painter : A History of the Middle Ages, PP. 354 - 357, 390, 456.

(1) Boissonnade (P) : Life and Work in Medieval Europe, Kegan Paul 1937, P. 221.

(2) Crump & Jacob : op. cit., P. 221.

(3) Boissonnade : op. cit., P. 221.

(4) Heer : op. cit., P. 264.

التى قامت فيها صناعة النسيج على نطاق واسع مثل فلورنسا وهولندة و أنجلترا (١).

وفى ميدان التجارة نجد أن زوجات التجار كن يساعدن أزواجهن فى هذه المهنة فأذا سافر الزوج بعيدا عن مدينته كان زوجته تحل محله فى إدارة شئون تجارته ، وكثيرا ما كان يرسل لها البضائع لتتولى عرضها وبيعها فى السوق . وعلى سبيل المثال أعتاد أحد التجار ويدعى وليم دارنر من مدينة بوسطن فى أنجلترا وكان يتاجر فى الأسماك أن يرسل لزوجته أثناء غيابه أسماكا مجففة وبضائع أخرى لكى تعرضها فى السوق للبيع كما تفعل فى البضائع الأخرى . (٢)

هذا ، ولم تتوان النساء عن طرق ميدان التجارة الخارجية ، وقد كن قادرات حقا على تصريف كافة الأعمال المتعلقة بها بمهارة فائقة . (٣)

أما فى الزراعة فقد كانت النساء الفلاحات . (٤) والنساء من طبقة الأقنان يعاون أزواجهن فى الحقول فيعملن فى بساتين الكروم والخضر ويقمن بمختلف أنواع العمل فيما عدا الحرث الذى كان عملا شاقا بالنسبة لهن .

أما بنات القن غير المتزوجات فقد كان فى أستطاعتهن أن يستخدمن سواعدهن القوية نظيرا أجر قطع الأعشاب وعزق الأرض والمعاونة فى جمع المحصول . أما الأرامل والعانسات من طبقة الأقنان فكانت لهن حصص صغيرة

---

(1) Crump & Jacob : op. cit. P. 412.

وانظر الصورة رقم (٧) كنموذج لممارسة النساء لصناعة النسيج .

(2) Crump & Jacob : op. cit. P. 426; Power, Medieval Women, P. 57.

(3) Heer : op. cit. P. 261.

(٤) انظر نموذج لممارسة النساء للفلاحة فى الصورة رقم (٨) .

من الأرض يقمن فيها بنفس الخدمات التى يقوم بها الرجال ويعشن على ماتغله تلك الحصص . (١)

وإذا تركنا الأقتصاد إلى الأدب وجدنا أسماء نساء تتردد فى هذا الميدان أمثال الكونتيسة بياتريس التى عبرت فى قصائدها الوجدانية الخمس عن حبها للكونت رامبوت أوف أورانج Raimbaut of Orange ، وهناك أيضا تيبرجا Tiberga أبنة بياتريس ، وكاستلوكس Castellox ، وكلارا أوف أندوس Clara of Anduse وأيزابيلا أوف مالا سبينا Lasabella of Malaspina ، ومارى أوف فنتادور Marie of Ventadour وهناك أيضا الأديبة الشاعرة الفرنسية الشهيرة مارى دى فرانس .د Marie de France التى عاشت فى منتصف القرن الثانى عشر وقضت بضع سنين فى بلاط الملك هنرى الثانى (١١٥٤ — ١١٨٩) وزوجته الملكة اليانور وقد خلفت مارى أثنى عشر قصيدة بدأتها بقولها فى ثقة وأعتزاز :

Marie mon nom, Je suis de France

وقد برعت مارى فى كتابة قصص الحب والمغامرات وسارت على العرف الشعرى المألوف فى ذلك الوقت . (٢)

وفى أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر ظهرت الكاتبة الأديبة الفرنسية كريستين دى بيزان Christiene De Pisan ولدت كريستين فى مدينة البندقية ثم هاجر أبواها إلى فرنسا وهى طفلة صغيرة وأستقرا بها، وقد تزوجت كريستين فى عام ١٣٧٢ من نبيل فرنسى يدعى أتين كاستل Etienne Castel لكن حياتها الزوجية لم تستمر طويلا فلم

(1) Crump Jacob: op. cit., P. ,461.

(٢) للمزيد عن مارى انظر المراجع التالى :

Baum R. · Recherches sur les oeuvres attribueesa Marie de France, Paris, 1968.

يلبث زوجها أن توفى فى عام ١٣٨٩ ، وكانت كريستين لاتزال زهرة يانعة رائعة الجمال صغيرة السن . (١) ولم يترك لها زوجها موردا ماليا تنفق مـنه هى وأولادها الثلاثة ، فأخذت تكافح كفاحا مريرا بكل شرف وعفة وعملت على تثقيف نفسها وتعلمت كيف تحصل على لقمة العيش عن طريق قلمهـا الذى أصبح فيما بعد سيفابتارا لها أستعملته ضد أولئك الحاقدين على المرأة ، وأصبحت باحثة أديبة يشار إليها بالبنان وخصوصا بعد أن ظهرت رسالتها البحثيتان المنشورتان بأسلوب فلسنى منطقى سهل يقرأه العامـــة والخاصة ، وكانت الرسالة الأولى بعنوان « مدينة النساء » La cite de Dames والذى تحكى فيه قصصا من واقع الحياة ، تعبر عن الشكوى وتشرح فضائل المرأة وسجاياها .

والرسالة الثانية عن «كتاب الفضائل الثلاثة » Le Liver Des trois Vertus وهى رسالة بحثية تربوية تبصر النساء بواجباتهن ودورهن فى المجتمـع بمختلف طبقاته .

وقد أطلق المعاصرون على كريستين اسم ,,نصيرة النساء,, لدفاعها المستمر عن المرأة . وقد وضعت النساء خطة محكمة تحت أشرافها للدفاع عن أنفسهن وحقوقهن فى المجتمع ،وعقدن أحتفالا كبيرافى عام ١٤٠٠ فى عيد القديس فالنتين St . Valentine لتكريم المرأة ومهاجمة الأشعار التى تعاديها ، ومطاردة الكتب التى تناصبها العداء .

ولكريستين أعمال تاريخية كذلك ، لعل أهمها كتابها عن عصر الملك شارل الخامس (١٣٦٤ — ١٣٨٠) كما مجدت كريستين شخصية جان دارك وألفت شعرا عن قيادتها الجيش فى أورليان .

---

(١) انظر الصورة رقم (٩) لكريستين دى بيزان .

وقد نشرت أعمال كريستين الأدبية والتاريخية فى ثلاث مجلدات خلال سنوات ١٨٨٦ – ١٨٩٦ . (١)

وفى ميدان الطب نجد أن بعض النساء قد أشتغلن بمهنة الطب ونالت بعضهن شهرة عظيمة ولعل أكثرهن أثارة للاهتمام ، سيدة من أسرة عريقة تدعى جاكلين فيلشى Jaqueline Felicie de Almania وكانت تلقب بالسيدة النبيلة وأغلب الظن أنها من أصل ألمانى ، وقد عاشت هذه ، السيدة فى النصف الأول من القرن الرابع عشر ، وكانت غاية فى المهارة وقد شفى على يديها عدد كبير من المرضى بعد أن يئس الأطباء من ذوى المؤهلات الجامعية من شفائهن . غير أن مهارتها هذه لم تحل دون أن تقدمها كلية الطب فى باريس للمحاكمة بتهمة مخالفة القانون الذى يحرم على أى شخص مزاولة مهنة الطب فى المدينة أو ضواحيها دون أن يكون حاصلا على الدرجة الجامعية وعلى تصريح مزاولة مهنة الطب من مدير الجامعة . (٢)

(١) فيما يتعلق بكريستين دى بيزان واعمالها الادبية والتاريخية راجع :

Nyss : Christine de Pisan et ses Principales eeuvres, Brussels, 1914.

Rigaud : Lesidees feministes de christine de Pisan, Nevfchistel 1911.

Pinet : Cnhristine de Pisan, Paris, 1927.

(2) Crump & Jacob : op. cit., P. 422.

وفيما يتعلق بالمزيد من التفاصيل عن جامعة باريس فى العصور الوسطى ، انظر المراجع التالية :

Allain, E. : "L' Universite de Paris au XIII et VIe Siecle, dans Revue du clerge Francais, Iv (1895) ,PP. 193 - .322.

Crevier Y. B., Histeoire de L' universite de Paris depius son origine Jusqu' en l' annee 1600. 7 Vols., Paris 1761.

Dubarle, E. ,Histoire de l' universite de Paris, 2vols, Paris 1844.

وفى أثناء محاكمتها أقر أحد الشهود بصريح العبارة ,, لقد سمعت الكثيرين يقولون أنها طبيبة حصيفة فى فن الجراحة والعلاج أفضل من أعظم طبيب خبير أو جراح فى باريس,, ولقد أعدت جاكلين لنفسها دفاعا مجيدا دللت به على أن القانون التشريعى الذى أعد للمحكمة لحكم بمقتضاه قصد به الجهلة عديمى الدراية والأشخاص البلهاء الذين لايعرفون فن الطب . فى حين أنها فقهت جيدا ودربت فيه بمهارة كما يتضح من علاجها الحاسم الناجح ، وأخذت تتحدث عن الحاجة إلى الطبيبات عموما قائلة أن نساء عديدات يخجلن أن يكشفن عن أمراضهن وعللهن للطبيب الرجل ولهذا السبب فإن أولئك النساء يفارقن الحياة بأسرع مما يجب .

وقد حكمت عليها المحكمة بدفع الغرامة وحرمت عليها مواصلة هذا العمل، والغالب أنها دفعت الغرامة وأستمرت فى مزاولة مهنتها هذه . (١)

ولم تكن جاكلين هى المرأة الوحيدة التى كانت تزاول هذه المهنة بباريس فى هذه الفترة ، إذ كانت هناك امرأة تدعى جوانا Joanna التى كانوا يطلقون عليها اسم (الاخت العلمانية) لأنها كانت متزوجة ، وهناك ايضا بلوتا اليهودية Belota the Yemess ومارجريت أوف ييرز Margaret of Yepres وقد وصفن جميعا بأنهن جراحات وحرم عليهن مزاولة مهنة الطب (٢) ، وجاء ذكر لنساء آخريات كن يشابههن وجدن ما بين أعوام ١٣٢٢–١٣٣١ .(٣)

---

(١) يوجد تسجيل لمحضر الجلسة فى المصدر التالى :

Chartularium Universitatis Parisiensis, ed H. Denifle, Paris, 1889 - 97, vol II, PP. 255 - 267.

(٢) يوجد فى نفس المصدر السابق تسجيل لمحاضر جلسات محاكمة جوانا دبلوتا ومارجريت ص ٢٥٦ .

(3) Ibid : P. 267.

وعلى الرغم من الاعباء الكثيرة التى القيت على عاتق السيدات على اختلاف طبقاتهن إلا أنه وجد لدىهن بعض الفراغ ، شغلته بكثير من الوان التسلية التى كانت أهمها وأكثرها شيوعا ، قراءة القصص والاستماع اليهاسواء كان الراوى سيده أخرى أو قريب أو بائع متجول ، ولاشك أن السيدات كن يتزاورن ، فتجتمع بعض الصديقات فى بيت أحداهن يتسلين بلعب الشطرنج أو الدومينو ، ويتبادلن الالغاز وبعض الالعاب الاخرى التى صارت منذ قرون من العاب الاطفال ، كالاستخفاء ، والفوازير وغيرها ، فان لم يرغبن فى اللعب قضين الوقت فى الغناء والرقص ، وجدير بالذكرأنسيدات الطبقة العليا كن مولعات بأقامة الحفلات الراقصة من وقت لاخر كما كان يحلو لهن الطواف بحدائق قصورهن يجمعن الزهور ويصنعن منها القلائد (١) .

وكان الاستماع إلى المواعظ الدينية يعتبر لونا من الوان التسلية إلى جانب كونه وسيلة لتنمية المعرفة — وتعبر إحدى السيدات عما قامت به فى وقت فراغها فتقول :

قمت ببعض الزيارات
وذهبت لرؤية مواكب وإحتفالات
وخطب ومواعظ دينية
والمناظر التمثيلية والزينات
وذهبت لحفلات العرس

وإذا ماذهبت السيدة من الطبقة العليا إلى ضيعتها بالريف كان باستطاعتها الخروج للصيد برفقة جماعة من الجيران المرحين . كما أعتاد

(١) بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ص ١٧٣ .

الأمراء أن يصطحبوا نساءهم معهم عند خروجهم للصيد . وقد كان الصيد بالصقور هو التسلية المفضلة عند السيدات .

أما عن الفلاحات وزوجات الأقنان فقد حظين أيضا ببعض ألوان التسلية ، وذلك فى وقت الفراغ الضيق الذى تمتعن به فى أيام العطلات ، وقد كن يقضين هذه الأيام بالأشتراك مع أزواجهن فى الرقص والغناء والمزاح والمجون ، وكان فناء الكنيسة هو المكان المفضل الذى يختارونه دائما لرقصهم وكانت كل الأغانى التى يرددونها وهم يرقصون أغانى وثنية توارثوها عن أجدادهم الأقدمين . وقد كانوا مصدر أزعاج للقساوسة إذ كانوا ، يقلقونهم ويبعدون النوم عن أعينهم بما يفعلونه فى لهوهم هذا .

ومن طريف مايذكر فى هذا الصدد تلك القصة التى تقول أن أحد القساوسة فى مقاطعة ودستر ظل يقظا طوال الليل لأن أصوات المغنين والراقصين فى فناء الكنيسة كانت تتسلل إلى أذنيه وتبعد عنه النوم . ولم يستطع القس أن يبعد عن فكرة تلك اللازمة التى كانوا يرددونها فى أعقاب أغانيهم وهى : «أعطنى على ياحبيبتى» . وفى صباح اليوم التالى وأثناء تلاوته للقداس قال : «أعطنى على ياحبيبتى» بدلا من أن يقول : «ليحفظكم الرب» . (١)

وإلى جانب ذلك كانت هناك تسلية أخرى تحدث فى العام مرة واحدة وهى سوق القديس دينيس St. Denys بالقرب من باريس ، وهو مثل أسواق الموالد فى البلاد الإسلامية ، كان يجتذب إليه عددا كبيرا من الجماهير من مختلف البلاد المسيحية يأتون إليه بقصد التبرك والزيارة والبيع والشراء . وكانت الفلاحات وزوجات الأقنان يذهبن مع أزواجهن وأولادهن للتجول

---

(١) بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ص ٣٦ .

فى هذا السوق ومشاهدة معروضاته من السلع الغريبة التى كانت تزدحم بها الحوانيت والمظلات . (١)

ولم تحرم الراهبات كذلك من وسائل التسلية ، ولاسيما بعد أن فسدت الأديرة وغدت موئلا للفتاة الخيرة والشريرة على السواء . إذ كانت الراهبات يقضين وقتا فى المسامرات الليلية والأنغماس فى الثرثرة ولغو الكلام بعد الأنتهاء من الصلاة اليومية الأخيرة بدلا من الذهاب توا للنوم كما تقضى بذلك أنظمة الدير . وقد كان يتخلل هذه المسامرات تناول بعض الشراب

أضف إلى ذلك قيامهن بالطواف خارج الدير وعمل زيارات لبعض ، الأمر أو حضور حفلات الزفاف وحفلات الرقص التى كانت تقيمها السيدات الدنيويات ، هذا على الرغم من أن رأى الكنيسة فى الرقص كان واضحا غاية الوضوح ولايحتمل تفسيرين فقد كانت تعتبر ,,أن الشيطان هو مخترع الرقص ومدبر شئونه,, . وكذلك كان رجال الدين يعتقدون أن أبليس اللعين قد أرسل ثلاثة أبالسة صغار لهلاك الراهبات هم : «الرقص والملابس والكلاب».

وربما تطرفت بعض الراهبات فى اللهو كتلك الراهبة ,,التى قضت ليلة الأثنين بصحبة رهبان أوستن فى نورثمبتن ورقصت معهم وضربت على الطنبور وقضت الليلة التالية بصحبة الرهبان الوعاظ فى نور ثمبتن ضاربة على الطنبور مغنية راقصة كما فعلت فى الليلة السابقة .. (٢)

على أنه كانت هناك هواية مارستها الراهبات ولاشك أنهن أخذنها عن

(1) Pirrene : Economic and Social History of Medieval Euorope London, 1947, PP. 10 - 11

(٢) بور نماذج بشريه . ص ١٣٤

السيدات الدنيويات اللائى كن ينزلن ضيوفا على الأديرة تلك هى هواية تربية الكلاب .

وقد كانت الراهبات أول الأمر يشتكين مر الشكوى من أصطحاب السيدات للكلاب أثناء أقامتهن بالدير . ولكن سرعان ماألفت الراهبات الكلاب ووجدن فيهم حيوانات أليفة لطيفة المعشر فأقبلن على أقتنائها والعناية بتربيتها حتى أصبحن لايستطعن مفارقتها .

وكثيرا ماأصدر الأساقفة أوامرهم إلى رئيسات الأديرة بطرد هذه الكلاب التى كانوا يعتبرونها واحدة من ثلاث أرسلها الشيطان لهلاك الراهبات. ولعل أشهر هذه الأنذارات تلك التى أرسلها أحد الأساقفة إلى رئيسة دير روكس عام ١٣٨٧ يقول : ,,وحيث أن الصدقات المتوجهة للفقراء تبتلعها كلاب الصيد وغيرها من أنواع الكلاب التى تعيش فى فناء ديركم وأرباضه ، وحيث أن هذه الكلاب تنجس الكنيسة والدير وحيث أن القداس كثيرا مايضطرب بأصواتها المنكرة ، فنحن نوصيك أيتها السيدة الرئيسة ونأمرك أمرا قاطعا أن تبعدى الكلاب جميعا عن الدير وأن تمنعى وجودها فى حرم الدير فى مقبل الأيام,, . (١)

غير أن هذه الأوامر لم تنفذ إلا لساعات معدودات تلك التى يكون فيها الأسقف موجودا داخل جدران الدير ومتى غادرة كانت الراهبات يصفرن لكلابهن فتأتين راكضات وربما كانت رئيسة الدير نفسها هى أولى الفاعلات

---

(١) بور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ص ١٣ .

إذ أن الرئيسات أيضا كن مولعات بتربية الكلاب والعناية بهم . وقد سبق التعرض لوصف تشوسر لعطف مدام ايجليتنا ين على كلابها حين قال :

وكان لها كلابا صغارا تطعمها اللحم المشوى
والحليب والخبز الابيض اللطيف
وكانت تبكى بكاء مرا اذا مات احدها
او اذا ضربه احد الناس بالعصا ضربا موجعا .

الفصل السادس

دراسة مقارنة مع مركز المرأة في الإسلام

لقد اتضح جليا من خلال هذا البحث عن مركز المرأة فى الغرب الاوروبى فى العصور الوسطى ان نظرة المجتمع الغربى الوسيط للمرأة قد تطورت فبعد ان كانت النظرة اليها فى المرحلة المبكرة من العصور الوسطى انها اداة من ادوات الشيطان ووعاء للأثم وتكاد تتشابه مع الحيوان الذى لاروح لـــه بعد موته ، اذا بهذه النظرة تتغير تدريجيا حتى بلغت منزلة ومكانه كبيرة وسامية فى المرحلة الاخيرة من العصور الوسطى ، واصبح لها الدور الاعظم والأهم ، ولم يقتصر دورها هذا على حياتها فقط وانما لعبته كذلك بعـــد وفاتها كما فعلت بياتريس مع دانتى .

ومما لاشك فيه انه كان لنظام الفروسية الفضل الاكبر فى اسباغ ثوبـــ من الاحترام والتبجيل على المرأة ، وصل إلى حد التقديس. وقد رأينا كيف ساهمت المرأة بنصيب فى الحياة العامة دفعها اليها واجباتهاالعديدة كزوجـة و ام سواء كان ذلك اثناء غياب زوجها فى اسفاره أو اثناء اسرة، أو بعـــد وفاته ، أو بصفتها وصية على ابنائها وحريصه على حفظ حقوقهم . وقـــد اشتركت كذلك فى الاجتماعات السياسية والانتخابات وحكمت بعض البلاد بحزم ، وقادت الجيوش ، واحرزت الانتصار كذلك فانها شاركت الرجل فى الصناعة وكانت منافسا خطيرا له يخشى بأسه ، وادارت ميزان التجارة بمهارة وساهمت بنصيب فى ميدانى الطب والأدب ، ولمعت اسماء بعضهن فى هذين المجالين من مجالات الحياة العامة .

ورغم ذلك كله فانه اذا قارنا بين مركز المرأة فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى ، ومركز معاصرتها المرأة المسلمة ، لظهر الفرق واضحـا وهو رجحان كفة المرأة المسلمه . ومن الغريب حقا ، ان بعض المؤرخـين الغربيين مازالوا يوجهون اتهاماتهم للمرأة المسلمة وكيف انها عاشت مهضومة

الحق ، سجينة فى اجنحة الحريم بعيدة كل البعد عن ان يكون لها دور ملموس فى الحياة العامة .

ونسوق على سبيل المثال لا الحصر ، تلك الفقرة التى ذكرها المؤرخ بنتر Painter مصورامركز المرأة الغربية فى عصر الاقطاع ، ثم مقارنته لها بمركز معاصرتها المسلمة . يقول بنتر : « مركز المرأة فى المجتمع الاقطاعى كان بالغ التعقيد ، فطالما انها كانت لا تستطيع ان تمارس القتال ، فانها كانت قاصرا فى العرف الاقطاعى ، كانت دائما تحت وصاية رجل ، فقبل أن تتزوج تكون تحت وصاية والدها ، بعد ذلك تصبح تحت وصاية زوجها وعندما يموت ، تصبح تحت وصاية سيده أو أكبر ابنائها . لم يكن للمرأة أية حقوق قبل زوجها ، وهى بشخصها وممتلكاتها كانت خاضعة تماما لسيطرته وبينما حاولت الكنيسة تقييد وحشية الازواج تجاه زوجاتهم بتحديد حجم العصا التى يضربوهن بها ، إلا أن لمستها هذه لم تحسن وضع المرأة . فقد كانت مصدر كل الشر ، أثم وخطيئة حواء تسببت فى طرد رجل من الجنة ، وهى نفسها كانت الوعاء الذى يتراكم فيه الاثم ، علاوة على ذلك فان الكنيسة اصرت على خضوع الزوجة لزوجها وكان الزوج بالنسبة لزوجته مثل الله بالنسبة له . ولكن قبل أن نتحسر على مركز المرأة فى الفترة المبكرة من العصر الاقطاعى ، يجب أن نقارن مركزها مع مركز مثيلتها فى المجتمعات المعاصرة فالمرأة المسلمة كانت سجينة فى الحريم تحت المراقبة المستمرة للخدم» (١) .

وهكذا رغم ما عرضه بنتر من اجحاف بحق المرأة الغربية فى المجتمع الاقطاعى ، الا أنه يعتبرها أحسن حظا من المرأة المسلمة.ويبدو ان بنتر ،

(1) Painter : History of the Middle Ages, PP. 121 – 122.

وبعض المؤرخين الغربيين ، ليس لديهم ادنى فكرة عن مركز المرأة فى الاسلام بعد أن كرمها القرآن الكريم ومنحها من الحقوق مالم تحصل عليه المرأة الغربية حتى وقتنا الحالى ، ولنأخذ فكرة سريعة عن هذا الموضوع .

لقد منح الاسلام المرأة المسلمه حقوقا كثيرة منها الحق فى ميراث والديها واقربائها كبرت هذه التركه أم صغرت ، قال تعالى « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون نصيبا مفروضا» (١)

ثم حدد الله سبحانه وتعالى نصيب الابنه فى تركة والديها فنص على ان يكون للابنه نصف نصيب الابن الذكر : « يوصيكم الله فى اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ، فان كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ماترك وان كانت واحده فلها النصف»(٢) .

ورب قائل بان فى فرض الاسلام للمرأة نصف نصيب الرجل يعتبر اجحافا بحقوقها ، غير اننا لو تدبرنا الأمر وجدنا ان الرجل مكلف بالانفاق على المرأة فى جميع ادوار حياتها ، مهما كانت صلته بها ، وسواء كان والدها أو شقيقها أو زوجها أو ابنها أو اقرب أقربائها .

حقيقة ان الرجل يأخذ ضعف نصيبها ، ولكن عليه من الاعباء المالية التى فى مقدمتها الانفاق عليها ذاتها مايجعل كفتها من الميراث توازى كفته ان لم تكن أرجح ، ويقول الشيخ عبد العزيز جاويش : « اذا كلف الشرع القوامين عليها من الرجال ان يقوموا بجميع حاجاتها بالمعروف ،فتقدير الشارع

(١) سورة النساء ، الآية ٧ .

(٢) سورة النساء ، الآيه ١١ .

لها حظا من المواريث غاية فى الرأفه بها ورعى جانبها والعناية بشأنها»(١) .

اما عن نصيب الزوجه فى تركة زوجها فقد نص الله تعالى عليه بقولـه « ولهن الربع مما تركتم ان لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم». (٢)

كذلك فرض الله تعالى للأم نصيبا فى تركة ابنائها « ولابويه لكل واحد منهما السدس مما ترك ان كان له ولد فان لم يكن له ولد وورثه ابواه فلأمـه الثلث فان كان له اخوه فلأمه السدس».(٣) وهكذا نصت الشريعة الاسلامية على نصيب للمرأه المسلمه كأبنه ، وزوجه وأم فى تركة المتوفى .

أما بالنسبة لحقوق المرأة المسلمه فى الزواج ، ففى الوقت الذى كانت فيه الفتاه الغربية دميه فى يد والدها يزوجها بمن اراد هو حرصا على مصالحه الماديه البحته نجد الاسلام يترك للفتاه مطلق الحرية فى الزواج بمن ترضاه وعدم ارغامها على الزواج بمن تأبى ، وقد جاء فى الحديث الشريف مايكفل للمرأه الحريه فى هذا الشأن ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتنكح الآيم حتى تستأمر ، ولا البكر حتى تستأذن » ، وقال ايضا « ان الثيب احـق بنفسها من وليها والبكر تستأمر واذنها سكوتها ».(٤)

والمعروف عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه كان يستشير بناته فى امر زواجهن فيأت الواحده منهن ويقول لها : فلان يذكرك ، فان سكتت

---

(١) جاويش : الاسلام دين الفطره والحرية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٨٠ .
(٢) سورة النساء ، الآيه ١٢ .
(٣) سورة النساء ، الآية ١٢ .
(٤) العقاد : المرأه فى القرآن ، القاهرة ، دار الهلال ، ص ٨٧ .

أمضى الزواج ، وان نقرت الستر علم انها تأباه . (١)

واحدى القواعد المعروفه فى الاسلام ، ان كل عقد باطل اذا انكرتـه المرأه أوشكت لولى الأمر اكراهها عليه. وقد فصم الرسول عليه الصلاة والسلام زواج فتاة ارغمها اهلها على الزواج من شخص تأباه ، وقد أتت هذه الفتاة وهى الخنساء بنت خذام إلى الرسول وقالت: ان ابى زوجنى من ابن اخيه ، وانا لذلك كارهه . فقال الرسول : اجيزى ماصنع ابوك . قالت : مالى رغبـه فيما صنع ابى . فقال الرسول : اذهبى فلانكاح له انكحى من شئت . قالت : أجزت ماصنع أبى ولكنى أردت ان يعلم الناس ان ليس للآباء من امـور بناتهم شيئا ولم ينكر الرسول مقالتها .

وكما اباح الاسلام للمرأة المسلمه رفض الزواج ممن تأباه ، اباح لها ايضا الحق فى الزواج ممن تختاره مادام كفءلها، حتى ولو كره ولى امرها تزويجها من هذا الشخص وفى هذه الحاله يتولى القاضى اتمام الزواج بناء على رغبتها ، ويكتب فى عقد الزواج بعد تعيين الصداق مايلى : « وولى تزويجها اياه بذلك القاضى فلان ، باذنها له فى ذلك ورضاها ، وبحكم ان والدها المذكور حضر إلى القاضى فلان ، وسألته ابنته المذكوره ان يزوجها من الزوج المذكور لما ثبتت كفاءته عند الحاكم ، فامتنع ، فوعظه القاضى فلان واعلمه بماله من الأجر فى تزويجها ، وما عليه من الاثم فى المنع ، فلم يرجع إلى عظته واصر على الامتناع ، وعضلها (اى منعها من التزوج ظلما) العضل الشرعى ، وقال بمحضر من شهوده : (عضلتها فلا ازوجها) وبعد ان حضر إلى الحاكم

---

(١) العقاد : فاطمة الزهراء ، القاهرة ، دار الهلال ، ص ٣٠ .

عائشة عبد الرحمن : بنات النبى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٦٣ ، ص٩٦، ص ١٥٨ .

المذكور كل من فلان وفلان وشهدا عنده ان الزوجه خاليه من جميع موانع النكاح الشرعيه ، وان اباها المذكور عضلها العضل الشرعى ، وان هذا كفء لها الكفاءه الشرعية فى النسب والدين والصناعه والحريه فلما وضح له ذلك من امرها ، اذن بكتبه فكتب وزوجها من الزوج المذكور على الصداق المعين وقبله الزوج لنفسه ورضيه». (١)

وفى الوقت الذى لم تكن فيه المرأة الغربية فى العصور الوسطى تتمتع بأية حقوق تجاه زوجها ، بل كانت هى وجميع ماتملك تحت سيطرته التامه وكان زوجها بالنسبة لها مثل الله بالنسبه له كما يقول المؤرخ بنتر ، فضلا عن الصداق الذى تقدمه له عند زواجها منه ، نجد المرأة المسلمه تتمتع بحقوق كثيرة قبل زوجها . واول هذه الحقوق هو الصداق ، وقد نصت الشريعة الاسلامية على حق المرأة فى الصداق ووردت آيات قرآنية تدل على وجوب الصداق على الزوج لزوجته منها « وآتوا النساء صدقاتهن نحله» . (٢)

وقد روى عن الرسول عليه الصلاة والسلام احاديث فى هذا الشأن ، قال : « من كشف خمارا امرأته ونظر اليها وجب الصداق ، دخل بها أو لم يدخل » . هذا وقد ثبت ان الرسول لم يخل زواجا من صداق ، فلو كان غير واجب لتركه ولومرة واحده ليدلل على عدم وجوبه .

وكان يكتب فى عقد الزواج خاصا بالصداق : « هذا ما اصدق فلان فلانه البكر البالغ ابنة فلان ، صداقا تزوجها به على بركة الله تعالى وعونه ، وحسن توفيقه ومنه ملك به عصمتها واستدام به — ان شاء الله — صحبتها ،

(١) النويرى : نهاية الأب فى فنون الادب ، القاهرة ، ١٩٣٣ ، ج ٩ ، ص ص ١١٩ – ١٢٠ .

(٢) سورة النساء ، الآية ٤ .

مبلغ كذا وكذا ، الحال من ذلك كذا وكذا وباقى ذلك كذا وكذا ، قبضته الزوجه وتسلمته ، أو قبضه والد الزوجه لها باذنها ، وولى تزويجها اياه بذلك والدها المذكور بحكم ولايته عليها شرعا ، وباذنها له فى ذلك ورضاها بشهادة من يعنيه فى رسم شهادته » (١)

والجدير بالذكر ان الله سبحانه وتعالى لم يفرض الصداق للزوجه على زوجها مقابل ما تعده من جهاز تتجهز به ، بل ان تأثيث المنزل واجب على الزوج وهو جزء من النفقة الزوجيه الواجبه عليه شرعا . ونفقة الزوجة واجبه على زوجها مهما بلغت الزوجه من غنى وثروه خاصه بها ، وذكر الله تعالى فى سورة النساء (٢) « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما انفقوا من اموالهم » . وقد امر الرسول عليه السلام بذلك ايضا فقال فى خطبة الوداع : « اتقوا الله فى النساء ، فانكم اخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف» .

كذلك من حق الزوجة على زوجها ان يعاملها معامله طيبه حسنه ، قال تعالى : « وعاشروهن بالمعروف » (٣) . وايضا « ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة» . (٤)

وقد كان الرسول عليه السلام خير مثالا يحتذى فى معاملته زوجاته وفهمه لنفسية المرأة فهو القائل « المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقه

---

(١) النويرى : نهاية الا دب فى فنون الادب ، جـ ٩ ، ص ص ١١٥ — ١١٦ .
(٢) سورة النساء ، الآية ٣٤ .
(٣) سورة النساء ، الآية ١٩ .
(٤) سورة النساء ، الآية .

واحده ، فان استمتعت بها استمتعت وبها عوج وان ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها » .

وكان الرسول يتلطف فى معاملة زوجاته ، وكان يتولى خدمة البيت معهن وقال فى ذلك « خدمتك زوجتك صدقه » . أما موضوع اباحة الاسلام للرجل ان يضرب زوجته ، فالمعروف أن الله سبحانه وتعالى لم يشرع هذا الأمر بدون ضوابط تقيدة فلقد أمر سبحانه وتعالى ضرب النساء الناشزات فقط وحتى فى حالتهن لا يلجأ الزوج إلى عقوبة الضرب الا بعد ان ينصحها اولا ، ثم يهجرها ثانيا ، فاذا لم ينصلح حالها فله ان يلجأ إلى الضرب كمحاوله اخيرة قال تعالى « واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن ، فان اطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » (١)

وقد نهى الاسلام عن الضرب المبرح واشترط الفقهاء الا يجرحها هذا الضرب ولا يكسر لها عظما ويتجنب الوجه ، هذا ولم يعرف عن الرسول عليه السلام انه ضرب واحدة من نسائه قط بل كان يكره ضرب النساء ويعيبه ، وقد بلغ من شلك كراهية الرسول لضرب النساء انه نهى الرجال عن ضربهن غير انهم شكون نسائهم له فخلى بينهم وبين ضربهن وقال « ولن يضرب خياركم » وقد تأثرت طباع المسلمين بطباع نبيهم فكانوا من اشد الناس رفقا بنسائهم حتى لقد ترفع البعض عن استعمال هذه العقوبة البدنيه وها هو أحد الشعراء يقول :

رأيت رجـــالا يضربون نساءهـــم ... فشلت يمينى حين اضرب زينبـــا

---

(١) سورة النساء ، الآية ٣٤ .

هذا ولم تنص الشريعه الاسلامية على حقوق الزوجه فقط ، وانما حفظت للمطلقة حقها كذلك ، والواقع ان الطلاق وبالحقوق التى حفظها الله سبحانه وتعالى للمطلقة يعتبر كسبا للمرأة المسلمة اذا ماقورن بما كان سائدا فى الجاهلية . ذلك ان الرجل فى الجاهلية كان يطلق زوجته ثم يعيدها ، يفعـل ذلك المرءه بعد المره دون حساب أو رقيب وذكر الامام الرازى ان الرجل كان يطلق امرأته ألفا ثم يراجعها بعد كل مرة(١).وقدروى الترمذى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها انها قالت : كان الرجل فى الجاهلية يطلق امرأتـه ماشاء ان يطلقها وهى امرأته اذا ارتجعها وهى فى العده وان طلقها مائة مـره أو اكثر ، حتى قال رجل لامرأته : والله لا اطلقك فتبينى منى ولا آويك ابدا ، قالت : وكيف ذلك ؟ قال : اطلقك فكلما همت عدتك ان تنقضى راجعتك ، فذهبت المرأه حتى دخلت على عائشة فاخبرتها فسكتت عائشة حتى جاء النبى صلى الله عليه وسلم ، فاخبرته فسكت فانزل الله سبحانه وتعالى « الطلاق مرتان ، فامساك بمعروف او تسريح باحسان » (٢) .

وكان هذا كسبا كبيرا حصلت عليه المرأه ، فبعد ان كانت تطلـق مـرات عديدة وبلا حدود حـدد الله تعالى الطلاق بمرتين فقط أما إذا طلقت للمرة الثالثه فلا يجـوز للزوج ان يعيدها إلى عصمته الا بعد ان تتزوج غيره « فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره». (٣)

---

(١) الامام الرازى : التفسير الكبير ، الطبعة الاولى ، جـ٢ ، ص ٣٧٢ .

(٢) سورة البقرة ،الآية ٢٢٩ .

راجع كذلك : الطبرى :جامع البيان عن تأويل آى القرآن (تفسير الطبرى) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٥٨ جـ ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٣) سورة البقرة ، الآيه ٢٣١ .

ولا شك ان هذا تأديب نفسي للرجل حتى لا يتهور فى استعمال الطلاق لاتفه الاسباب وحفظا للاسرة من التشتت ، فليس اشق على الرجل من ان يرى زوجته فى عصمة رجل آخر خاصة اذا كان يريد ان يعيدها لعصمته .

كذلك حرم الله تعالى على الزوج ان يراجع زوجته فى العدة بقصد ان يضرها وليطول عليها مدة انقضاء عدتها كما كان يحدث فى الجاهلية ، فتظل المرأه معلقة فلا هى زوجه لها ما للزوجات من حقوق ، ولا هى خالية من الزوج حتى يمكنها ان تتزوج من جديد ان ارادت ذلك ، فقال تعالى : « واذا طلقتم النساء فبلغن اجلهن فامسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا». (١)

وإذا حدث الطلاق قبل الدخول بالزوجة فلها نصف الصداق ولاعدة لها ، ,,وأن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف مافرضتم ،، (٢) . وجاء فى سورة الأحزاب ,,ياأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا,, . (٣)

أما إذا حدث الطلاق بعد الدخول بالزوجة ففى تلك الحالة يصبح الصداق كاملا من حقها وحدها ,,وإذا أردتم أستبدال زوج مكان زوج واتيتم أحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا وأثما مبينا ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم مثياقا غليظا,, . (٤) ، وبعد

(١) سورة البقرة ، الآيه ٢٣١ .
(٢) سورة البقرة ، الآيه ٢٣٧ .
(٣) سورة الاحزاب ، الآيه ٤٩ .
(٤) سورة النساء ، الآيتان ٢٠ — ٢١ .

الطلاق من حق المراة المطلقة أن تظل فى منزل الزوج طوال فترة العدة «ياأيهاالنبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العده وأتقوا الله ربكم لاتخرجوهن من بيوتهن ولايخرجن» (١) ، وقال تعالى «أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولاتضاروهن لتضيقوا عليهن» . (٢)

وطوال فترة العدة الرجل ملزم بالأنفاق على مطلقته حتى أنه ليس لها أن تخرج من البيت لقضاء مصالحها ، لأن مطلقها متكفل بجميع مايلزمهـا حيث أن نفقتها واجبه عليه . وقد حدد الله تعالى فترة العدة بثلاثة قروء(٣) «والمطلقات يتربصن بانفسهن ثلاثة قروء» (٤) . وعدة الآيسة ثلاثة شهور «واللائي يئسن من المحيض من نسائكم ، أن أرتبتم فعدتهن ثلاثة أشهر واللائي لم يحضن » . (٥) وإذا حدث الطلاق والمرأة حامل فمطلقها ملزم بالأنفاق عليها طوال فترة الحمل «وأن كن أولات حمل فانفقوا عليهن حتى يضعـن حملهن» . (٦)

وإذا وضعت المرأة المطلقة فهى غير ملزمة بأرضاع المولود ، فأن ، أرضعته فوالد الطفل أى مطلقها مكلف بالأنفاق عليها طوال مدة الرضاع «فانأرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف ، وأن تعاسرتم فسترضع له أخرى » . (٧) وأيضا ,,والوالدات يرضعن أولادهن حولين

(١) سورة الطلاق ، الآية الاولى .

(٢) سورة الطلاق ، الآية ٦ .

(٣) اختلف الفقهاء فى تفسير كلمة قروء فمنهم من فسرها بمعنى (الحيض) ومنهم مـن فسرها بمعنى (الاطهار) راجع :

مخلوف : كلمات القرآن تفسير وبيان ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٣٠

(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٢٨ .

(٥) سورة الطلاق ، الآية ٤ .

(٦) سورة الطلاق ، الآية ٦ .

(٧) سورة الطلاق ، الآية ٦ .

كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف»(١)

وقد أنصف الأسلام المرأة المطلقة بكل هذه الحقوق ، إذا حدث الطلاق بناء على رغبة الزوج ، على أنه يجوز للمرأة أن تجعل العصمة بيدها وتطلق نفسها من زوجها حين تشاء ، ,,وهذا مقيد بما إذا أبتدأت المرأة فقالت ، زوجتك نفسى على أن أمرى بيدى . فقال الزوج : قبلت,, . (٢)

وسواء طلبت المرأة الطلاق من زوجها فطلقها بناء على رغبتها أو كانت عصمتها بيدها فطلقت نفسها منه ، فهى غير ملزمة بأية أعباء مادية قبـــل مطلقها كتلك التى فرضها الله تعالى على الرجل إذ تم الطلاق بناء على رغبته . ذلك لأن الله تعالى لم يشأ أن تظل المرأة فى عصمة رجل تبغضه وتود التخلص من حياتها معه ، فيسر لها ذلك دون أن يكلفها أعباء مادية يمكن أن تعيقها عن طلب الطلاق لعدم أستطاعتها الوفاء بها .

كذلك فأن الأسلام لم يحفظ للمرأة المسلمة حقوقها المادية فحسب ، بـــل حافظ على شعورها وكرامتها وشرفها وأمر بأنزال العقاب بمن يتناول سيرتها بالسوء قال تعالى : «والذين يرمون المحصنات ، ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فأجلدوهم ثمانين جلدة ولاتقبلوا لهم شهادة أبدا ، وأولئك هم الفاسقون» .(٣) وقد بلغ من أعتزاز المسلمين بالنساء وثقتهم فيهن أن الخليفة أبا بكر الصديق أختار واحده منهن وهى أم المؤمنين السيدة حفصه بنت عمر بن الخطاب ، دون الرجال جميعا وفيهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليأتمنها على النسخة الوحيدة للقرآن الكريم ، بعد أن تم جمعها بعد وفاة الرسول

(١) سورة : البقرة ، الآية ٢٣٣ .
(٢) جاويش الاسلام دين الفطرة والحرية ، ص ٨١ .
(٣) سورة النور ، الآية ٤ .

عليه السلام ، وأودعها عندها ، وظلت فى مأمن لديها حتى أخذها أمير المؤمنين عثمان بن عفان ونسخ منها الأربعة نسخ التى وزعها على الأمصار.(١)

كذلك كان بعضهم يفتخر بأنتسابه لأمه مثل معاويه بن أبى سفيان الذى كان يفتتح مجلس خلافته بقوله ,,أنا أبن هند,, وكان يكفيه أن ينتسب لأمه حتى يصدع خصومه . كذلك لم يكن الرجل يتحرج عن أن يكنى بأبنته فينادى بابى ليلى وابى سلمى وابى بثينه . وقد وضعوا المرأة فى مكانة سامية رفيعة ، ويدلل الجاحظ على رفعة منزلة المرأة فيقول أنها ,,التى تخطب وتراد وتعشق وتطلب وهى التى تفدى وتحمى ,, . (٢) وقد وضعها بعضهم فى مكانة أرفع من مكانة الرجل ، حيث أن المرأة أنجبت دون حاجة للرجل وهذا أمر مستحيل على الرجل ، فقالوا فى ذلك : ,, أن الله تعالى خلق من المرأة ولدا من غير ذكر ولم يخلق من الرجل ولدا من غير أنثى ، فخص بالآية العجيبة والبرهان المنير المرأة دون الرجل,, . (٣)

هذا ولم تكن المرأة المسلمة سجينة فى أجنحة الحريم كما يدعى بنتربل كان لها دورها فى الحياة العامة ، وقد بلغت بعضهن مرحلة كبيرة من العلم ، فقد أوجب الله تعالى على أمهات المؤمنين تلاوة القرآن وتعلم العلم «وأذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمه» (٤) وكانت النساء فى عصر الرسول عليه السلام يحضرن فى المسجد ويجلسن يتلقين العلم على يدى الرسول ، وقد أشتهرت السيدة عائشة أم المؤمنين برواية الحديث عن الرسول عليه الصلاة

---

(١) عائشة عبد الرحمن : نساء النبى ، ص ص ١١٥ — ١١٦ .

(٢) الجاحظ : رسائل الجاحظ ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٢٦٩ .

(٣) الجاحظ : رسائل الجاحظ ، ص ٢٧١ .

(٤) سورة الاحزاب ، الآية ٣٤ .

والسلام كما أشتهرت بمعرفة الفقه والفتيا والتاريخ والنسب ورواية الشعر والطب وعلم النجوم حتى قال فيها الرسول ,,خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء,,

وعاشت السيدة عائشة لتكون المرجع الأول فى الحديث والسنة وقال الأمام الزهرى : «لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل». وقال هشام بن عروة عن أبيه «مارأيت أحدا أعلم بفقه ولابطب ولابشعر من عائشة» . (١) وقد أشتركت السيدة عائشة فى الخلاف السياسى وقادت المسلمين فى الموقعة التى عرفت باسم موقعة (الجمل) سنة ٣٦ هـ نسبة إلى الجمل الذى كانت تركبه وخرجت على رأس جموع المعارضين الثائرين ، وكانت هى القائده العليا للجيش ، تصدر الأوامر ، وتعين الأمراء، وتوجه الرسل بكتبها إلى أهل الكوفه وأهل اليمامه وأهل المدينة المنورة ، مصدرة بالعبارة التالية : ,,من عائشة أبنة أبى بكر ، أم المؤمنين، حبيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله، إلى أبنها الخالص فلان . أما بعد فان أتاك كتابى هذا فأقدم فانصرنا فان لم تفعل فخذل الناس عن على,, . (٢)

كذلك عرفت أختها السيدة أسماء بنت أبى بكر وأم عبد الله بن الزبير برواية الحديث . (٣)

---

(١) عائشة عبد الرحمن : نساء النبى ، ص ١٠٢ .

(٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، الطبعة الاولى ، مطبعة الحسينية ، القاهرة ، جـ ٥ ، ص ص ١٨٣ — ١٨٤ .

(٣) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير ، ليدن ، ١٣٢٢ هـ ، جـ ٨ ، ص ٤٥ ، ص ٤٨ .

ابن الاثير : اسد الغابة فى معرفة الصحابة ، القاهرة ، ١٢٨٠ هـ ، جـ ٥ ص ص ٤ — ٥ .

وقد أبلت كثير من النساء بلاء حسنا فى الحروب ومنهم نسيبه بنت كعب المازنيه التى صاحبت الرسول يوم أحد والتى قال الرسول عنها (ما ألتفت يمينا أو يسارا إلا وأنا أراها تقاتل دونى) . وهناك خوله بنت الأزور التى قاتلت الروم قتالا عنيفا فى وقعة أجنادين وأثارت أعجاب الجميع بشجاعتها ، وغزالة الحرورية التى أبتلى بها الحجاج بن يوسف الثقفى سفاك بنى أمية ، وكانت فى أربعين فارسا والحجاج فى أربعة آلاف ، فما لبث أن أختلط عليه الأمر وخلع قلبه من الفزع وولى هاربا.وقد أتخذ أعداء الحجاج هذا الموقف بينه وبين غزاله لطعنه والنيل منه مثال ذلك قول أحدهم :

أسد علىّ وفى الحروب نعامـــة ربداء تجفل من صفير الصافـــر
هـلا برزت إلى غزالة فى الوغـــى بل كان قلبك فى جناحى طائـــر
صدعت غزالة جنده بعساكـــــر تركت كتائبه كأمسى الدابـــــر

وهناك أيضا أم الخير بنت الحريش البارقية ، والزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية وعكرمة بنت الأطرش ، وأم سنان بنت جشيه بن خرشـــه المذحجيه ، وكلهن ساهمن فى الحروب بنصيب وافر . (١)

وكان من النساء المسلمات عالمات بالدين ، يقبل الناس على دروسهن مثل سنينه بنت القاضى أبى عبد الله الحسين بن أسماعيل الضبى المحاملى وكان أبنها أيضا قاضيا ، وكانت تكنى أم الواحد ، وكانت عالمة فاضلة ، ومن أحفظ الناس للفقه وكانت تفتى مع العلماء وحدثت وكتب عنها الحديث ، وتوفيت فى عام ٣٧٧ هـ (٩٨٨ م) . وهناك أيضا أم الفتح بنت القاضى أبى بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة التى توفيت عام ٣٩٠ هـ (١٠٠١م)

---

(١) القلقشندى : صبح الاعشى ، القاهرة ، ١٩١٣ ، جـ ١ ، ص ٢٤٧ — ٢٥٨ .

وأخذ عنها كثير من العلماء ، فكانت موصوفة بالتدين والعقل والفضل . (١)

وفى جميع العصور الأسلامية المختلفة كان للمرأة المسلمه دورها فى الحياة العامة وفى العصر العباسى على سبيل المثال كانت المرأة تتمتع بقسط وافر من الحرية وتدخل بعضهن فى شئون الدولة كالخيزران زوجة الخليفة المهدى التى كان لها الكلمه النافذة فى عهده فكانت تأمر وتنهى ، وكان الناس يتوافدون على دارها ويلجأون إليها لقضاء حاجاتهم ، وقد بالغت فى ذلك إلى درجة كبيرة فأثارت غضب أبنها الخليفة الهادى ، الذى أراد وضع حد لهذا كله ومن خلال الكلام الذى وجهه لها ندرك مدى ما كان لها من السلطان والنفوذ فقد قال لها الهادى : « لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو من خاصتى أو من خدمى ، لأضربن عنقه ولأقبضن ماله . فمن شاء فليلزم ذلك ، ماهذه المواكب التى تغدو وتروح إلى بابك كل يوم ؟ أما لك مغزل يشغلك ، أو مصحف يذكرك ، أوبيت يصونك ؟ إياك أن تفتحى فاك فى حاجة لمسلم ولاذمى . ثم قال لأصحابه : أيما خير ، أنا وأمى أم أنتم وأمهاتكم ؟ قالوا بل أنت وأمك. قال : فايكم يحب أن يتحدث الرجال بخبر أمه ، فيقال فعلت أم فلان وصنعت أم فلان ؟ قالوا لانحب ذلك . قال : فما بالكم تأتون أمى فتتحدثوا بحديثها » (٢)

كذلك تمتعت السيدة زبيدة زوجة الخليفه هارون الرشيد وأم الأمين

(١) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والامم ، جـ١ الطبعة الاولى ، ١٣٥٩ ، جـ١ ، ص ١٢٦ ، ص ١٤٦ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٢٣ ص ١٧٢ .

المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، القاهرة ، ١٣٤٦ هـ ، جـ ٢ ، ص ٢٦١ .

بنفوذ كبير ، وحين حجت إلى بيت الله الحرام فى سنة ١٨٦ هـ (٨٠٠م) وأدركت مايعانيه أهل مكة من المشاق فى الحصول على ماء الشرب ، دعت خازن أموالها وأمرته أن يدعو المهندسين والعمال من أنحاء البلاد وقالت له ,,أعمل ولو كلفتك ضربة الفأس دينارا ,, . وذهب إلى مكة أكفأ المهندسين والعمال ، ووصلوا بين منابع الماء فى الجبال ، وأعتمدوا على عين حنين فأرسلوا منها الماء تحت الصخور حتى وصل إلى الحرم الشريف ولايزال هذا الماء يجرى إلى مكة حتى يومنا هذا .

وكانت السيدة زبيدة شاعرة مثقفة وكثيرا ماكانت تبعث برسائلها ، الفياضة شعرا إلى زوجها هارون الرشيد . وكمثال لشعرها ، نسوق تلك الأبيات التى أرسلتها للخليفة المأمون بعد مقتل أبنها الأمين ، قالت :

لخير أمام قام مـن خير عنصـر	وأفضل راق فوق أعـواد منبر
ووارث علـم الأولين وفخرهـم	وللملك المأمون من أم جعفـر
كتبت وعينى تستهل دموعهـا	إليك أبن عمى مع جفونى ومحجرى
أصبت بادنى الناس منك قرابـة	ومن زال عن كبدى فقل تصبرى(١)

ويتضح جليا مدى تمكنها من كتابة الشعر ورقة عواطفها وأصالة أخلاقها . ولايفوتنا فى هذا المجال أن نذكر الملكه شجر الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠ - ١٢٤٩) التى قامت بدور عظيم حين توفى زوجها فى ١٢٤٩م وكانت الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا تجثم على أنفاس مصر ، وقد خشيت شجر الدر أن هى أذاعت خبر وفاة الملك الصالح أن تحدث فتنة بين المسلمين يكون لها أثرها فى سقوط مصر فى يد الصليبيين ،

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٢ ، ص ٣١٦ .

فأخفت خبر وفاته وأخذت فى تدبير شئون الدولة بمقدرةو كفاءة عظيمة فى هذه الظروف الصعبة ، وأرسلت فى أستدعاء أبنةتورانشاهمن حصن كيفا بأطراف العراق ، وحين وصل إلى مصر سلمت له مقاليد الأمور ، ولكنه أساء إليها وإلى الأمراء وأنتهى الأمر بقتله على يد المماليك البحرية فى ٢ مايو سنة ١٢٥٠ ، وأختار الأمراء أن يسلموا عرش مصر إلى شجر الدر فبايعوها ملكة عليهم فى مايو ١٢٥٠ (١٠ صفر ٦٤٨ م) وقد قبضت على زمام الأمور فى مصر بيد من حديد ووصفها المؤرخ أبن أياس بأنها أمرأة «صعبة الخلق شديدة الغيرة ، قوية البأس ، ذات شهامة زائدة ، وحرمة وافرة سكرانة من خمرة التيه والعجب» . (١)

وقد مثل جلوس شجر الدر على عرش مصر أعتراف المعاصرين بفضلها ودورها الهام فى العمل على أخفاق الحملة الصليبية السابعة على مصر . وتعتبر شجر الدر أول ملكة مسلمة جلست على عرش مملكةٍ أسلامية . وقد نقش أسمها على السكة فى صيغة ,,المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين ، والدة الملك المنصور خليل » . أما الخطباء فى المساجد فكانوا يدعون لها بقولهم : «وأحفظ اللهم الجهة الصالحية ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح» . (٢)

وهكذا لم يكن هناك مجال من مجالات الحياة العامة إلا وطرقته

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، بولاق ، ١٣١١ ه ، جـ١ ، ص ٨٩ .

(٢) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٣٦ ، جـ١ ، ص ٣٦٢ .

ابو المحاسن: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ١٩٣٥ ، جـ٦ ، ص ٣٧٤ .

المرأة المسلمة حتى العرش وصلت إليه وحكمت البلاد بمقدرة وكفاءة شهد لها بها المعاصرين ، لذلك فان قول المؤرخ بنتر ومايردده غيره من المؤرخين الغربيين من أتهامات يوجهونها للمرأة المسلمة كلها أتهامات غير صحيحة وأن دلت على شيء فانما تدل على عدم معرفة ولاأقول (جهل تام) بمركز المرأة المسلمة وجهودها فى مختلف ميادين الحياة والعلم والمعرفة . وماتم توضيحه فى الصفحات السابقة ماهو إلا نبذه سريعة وعامةعن مركز المرأة المسلمة ، وأن أعطى الموضوع حقه من البحث لاحتاج لمجلد ضخم تجمع فيه مآثر المرأة المسلمة منذ عصر الرسول عليه الصلاة والسلام وماتلاه من عصور أسلامية مختلفة .

الصـــــــــــــور



الصورة رقم (١)

مظهر من مظاهر الحب

فى عصر الفروسية



الصورة رقم (٢)

مظهر آخر من مظاهر الحب

فى عصر الفروسية



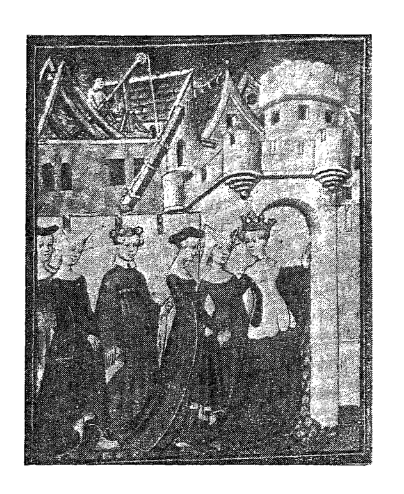
صورة رقم (٣)

قلعة الحب



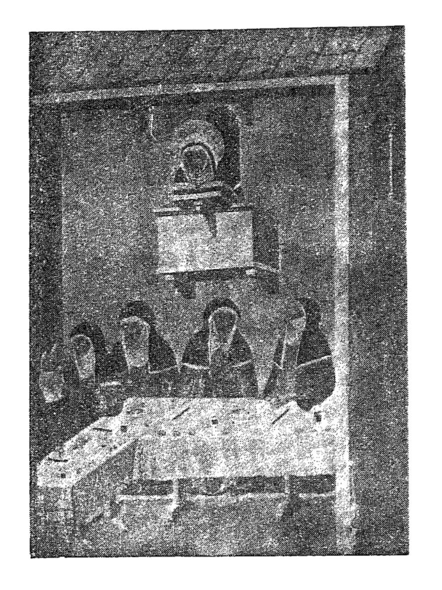
الصورة رقم (٤)

ضرب النساء فى أوربا العصور الوسطى



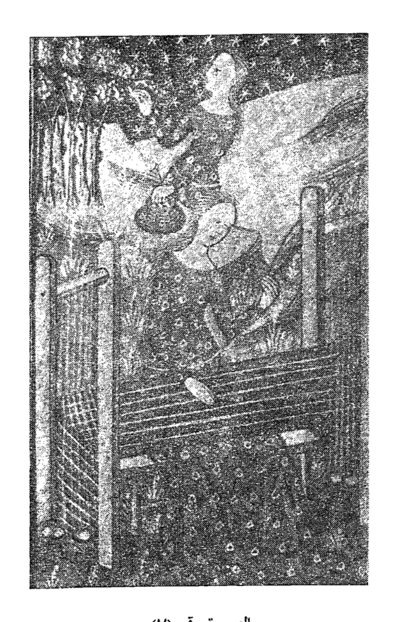
الصورة رقم (٥)

نماذج مختلفة لملابس النساء وقبعاتهن



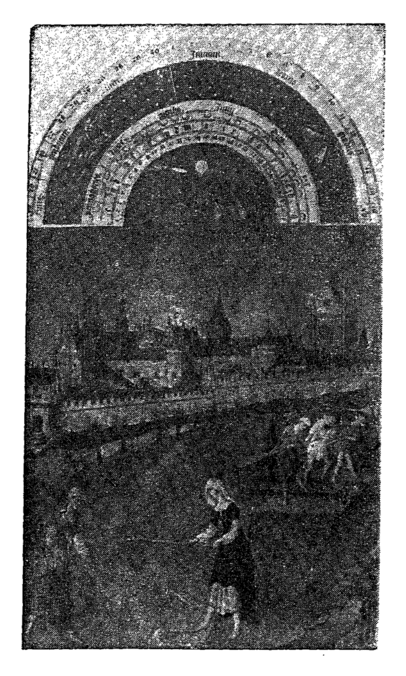
الصورة رقم (٦)

الملابس التقليدية للراهبات

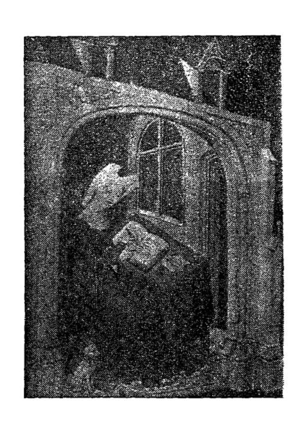


الصورة رقم (٧)

ممارسة النساء لصناعة النسيج



الصورة رقم (٨)
بعض النساء يفلحن الأرض



الصورة رقم (٩)

كريستين دى بيزان

المراجع

أولاً : المصادر العربية

– القرآن الكريـــم .

– ابن أيـــــاس. (أبو البركات محمد بن أحمد) .

بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، بولاق ، ١٣١١ هـ – ١٣١٢ هـ .

– أبن الأثـــير : (على بن أحمد بن أبى الكرم) .

أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، القاهرة ، ١٢٨٠ هـ .

– أبن تغرى روى : (أبو المحاسن جمال الدين يوسف)

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، القاهرة ، ١٩٣٥ .

– أن الجوزى : (أبى فرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على) ، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، الطبعة الأولى ، ١٣٥٩

– أبن سعد : كتاب الطبقات الكبير ، ليدن ، ١٣٢٢ هـ .

– أبن طباطبا : (محمد بن على)

الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٢٣ .

– الجاحـــظ : رسائل الجاحظ ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، القاهرة ١٩٦٥ .

– الرازى : التفسير الكبير ، الطبعة الأولى .

– الطبرى : (أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن قدير بن خالد) تاريخ الأمم والملوك ، الطبعة الأولى ، مطبعة الحسينية القاهرة .

: جامع البيان عن تأويل أى القرآن ، (تفسير الطبرى) ، دار المعارف القاهرة ، ١٩٥٨ .

— القلقشندى : (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على) .
صبح الأعشى فى صناعة الأنشا ، القاهرة ، ١٩١٣ .

— المقريزى : (تقى الدين أحمد بن على)
السلوك لمعرفة دول الملوك تحقيق مصطفى زيادة ، القاهرة ، ١٩٣٦ .

— المسعودى : (ابو الحسن على)
مروج الذهب ومعادن الجوهر ، القاهرة ، ١٣٤٦ هـ .

— النويرى : (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب)
نهاية الأدب فى فنون الأدب ، الجزء التاسع ، القاهرة ، ١٩٣٣ .

ثانيا : المراجع العربية والمعربة

– السين بسور : نماذج بشرية من العصور الوسطى ، ترجمة محمد توفيق حسين ، مراجعة نقولا زيادةوفؤاد ترزى ، نشردار الثقافة ، بيروت ، ١٩٥٧ .

– جوزيف نسيم يوسف : دكتور
نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ، الطبعة الاولى ، ١٩٧١ .

– دانتى الليجيرى : الكوميديا الألهيه ، ترجمة حسن عثمان ، ثلاثة اجزاء ، دار المعارف ، القاهرة .

– سعيد عبد الفتاح عاشور : دكتور
الجامعات الاوروبية فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٩
اوروبا فى العصور الوسطى ، الجزء الثانى ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

– عائشة عبد الرحمن : دكتورة
بنات النبى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٩٦٣ . نساء النبى ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ١٩٦٧ .

– عباس محمود العقاد : المرأة فى القرآن ، دار الهلال ، القاهره .
فاطمة الزهراء ، دار الهلال ، القاهرة .

– عبد العزيز جاويش : الاسلام دين الفطرة والحرية ، القاهرة ،١٩٦٨

– كولتون : الديريه ، اسبابها ونتائجها ، مقال فى كتاب تاريخ العالم ، ترجمة الدكتور جمال الدين الشيال ، نشر فى مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، المجلد الحادى عشر ، ١٩٥٧ .

– مخلوف : كلمات القرآن تفسير وبيان ، القاهره ، ١٩٥٦

– هويز نجا : اضمحلال العصور الوسطى ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

ثالثا : المصادر والمراجع غير العربيـــة

— Abram : Chivalry, in C. M. H. ed. Tanner, vol. VI, Cambridge, 1968.

— Allain : L'universite de Parisan XIII et VI[e] Siecle, dans Revue du Clerge Francais, vol Iv, 1895.

— Aungier : *History and Antiquities of Syon, London, 1840.*

— Batiffol P. : A Monument to St. Augustine, 1930.

— Baum : Recherches sur lesoeuvres attriueesa Marie de Fiance, Paris, 1968.

— Boissonnxde :Life and work in Medieval Europe, Kegan Paul, 1937.

— The Buik of the croniclis of scotland, ed W. B. turnhuee, Rolls Series, London, 1858.

— Burgh : The legacy of the Ancient World, vol I, London 1955.

— Butler : Monasticism, C.M.H.rCambridye, 1975.

— Chabot : Jeanne d' Arc, librairie Larousse, paris, 1941

— Charlularium Universitatis Parisiensis, ed. Demfle, Paris 1889 - 97.

— Chaucer (J) : Canterbury tales in Complete works, ed. Pallord, London, 1908.

— Clemen : Chaucer' s early Poetry, London, 1963.

— Coulton : Life in the Middle Ages, Cambridge, 1928.

— Crevier : Histoire de L' universite de Paris, depuis son origine Jusqu' en l'annee 1600, 7 vols, Paris, 1761.

— Crumpe & Jacob : The legacy of the Midde Ages, oxford, 1921.

— Dante A. :La Divina Commedia illustrata da Sandra Bottice lei, Rome, 1964.

— De Sade : Memoires de la vie de Petrararque, Amesterdam, 1764-67.

— De Sanctis : Saggio Critico Sul Petrrarca, 1895.

— Dubarle : Histoire de L'universite de Paris, 2 vols, Paris, 1844.

— Eckenstein : Women Under Monasticism Cambaidge, 1896.

— Essays in the Histery of Medicine Presented to Karl Sudhoff ed. Charles Singer and Henry Sigerist oxford, 1924.

— Eyre : European civilisation, vols 3 (The Middle Ages l, London, 1935).

— Gilson : Petrarque et Sa Muse, X ford, 1946.

— Halliday : Chaucer and his world, London, 1968. â

— Heer F. : The Medival world, Europe (1110 - 1350), London, 1962

— Hoyt & Chodoron : Europe in the Middle Ages, Third edition U.S.A., 1976.

— Hussey J. : Chaucer an Introduction, London, 1968.

— Johannes Busch liber de Reformatione Monasteriorum, ed. Karl Grube, Halle, 1886.

— Kelly A. : Alienor of quitaine, London, 1952.

— Lanson : Histoire de la literature francaise, Paris, 1916.

— La Tour Landry : Liver Pour L'eduction de mes filles. ed. de Montaiglon, Paris, 1854.

— Mazzei : La vita e le aepera di petıarca, 1927.

— Myers : England in the later Middle Ages, Lcr.don, 1953.

— Nyss : Christine de Pissan et ses Principales oevres, Brussals, 1914.

— Painter : Medieval Society, New York, . 1955

: History of the Middle Ages, great Britain, 1979.

— Paris : Esquisse Historique de la Literature Francaise du Moyen Age, Paris, 1907.

— Parry Y. : The art of Courtly loue by Andreas Epellanns, 1941.

— Perroy : La Guerre de cent Ans, Paris, 1954.

— Pinet : Christine de Pisan, Paris, 1927.

— Pirrene : E Conomics and Social History of Medieval Euope, London, 1947.

: La Fin du Moyen Age, Paris, 1931.

— Pewer E. : Medieval women, edited by Postan, Cambridge, 1981.

Medieval English Nunneries, Cambridge, 1922.

— Registrum Simonis de Gandave Episcopi Saresbiriensis, ed Flomer, Canterbury and Yerk Socienty, 1914.

— Ricci : L'ultime rifugie di Dante, new ed. 1921.

— Rigand : Lesidees feministes de christine de Pisan, 1911.

— Stephenson : Medievae History, New York, 1942.

: Medieval Feudalism, New York, 1942.

— Tatham : Francesco Petrarca, his life and correspondence, 1925.

— Tout : The History of England, (1219 - 1377), London,.

— Thompson : The Middle Ages, London, 1931.

— Toynbee : Dante Alighieri, his life and workes, 4 thd ed. 1910.

— Ullmann (W.): A History of Political thought (The Middle Ages), 1968

— Wilmotte : Froissart, 1958.

— Warkman : Evolution of the Monastic Jdeal, London, 1957.

— Zingarelli : Vita di Dante in Compendio, Milan, 1906.



معركة متريكرت

فى ضوء وثائق بسيللوس

الدكتورة اسمهان غنيم
كلية التربية – جامعة الاسكندرية

فصلة من مجلة كلية الآداب
للعام الجامعى ١٩٨١

مطبعه جامعه الاسكندريه
١٩٨١

معركة منزيكرت

فى ضوء وثائق بسيللوس

بقلم
الدكتورة اسمت غنيم
كلية التربية – جامعة الاسكندرية

معركة منزيكرت
فى ضوء وثائق بسيللوس

تعتبر معركة منزيكرت من أهم وأخطر المعارك فى تاريخ العلاقات البيزنطية الاسلامية ، لما ترتب عليها من نتائج بعيدة المدى غيرت ميزان القوى فى منطقة الشرق الأدنى خلال النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى ولمدة قرنين تاليين .

فان هذه المعركة التاريخية التى جرت فى عام ١٠٧١ م . بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة المسلمين ، والتى انتهت بانتصار ساحق للسلاجقة ، قد فتحت طريق آسيا الصغرى على مصراعيه للمسلمين ، الذين لم يجدوا أمامهم أى عائق يحول دون تقدمهم فى هذه البلاد على حساب الممتلكات البيزنطية ، فاستمروا يوالون فتوحاتهم الواحدة تلو الأخرى ويتقدمون من موقع إلى آخر أكثر قرباً من العاصمة البيزنطية نفسها ، حتى لم يعد يفصل بينهم وبينها سوى مضيق البوسفور .

وهكذا وبضربة واحدة دفعت غرباً الحدود التقليدية التى طالما فصلت بين المسلمين والدولة البيزنطية .

وقد سارت الامبراطورية البيزنطية بعد هذه المعركة بخطى سريعة نحو الانهيار ، ففى الداخل اشتعلت الحروب الأهلية بين البيزنطيين من أجل الاستحواذ على العرش ، وانهارت القوة العسكرية للدولة ، كما أنهار النظام الادارى بها .

وفى الخارج ازداد طمع الاعداء بها واعتدائهم على ممتلكاتها ، وقد أدت كل هذه العوامل إلى تفاقم خطر السلاجقة بشكل لم تتمكن معه الامبراطورية البيزنطية من التصدى لهم ، مما دفعها إلى الالتجاء إلى الغرب الأوروبى واستجداء مساعدته العسكرية فى محاولة لوقف تقدم السلاجقة وما تلى ذلك من قيام الحركة الصليبية .

فهذه المعركة ، قد غيرت ميزان القوى فى منطقة الشرق الأدنى لصالح المسلمين وكانت الشرارة الأولى التى أطلقت الحروب الصليبية بكل ما صاحبها من تغييرات جوهرية فى المنطقة لمدة قرنين من الزمان .

ومعركة منزيكرت ، نسبة إلى مدينة منزيكرت التى تقع فى أرمينيا إلى الشمال من بحيرة فان Van وهى المدينة التى جرت المعركة بالقرب منها وهذه المدينة من المدن القليلة التى عرفت بأكثر من اسم واحد . فقد اختلفت تسميتها فى المصادر العربية عنها فى المصادر البيزنطية ، بل لقد تعددت تسمياتها فى المصادر العربية نفسها ، فقد ذكرها كل من المؤرخين(١)

سبط ابن الجوزى باسم منازجرد ، وابن العديم باسم منازكرد، وابن الأثير باسم ملازكرد ، وأبو الفدا باسم ملازجرد ، ووصفها بقوله : «وهى بلد صغير وبناؤها بالحجر الأسود ، وبها أعين ، وليس بها أشجار ، قال ابن حوقل وهى بلدة تقارب خلاط ونشوى فى القدر ، خصبة كثيرة الخير ، وهى قريبة من أرزن بينهما يومان أو ثلاثة ، تقع أرزن جنوبيها وفى جنوبها وشرقيها بدليس وبينهما قريب من يوم ونصف» .

---

(١) راجع المصادر العربية التالية :

– ابن القلانسى ، ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨ ، حاشية ص ص ٩٩ – ١٠٥

– ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، تحقيق سامى الدهان ، دمشق الجزء الثانى ص ٢٦

– ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، القاهرة ، مطبعة الاستقامة ، جـ٨ ، ص ١٠٩

– أبو الفدا : تقويم البلدان ، باريس ، ١٨٤٠ ، ص ص ٣٩٤ – ٣٩٥ .

وهكذا لم تتفق المصادر العربية على تسمية واحدة لهذه المدينة ، أما المؤرخون البيزنطيون وعلى رأسهم الامبراطور قسطنطين السابع فقد ذكروها باسم Manzikiert (١) ، ويكاد يكون الاتفاق تاماً بينهم على هذا الاسم فيما عدا ميخائيل الاطالياتي (٢) الذى ذكرها باسم قريب جداً من هذا الاسم وهو Manzikert

وإذا رجعنا إلى المؤرخين المحدثين المهتمين بالدراسات البيزنطية ، مثل فازيلييف ، استروجورسكى ، تومانوف ، بربيه ، وهسى (٣) . نجدهم يجمعون على استعمال اسم Manzikert . وهكذا يجد الباحث نفسه

---

1. Constentinus Porphyrogenitus : De Thematibus et de adminsitrando Imperio, Bekkerus, Bonnae, Mdccc xl, p. 191—192

— Ioannis scylitzae Curopalatae : Excerpta Exbreviario Historico, Webri, Bonnare, Mdcccxxxix, p.692.

— Ioannis zonarae : Epitomae Historiarum, weberi, Bonnae, Mdcccxcvil, Tomus, libri xv111, p— 697.

2. Michaelis Attaliotae : Historia, Emendatior, Bonnae, Mdccc1111, p. 166 .

3. Vasiliev : History of the Byeantine History, U.S.A., 1958, voll, P. 356.

— Ostrogorsky : History of the Byzantine State,translated By Hussey, oxford, 1968, p. 344.

— Toumanoff : The Background to Mantsikert, inproceedinsg of the x111 the international congress of Bygantine Studies, ed. Hussey, Obolensky, and Runciman, London, oxford university press, 1967, pp. 411 — 426.

— Brehier : Vie et mort de Byzance, paris, 1969, p. 231—233.

— Hussey : The later macedonians, the comneni and the Angeli 1025 — 1204. in C.M.H. vol lv., part I, ed. Hussey cambridge university press, 1966, p. 209.

أمام اسماء متعددة لهذه المدينة ،وان كنت أحبذ الأخذ بما أجمع عليه المؤرخون المحدثون وهو اسم منزيكرت خاصة وانه أقرب الاسماء إلى التسمية البيزنطية لها

ولا يستطيع باحث فى معركة منزيكرت أن يعرض لها دون أن يرجع للمؤرخ البيزنطى بسيللوس يستقى منه المعلومات التى تنير أمامه السبيل فى هذا الموضوع ، ذلك ان بسيللوس هو أحد المؤرخين المعاصرين لهذه المعركة وكل ما أحاط بها من أحداث سياسية ، ليس ذلك فحسب ، بل لقد شارك بشخصه فى صنع هذه الأحداث ، وقد دون بسيللوس تاريخ هذه المرحلة فى مؤلفه التاريخى المعروف باسم Chronographie والذى تناول فيه عرض للأحداث السياسية التى وقعت فى الفترة التاريخية الممتدة من عام ٩٧٦ وحتى عام ١٠٧٧ م .

ويقول المؤرخ استروجورسكى فى تقييمه لهذا المصدر التاريخى . انه يعتبر فى المرتبة الأولى من الأهمية فيما يتعلق بالفترة الزمنية التى تناولها ، وانه لا نظير له فى قوة تأملاته ، ووصفه الحى ، وتحليلاته النفسية المميزة وتصويراته الذكية (١) ويتفق معه فى هذا الرأى المؤرخ فازيلييف (٢) .

والمعروف ان مجموعة بون البيزنطية المعروفة باسم Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae تضم أعمال المؤرخين البيزنطيين على اختلاف عصورهم التاريخية ، ولكن على خلاف العادة لم نعثر على هذا المصدر التاريخى لبسيللوس Chronographie ضمن مجموعة بون ، فهو لم ينشر بها ، وانما نشر على يد العالم الفرنسى رينول Renauld الذى نشر الأصل اليونانى مع ترجمة فرنسية فى مجلدين ظهر الأول فى عام ١٩٢٦ ، وظهر الثانى فى عام ١٩٢٨ . ثم نشرت ترجمة انجليزية لهذا المصدر التاريخى نشرها Sewter وظهرت فى عام ١٩٥٣ .

---

1. Ostrogorsky : op. cit., P. 316.

(2) Vasiliev : op. cits. Vol. 11, p. 368.

وقد اعتمدنا على الأصل اليونانى الذى نشره رينول (١)

وقد حرص بسيللوس على أن يعرض للأحداث السياسية التى تضمنها مؤلفه هذا بكافة التفاصيل الخاصة بها ، لذا فان الباحث يتوقع أن يمده بسيللوس بالكثير عن تفاصيل معركة منزيكرت .

وانعرض الآن لوثائق بسيللوس الخاصة بهذه المعركة ، يقول بسيللوس

XX. Ὁ δέ με (οὐ) διέλαθεν, ἔλαθε τοῦτον, αὐτος δὴ ὁ σουλτάν, ὁ τῶν Περσῶν ἢ Κούρτων βασιλεύς, συνὼν τῷ στρατεύματι καὶ τὰ πλείω τῶν κατορθωμάτων ποιῶν· εἰ δέ τις τοῦτον ἐφώρασεν, ὁ δὲ οὐκ ἐπίστευε λέγοντι, ἀλλ' οὐδὲ εἰρήνην ἐβούλ το, ἀλλ' ᾤετο αὐτοβοεὶ αἱρήσειν τὸ τῶν ἐναντίων στρατόπεδον. Τὸ δ' ἀστρατήγητον τούτου διεῖλε τὰς δυνάμεις, καὶ τὰς μὲν αὐτοῦ κατεῖχε, τὰς δὲ ἐπ' ἄλλο τι ἐξαποστέλλει, καὶ δέον ὅλῳ τῷ πλήθει τοῦ στρατεύματος τοῖς ἐναντίοις ἀντικαθίστασθαι, ὁ δὲ τῷ ἐλάττονι μέρει πρὸς αὐτοὺς ἀντετάξατο.

XXI. Τὸ δὲ μετὰ ταῦτα ἐπαινεῖν μὲν οὐκ ἔχω, ψέγειν δὲ οὐ δύναμαι, αὐτὸς τὸν ὅλον κίνδυνον δέχεται· τοῦτο δὲ μέσον ἐστὶν ἀντιρρήσεως· εἰ μὲν γὰρ ὡς φιλοκίνδυνον λογίσαιτό τις τὸν ἄνδρα καὶ ἀγωνιστὴν προθυμότατον, ἔχοι ἂν ἀφορμὰς πρὸς ἐγκώμιον· εἰ δ' ὅτι, δέον κατὰ τὴν στρατηγικὴν ἀκρίβειαν πόρρω ἵστασθαι, πρωτοστράτηγον τυγχάνοντα τοῦ στρατεύματος, καὶ τοῖς πλήθεσιν ἐπιτάττειν τὰ δέοντα, ὁ δὲ ἀλογίστως παρεκινδύνευε, πολλὰ ἂν ἐς αὐτὸν ἀποσκώψειεν· ἐγὼ δὲ μετὰ τῶν ἐπαινούντων, ἀλλ' οὐ τῶν αἰτιωμένων εἰμί.

XXII. Ὥπλιστο μὲν οὖν τὴν στρατιωτικὴν πανοπλίαν, καὶ τὸ ξίφος ἐγύμνωσεν ἐπὶ τοὺς ἐχθρούς· ὡς δὲ ἐγὼ πολλῶν ἤκουσα, ὅτι καὶ πολλοὺς ἀνῃρήκει τῶν ἐναντίων, τοὺς δὲ καὶ ἐς φυγὴν κατηνάγκασεν. Εἶτα δὴ ὅστις εἴη γνώριμος τοῖς ἐς αὐτὸν βάλλουσι γεγονώς, κύκλῳ τε ὑπὸ τούτων περιστοιχίζεται, καὶ ὀλισθαίνει μὲν τοῦ ἵππου βληθείς, εἶτα δὴ ἑαλώκει, καὶ δορυάλωτος εἰς τοὺς πολεμίους ὁ βασιλεὺς Ῥωμαίων ἀπάγεται, καὶ τὸ στράτευμα διαλύεται· καὶ τὸ μὲν διαφυγὸν μέρος βραχύ τι, τῶν δὲ πλειόνων οἱ μὲν ἑάλωσαν, οἱ δὲ μαχαίρας ἔργον γεγόνασιν. (٢)

1. Psellus : Chronographie, Collection Byzantine publiee sous le partonage de l'association tullaume Pudé. Serie par Renauld, paris 1928, Vol. 1.

2. Psellus : Chronographie, Vol. 11, pp. 161 — 162.

وترجمة هذه الوثائق باللغة العربية كما يلي :

«نما إلى علمي ان الساطان بنفسه الذي اسميه ملك الفرس والكرد كان هناك مع جيشه وهو السبب في صنع أكثر الانتصارات . إذا كان أحد قد تنبه إلى وجود السلطان وأخبر الامبراطور بذلك لم يكن ليصدق هذا الكلام . الامبراطور لم يكن راغباً في السلام ، وكان يحلم بأنه سوف يتمكن وخلال أول هجوم له من أسر جيش الاعداء . جهله باستراتيجية الحرب دفعه إلى تقسيم قواته ، احتفظ ببعض قوات الجيش في مكانه وأرسل جزءاً من قواته إلى مكان آخر وفي الوقت الذي كان يتحتم عليه أن يقف مع جيشه بكامله ويتصدى للاعداء ، وقف مع الجزء الأكثر ضعفاً وأصدر اليهم أوامره بالمعركة .

الذي جاء بعد ذلك لا امتدحه ولا استنكره ، الامبراطور أدرك تماماً مدى الخطر ، الحذر يكون الحد الوسط بين الضدان (١) . إذا تأملنا هذا الملك بصفته رجل شجاع ومحارب ملىء بالبسالة ، فانه سوف يمتدح . لكن إذا دققنا في تصرفه حينما يكون قائداً وبصفته رئيساً يجب عليه ادارة خطة وأبعاد الخطر ، واتباع قواعد الاستراتيجية ، فهو يجازف دون حساب للخطر ، لدرجة تعرضه للكثير من السخرية ، لكنني مع الذين يمتدحونه وليس مع الذين يدينونه .

بناء عليه ، كان مستعداً كمحارب باسلحته كاملة ، وجرد سيفه ضد الاعداء ، سمعت من أشخاص كثيرين انه قتل كثير من الأعداء،وأجبر الآخرين على الفرار . لكنهم قذفوه بالسهام ، وأحدقوا به في دائرة ضرب وسقط عن فرسه ، فتأكدوا من شخصيته وهو الآن أسير حرب بعيداً عند

---

(١) لعل بسيللوس يقصد بهذا ان الحذر يكون الحد الوسط بين الضدان وهما الجبن والشجاعة .

الاعداء ، وسيق امبراطور الرومان أسيرا . هلك جيشه ، جزء ضئيل لاذبالفرار ، الجانب الأعظم اما أسر أو وقع فريسة سهلة لسيوف الأعداء. »

هذا فقط ما رواه بسيللوس عن معركة منزيكرت ، أما ما حدث بعد المعركة ويتعلق بمصير الامبراطور رومانوس ديوجنيس ، والحرب الأهلية التى دارت بينه وبين الحزب المدنى حتى استسلامه ، فقد رواه بسيللوس بأدق تفاصيله (١) .

ولنا ملاحظات عديدة على نصوص هذه الوثائق ، قبل أن نعرض لها ، لابد أن نعرض أولا لمعركة منزيكرت كما رواها المؤرخون البيزنطيون الآخرون ، وعلى رأسهم المؤرخان المعاصران ، والأول هو القربلاط يوحنا سكيليتزيس I Oannis Zcylitzae Curopalatae (١٠١٨ — ١٠٧٩) وكان يشغل منصب عميد القصر Curopalata ، وبحكم منصبه هذا وتردده على القصر اتيح له الاطلاع على وثائق هامة دونها فى تاريخه (٢) الذى نشرفى مجموعة بون البيزنطية تحت اسم Excepta Excbreviario Historico

والثانى هو ميخائيل الاطالياتى Michaelis Attaliotae وهو ينسب لمدينة اطاليا فى أقليم بامفيليه الذى يقع على الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى . وكان ميخائيل يشتغل بالقانون وشغل عدة مناصب قانونية بالعاصمة حتى أصبح القاضى العسكرى . وقد دون تاريخه كشاهد عيان للأحداث التى وقعت فى الفترة الزمنية الممتدة من عام ١٠٣٤ — ١٠٧٩م (٣) وتم نشره فى مجموعة بون البيزنطية باسم Historia

---

(1) Psellus : chrouographie, vol, pp. 162 — 172.

(2) Haussing : Ahistory of byzantine civilisation, English Translation, london, 1971, P. 341.

(3) Haussing : op. cit., p. 321

Ostrogrsty : op. cit. p. 317.

أما المؤرخ زوناراس John Zonaras فقد كان قريب العهد من هذه الفترة التاريخية إذ أنه عاش فى أواخر القرن الحادى عشر وخلال النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلاديين وقد شغل بعض المناصب الهامة فى القصر الامبراطورى أثناء عصر الامبراطور اليكسيوس كومنينوس (١٠٨١ ــ ١١١٨ م) ، ثم أنسحب إلى أحد الاديرة وعكف على تصنيف كتاب فى التاريخ بدأه منذ الخليقة وانتهى به عند عام١١١٨ م .(١) ونشر فى مجموعة بون البيزنطية باسم Epitomae Historiarum

كذلك سيتم الاستعانة بالمصادر العربية التى عرضت لهذه المعركة ، مع مقارنة أقوال المؤرخين بعضهم بالبعض الآخر ، من أجل الوصول للحقيقة التاريخية المجردة .

السلاجقة الذين خاضوا هذه المعركة ضد البيزنطيين يرجعون فى الأصل إلى الأغوز ويطلق عليهم أيضاً اسم التغزغز (القبائل العشرة) وعرفهم المسلمون باسم الغز ، وأطلق عليهم البيزنطيون اسم UZI ، وقال الامبراطور قسطنطين السابع أنهم يجاورون بلاد الخزر (٢) .

والغز من القبائل التركية ، وتم اتحادهم فى قبيلة واحدة فى القرن السادس الميلادى وامتدت أملاكهم من الصين إلى البحر الأسود ، وقد دخل الغز إلى البلاد الاسلامية فى نهاية القرن العاشر الميلادى (٣)

---

(1) Dolger : Byzantine Literature, in C.M.H. ed Hussey Vol Iv, partllcambrige, 1967, P. 237.

Haussing : op. cit., pp. 365 — 366.

Ostrogorsky : op. cit., P. 211.

(2) Constantinus Porphyrogenetus : op. cit. P. 164.

(٣) العرينى : المغول ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ص ٣٠ — ٣١ .

والسلاجقة ينسون إلى زعيمهم سلجق بن ياكاك ، وقد اعتنقوا الدين الاسلامى فى فترة متأخرة نسبياً سنة ١٠٠٠ م . وعرفوا بتحمسهم الشديد لعقيدتهم ، وفى القرن الحادى عشر الميلادى استقروا فى اقليم ما وراء النهر وأخذوا بأسباب الحياة الاسلامية وادارتها . وقد اعترف بسلطانهم الخليفة العباسى منذ البداية على أنهم من موالى أمير المؤمنين وفى عام ١٠٣٨ م . تم أول اتصال بينه وبينهم فأرسل اليهم فى نيسابور رسولا يحمل رسالة منه يذكرهم فيها بالله ويحملهم على رعاية عبادته وعمارة بلاده وقد اغتبطوا لذلك أشد الاغتباط . « وتباهوا برسالة الخليفة وازدادوا بها قوة ورفعة» (١) .

وكان السلاجقة قد عينوا طغرلبك بن ميكائيل ملكاً عليهم فى عام ١٠٣٧م ثم تطلعوا لاقامة دولة والاستفادة من الجهود العسكرية للتركمان الذين كانوا محالفين لهم ، ويأتمرون بأمر طغرلبك ، فبدأ السلاجقة فى التوسع غرباً على حساب ايران ، وبعد أن تم لهم امتلاكها امتد نشاطهم العسكرى نحو ارمينيا ، التى كانت تدين بالولاء للبيزنطيين فى ١٠٤٥ م ، منذ عهد الامبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس (١٠٤٢ — ١٠٥٥) (٢) . وهكذا

---

(١) البندارى : تواريخ دولة آل سلجون ، القاهرة ، ١٩٠٠ ، جـ٢ ، ص٦ .

الحسينى : زبدة التوارخ ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، تصحيح محمد اقبال ، لاهور ١٩٢٣ ، ص ص ٣ — ٤ .

ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، جـ٩ ، ص ١٧٦ .

Vasiliev : op. cit., P. 466.

C.M.H. ed Bury. cambridge, 1926, vol iv, pp. 300 — 303.

(٢) فيما يتعلق بالصراع بين البيزنطيين وامراء ارمينيا حتى نجاح البيزنطيين فى السيطرة عليها أنظر :

Toumanoff : Armenia and Georgia, in C.M.H., ed., Hussey, vol Iv, partll, cambridge, 1975, pp. 612 — 620.

كان لابد من الاحتكاك العسكرى بين الطرفين ، بعد أن وطد السلاجقة العزم على الاغارة على الممتلكات البيزنطية فى ارمينيا كجزء من خططهم التوسعية من جهة ، ولاشباع رغبتهم فى الجهاد فى سبيل الله واعلاء كلمة الاسلام من جهة أخرى ، ومن جهة ثالثة لكسب شعور العالم الاسلامى ، بعد أن يظهرون أمامه بمظهر المدافعين عن الاسلام ، الذنين يذودون عن حماة فى الوقت الذى تقاعس حكام الشرق الأدنى وعلى رأسهم الخلافتين الفاطمية والعباسية فى هذه المرحلة التاريخية عن الوقوف فى وجه البيزنطيين وحماية المسلمين والأراضى الاسلامية من غاراتهم .

إذن فلم تكن معركة منزيكرت أول المعارك بين الطرفين وانما سبقها معارك واشتباكات أخرى سواء على ساحة ارمينيا أو فى بلاد الشام (١)

ومما زاد فى خطورة الموقف بالنسبة للجانب البيزنطى أثناء صراعه مع السلاجقة ، ان الأباطرة البيزنطيين فى هذه المرحلة التاريخية وهى المرحلة التى تلت وفاة الامبراطور باسيل الثانى فى ١٠٢٥ م ، وحتى اعتلاء القائد رومانوس ديوجينس العرش فى عام ١٠٦٨ م . لم يكونوا على مستوى المسئولية ، وانما عرف عنهم الدعة وحياة اللهو والخمول كما أعتلى العرش فى تلك الفترة بعض النساء مثل زوى وثيودورا من الأسرة المقدونية ، وقد أدى كل ذلك إلى تفاقم الموقف فى بيزنطه واتاح الفرصة للسلاجقة للتفوق العسكرى على حسابها .

---

(١) أنظر تفاصيل الصراع بين الطرفين فى المرحلة السابقة لمعركة منزيكرت فى المصادر التالية :

ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ص ١١ — ١٣ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٣٠٣

راجع أيضاً :

Schlumberger : L'opopee Byzntine ala Fin du dixieme siecle, paris, 1 905, vol III. pp. — 600 — 610.

ما أن تولى رومانوس ديوجنيس عرش الامبراطورية فى أول يناير ١٠٦٨ ، حتى وجد ضرورة وضع حد لغارات السلاجقة على الأراضى البيزنطية ، خاصة وهو القائد العسكرى الذى كان مدركاً تماماً لخطورة الموقف ، وأخذ يستعد لمنازلتهم ، وفى عام ١٠٦٨ قاد جيشه من اقليم قبادوقيا جنوباً حتى شمال الشام ، حيث حقق بعض النجاح على السلاجقة ، وفى عام ١٠٦٩ أرسل مساعده عسكرية إلى مدينة ميلتين (ملطية) التى تعرضت لغارة من جانب السلاجقة ، كما خرج بنفسه على رأس جيشه إلى أرمينيا ، لكن ضعف امكانياته العسكرية حال دون تحقيقه أى نصر عسكرى على السلاجقة ، الذين اخذوا يراوغونه واستولوا على العديد من المدن حتى قونيه Iconium وخوناى chonae غرباً (٢) .

وفى عام ١٠٧٠ م . تقدم السلطان الب ارسلان إلى ارمينيا واستولى على مدينتى خلاط (١) ومنزيكرت (٢) .

وفى عام ١٠٧١ حدثت معركة منزيكرت بين البيزنطيين والسلاجقة ، وكان الامبراطور رومانوس ديوجنيس هو الذى اتخذ جانب المبادرة

---

(2) Zonaras : op. cit., pp. 690 — 695.

(١) هذه المدينة ذكرتها المصادر البيزنطية باسم Chaliat ، ووصفها أبو الفدا بقوله انها «فى مستو من الأرض ولها بساتين كثيرة ولها عدة أنهر تأتيها على شبه أنهار دمشق ، وليس يدخل المدينة منها الا الشيء اليسير ولها سور خراب وهى فى قدر دمشق وبردها شديد والجبال عنها على أكثر من مسيرة يوم . قال ابن حوقل هى بلد صغير عامر خصب كثير الخير قال فى العزيزى وبينها وبين ملازجرد سبعة فراسخ واجل مدينة بارمينيه خلاط وذكرها جليل الشهرة راجع :

Constantinus porphyrogenitus : op. cit. p. 191 — 192.
Ioannis scylitzae : op. cit. p. 692.

ابو الفدا : تقويم البلدان ، ص ص ٣٩٤ — ٣٩٥ .

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، حاشية ص ص ٩٩ — ١٠٠ نقلا عن سبط ابن الجوزى

Toumanoff : op. cit, p. 620

بالهجوم فى هذه المرة فاستعد استعداداً كبيراً وخرج من القسطنطينية فى ١٣ مارس ١٠٧١ على رأس جيش قدره المؤرخ ابن العديم بثلاثمائة ألف أويزيدون (١) ، أما ابن الأثير فقدره بمائتى ألفاً (٢) .

أما سبط ابن الجوزى ، فقدره بمائة ألف مقاتل (٣) ، وربما كان هذا أقرب إلى الحقيقة (٤) .

وقد بلغ من شدة ثقة الامبراطور بالنصر انه وزع البلاد التى سيفتحها على قادة جيشه ويقول سبط ابن الجوزى فى هذا الشأن : «وكان قد أقطع البطارقة البلاد مصر والشام وخراسان والرى والعراق ، واستثنى بغداد وقال : لا تتعرضوا لذلك الشيخ الصالح فانه صديقنا (يعنى الخليفة) . وكان عزمه يشتى بالعراق ويصيف بالعجم» (٥) .

وكانت الفرق البيزنطية فى هذا الجيش تحت قيادة اندرونيكوس دوقاس ، وهو ابن القيصر يوحنا دوقاس احد زعماء الحزب المدنى بالعاصمة وشقيق الامبراطور الراحل قسطنطين العاشر دوقاس (٦) . . وكانت هذه الفرق البيزنطية مدعمة بقوات من الولايات الشرقية للامبراطورية مثل فريجيا وقبادوقيا ، وكذلك قوات من الأقاليم الأوروبية التابعة للامبراطورية مثل مقدونيا وبلغاريا ، وحشود ضخمة من المرتزقة ذكر المؤرخون

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ١٠٩ .

(٣) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، حاشية ص ١٠٢ ، نقلا عن سبط ابن الجوزى

(4)Gibbon : Decline and fall of the Roman Empire, u.s..a 1976, vol 6, p. 14.

(٥) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، حاشية ص ١٠٣ نقلا عن سبط ابن الجوزى .

(6) Ioannis Scylitzea; op cit p. 698

Zonaras : op. cit. p. 701.

البيزنطيون (١) ، أهم من الغزو الفرنجة (٢) . وكان تعداد الغز في هذا الجيش ١٥ ألف ، والفرنجة ٣٥ ألف مقاتل (٣) .

أما المؤرخون المسلمون فذكروا ان هذه القوات كانت من الروم ، والروس ، والخزر واللان ، والغز ، والقفجق ، والكرج ، والانجاز ، والفرنج ، والأرمن (٤) .

وهكذا نجد أن الجيش الذى قاده الامبراطور رومانوس ديوجنيس لم يكن من عنصر واحد ، وانما تكون من عناصر مختلفة وخاصة من المرتزقة ولم يكن ديوجنيس بطبيعة الحال ، هو أول من استعان بالمرتزقة فى جيشه وانما كان ذلك من الأمور المستخدمة والشائعة فى الجيش البيزنطى على امتداد التاريخ البيزنطى كله ، بل وأكثر من ذلك فان الرومان هم الآخرون قد استخدموا الجنود المرتزقة فى جيوشهم منذ أقدم العصور (٥) .

---

(1) Ioannis scylitzae : op. cit., p. 691, Zonaras : op. cit; p. 689

(٢) كان هذا الاسم يطلق على كل العناصر التى تقطن غرب أوروبا وقتذاك . انظر :
Vasiliev : op. cit., vol 1, p. 356.

(٣) ابن الجوزى : المنتظم فى تاريخ الملوك والامم ، الطبعة الأولى ، حيدر آباد ، ١٣٥٩ هـ جـ٨ ، ص ٢٦١ .

(٤) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ص ٢٤ — ٢٥ .
ابن الأثير : الكامل ، جـ٨ ، ص ١٠٩ .
وبخصوص التعريف بهذه الأسماء راجع ابن العديم ، نفس المصدر ، حواشى صفحتى ٢٤ — ٢٥

(٥) راجع عن ذلك المراجع التالية :

— Rostovtzeff : Ahistory of the Ancient world, oxford, 1928, vol 2, p. 323.

— Sinningen : AHIstory of Rome to A.D. 565, U.S.A. 1977. PP. 435 — 436.

— Reid : The Reorganisation of the Empire in C.M.H. ed Bury, cambridge, 1975, Vol, PP. 44 — 46.

— Ostrogorsky : op cit., pp. 79, 92, 332, 344, 354, 358, 370, 393, 483, 492.

وقد سلك الامبراطور بجيشة طريق ارمينيا ، وحينما وصل إلى قاليقلا ، وهى بالقرب من خلاط ، وصلت اخبار خروجه إلى السلطان الب ارسلان الذى كان قد فرغ لتوه من حصار مدينة حلب وانتزعها من يد الفاطميين ، ويتفق المؤرخون المسلمون على أن السلطان كان فى بلاد اذربيجان حين وصله نبأ خروج الامبراطور البيزنطى ، ولم يكن مع السلطان الب ارسلان الا خمسة عشر ألف فارس أما باقى جيشه فقد كان بعيداً عنه (١) ، ورغم ذلك فقد آثر السلطان ان يذهب لقتال البيزنطيين خوفاً من عبثهم بالبلاد الاسلامية ، فسير زوجته مع وزيره نظام الملك ، وأوصى بأن يكون ولى عهده أبنه ملك شاه خليفة له إذ أحدث له مكروه ، فقال لوزيره ووجوه جنده : «أنا صابر فى هذه الغزاة صبر المحتسبين وصائر اليه مصير المخاطرين فان سلمت فذاك ظنى فى الله ، وأن تكن الأخرى فأنا أعهد اليكم ان تسمعوا لولدى ملك شاه وتطيعوه وتقيموه مقامى وتملكوه عليكم ، فقد وقفت هذا الأمر عليه ورددته اليه» (٢)

اتخذ السلطان طريقه حتى وصل بالقرب من خلاط ، وهناك التقى ببعض القوات البيزنطية الاستكشافية وكانت تحت قيادة الدوقس باسيلاكيوس Basilacius فقام الاتراك بعمل كمين لهذه القوات ونجحوا فى الايقاع بها والقضاء عليها بأكملها ، وقبض على باسيلاكيوس فأمر السلطان بجدع أنفه وأرسل الاسلاب إلى نظام الملك وأمره ان يرسلها إلى بغداد مبشراً

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ص ٢٣ — ٢٤ .
ابن الأثير : الكامل ، جـ٨ ، ص ١٠٩ .
الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ٤٧ .

(٢) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٨ ، ص ص ٢٦٠ — ٢٦١ .

بالفتح . (١)

وصل الامبراطور بقواته إلى خلاط وهناك قسم جيشه إلى قسمين ، ترك أحدهما وكان معظمه من الفرنجة تحت قيادة أحد القادة ذكرته المصادر البيزنطية باسمRuseliusوهو القائد النورمانى روسيل باليول Rusel of Baliol وأمرهم بحصار المدينة حتى يتم الاستيلاء عليها ، أما باقى الجيش فقد سار مع الامبراطور حتى مدينة منزيكرت حيث التقوا الحصار عليها ولكن الأهالى سلموها اليه خوفاً من بطشه بهم إذا أستولى عليها عنوة . وكان ذلك فى يوم الثلاثاء ١٦ أغسطس ١٠٧١ (٤ ذى القعدة ٤٦٣ هـ) (٢)

اقتفى السلطان وقواته أثر الجيش البيزنطى حتى التقوا به بالقرب من منزيكرت فى مكان يقال له الرهوة وهى صحراء تقع بين منزيكرت وخلاط ويجمع المؤرخون المسلمون على أن السلطان ارسل للامبراطور رومانوس ديوجنيس يطلب منه الهدنة وكان ذلك يوم الأربعاء ٥ ذى القعدة ٤٦٣ (١٧ أغسطس ١٠٧١) (٣) أى قبل المعركة الفاصلة بيوم واحد .

---

(1) Ioannis Scylitzae : op. cit. p. 694.
Zonaras : op. cit., p. 698.

ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ٨ ، ص ٢٦١ .
ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٢٦ .
ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ١٠٩ نقلا عن سبط بن الجوزى .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، حاشية ص ١٠٢ .

(2) Ioannis Scylitzea : op. cit., PP. 691 — 692.
Zonaras ; op. cit., P. 699.

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ ٢ ، ص ٢٧ .
ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ٨ ، ص ٢٦١ .
ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ١٠٩ .
الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ٤٩ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، حاشية ص ١٠٢ .

وهنا يحق لنا أن نتساءل عن السبب الذى من أجله ارسل السلطان يطلب الهدنة من الامبراطور ؟

ان المؤرخين الذين تعرضوا لهذه الحادثة لم يذكروا السبب ، أما المؤرخ ابن العديم فيسوق سبباً غير مقنع فيقول : (فارسل السلطان رسولا حمله سؤالا وضراعة ومقصوده أن يكشف أمرهم ويختبر حالهم ، ويقول لملك الروم : (ان كنت ترغب فى الهدنة اتممناها ، وان كنت تزهد فيها وكلنا الأمر إلى الله عز وجل» (١)

إذن فابن العديم يرى أن السلطان لم يكن جاداً فى طلب الهدنة وانما كان هدفه أن يكشف الرسول الذى أرسله مدى الاستعدادات العسكرية لدى البيزنطيين ولكننى لا أوافق ابن العديم فيما ذهب اليه ، وأرى ان السلطان كان جاداً بالفعل فى طلب الهدنة وذلك استناداً على ما رواه باقى المؤرخين الذين عرضوا لهذه الحادثة (٢)

أضف إلى ذلك ان أبن العديم نفسه قد ذكر ان السلطان لم يكن يجهل عظم القوات التى خرج بها الامبراطور البيزنطى ، فقال فى بداية سرده لحادثة خروج الامبراطور إلى بلاد المسلمين : «وقصد (السلطان) ملك الروم وأسرع فى السير لأنه بلغه ان ملك الروم خرج فى جموع لا تحصى » (٣) وهو ما يؤكده كذلك المؤرخون الذين سبقت الاشارة اليهم .

وان كان السبب الذى طلب السلطان من أجله الهدنة فى الغالب يرجع إلى أنه لم يكن فى حالة الاستعداد الكامل لمواجهة البيزنطيين فى معركة

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٢٧ .

(٢) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ ٨ ، ص ٢٦١ .

ابن الأثير : الكامل ، جـ ٨ ، ص ١٠٩

الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ٤٩ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، حاشية ص ١٠٢ نقلا عن سبط ابن الجوزى

(٣) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ٢٣ .

كبيرة كتلك التى استعد لها الامبراطور ، فقد سمع بنبأ خروج الامبراطور للبلاد الاسلامية وهو فى طريقه إلى بلاده فى همذان ، وكان فى خاصة جنده ولم يتيسر له جمع باقى الجيش لبعد المسافة بينه وبينهم ، كما سبق أن أوضحنا ذلك فى موضعه ، لذا فالمرجح ان السلطان خشى عاقبه الهزيمة إذا اقتتل مع جيش الأعداء وهو فى هذا العدد القليل من جنده ، فاراد الهدنة حتى تتاح له فرصة الاستعداد الجيد للمعركة .

أضف إلى ذلك ان السلطان ألب ارسلان كان مشغولا فى هذه الفترة بموضوع الفاطميين الشيعة ، وكان لديه مشروعات عسكرية ضدهم خاصة بفتح بلادهم فى الشام ومصر والقضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية ، وهو الأمر الذى عزم عليه السلاجقة السنة منذ بداية ظهورهم فى منطقة الشرق الأدنى ودخولهم العراق فى عام ١٠٥٥ م (١)

وقد واصل السلطان الب ارسلان جهود سلفه طغرلبك ضد الفاطميين وفى عام ١٠٧١ نزل السلطان الب أرسلان محاصراً لمدينة حلب وكان واليها من قبل الفاطميين صالح بن مرداس ، الذى خلع السيادة الفاطمية واعترف

---

(١) أنظر تفاصيل الصراع بين الفاطميين والسلاجقة منذ بداية ظهورهم بمنطقة الشرق الأدنى فى المصادر التالية :

الشيرازى : السيرة المؤيدية ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة ، رقم ٢٦٠٥٦ص ١٤٢

البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ، القاهرة ، ١٩٠٠ ، ص ١٢ .

الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ١٨ .

ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ص ٢٤١ — ٢٤٢ ، ٢٧١ .

راجع كذلك :

سرور : النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ، القاهرة ٩٦١ ، ص ١١٠ .

حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب القاهرة ١٩٥٨ ، ص ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

بسلطة السلطان السلجوقى (١)

وهكذا وجد لدى السلطان الب أرسلان أكثر من سبب دفعه لمحاولة عرض الهدنة على الامبراطور البيزنطى حتى تتحسن ظروفه فى المستقبل ويكون فى موقف أفضل يمكنه من منازلته والانتصار عليه .

على أية حال ، فان الامبراطور رومانوس ديوجنيس رفض قبول الهدنة ، وأصر على الحرب ، وربما اراد أن ينتهز فرصة عدم استعداد السلاجقة للمعركة وانشغالهم بموضوع الحرب ضد الفاطميين للتغلب عليهم واسترجاع الممتلكات البيزنطية التى تم لهم فتحها . وقد أورد المؤرخ ابن الجوزى نص رد الامبراطور على رسالة السلطان وكان كالتالى : «انى قد انفقت الأموال الكثيرة وجمعت العساكر الكثيرة للوصول إلى مثل هذه الحالة ، فاذا ظفرت بها فكيف أتركها هيهات لا هدنة الا بالرى ولا رجوع الا بعد أن أفعل ببلاد الاسلام مثل ما فعل ببلاد الروم» (٢)

كان من الطبيعى أن تنقطع المراسلة بين الطرفين ، بعد هذه الاجابة التى رد بها الامبراطور البيزنطى على رسالة السلطان السلجوقى ، وصمم السلطان على خوض المعركة مع البيزنطيين ، واتفق السلاجقة على خوض المعركة الفاصلة يوم الجمعة بعد صلاة الظهر والناس يدعون للمجاهدين

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص ص ٢٢٠ — ٢٣ .
ابن الأثير : الكامل فى تاريخ ، جـ٨ ، ص ١٠٩ .
(٢) ابن الجوزى : المنتظم ، جـ٨ ، ص ٢٦١ .
راجع أيضاً :

ابن العديم : زبدة الحلب ، ز ٢ ، ص ٢٧ ، ابن الأثير : الكامل ، ز٨ ، ص ١٩٠ الحسينى : زبدة التوارخ ، ص ٤٩ ، ابن القلانسى : ذيل تارخ دمشق ، حاشية ص ١٠٢ نقلا عن سبط ابن الجوزى .

بالنصر . (١)

أخذ الجانبان البيزنطى والسلجوقى يستعدان للمعركة ، ولكن حدثت عدة أمور على جانب كبير من الخطورة أساءت للجانب البيزنطى اساءة كبيرة

فقبل بداية المعركة بساعات ، وفى ليلة الجمعة وعند منتصف الليل تماماً كما يذكر المؤرخون البيزنطيون ، انسحبت قوات الغز المصاحبة للجيش البيزنطى تحت جنح الظلام ، وانضموا لجيش السلاجقة ، وعرض المؤرخ زوناراس لهذه الحادثة بقوله :

Hoc modo nocte illa exacta, manc uzorum quaedam cohors ad Turcos transfugit (2).

ولكى نفهم هذا التصرف من جانب الغز ، يجب أن نعلم ان صلة الأصل الواحد والعصبية القبلية ، كانت عامل الربط أولا وقبل كل شىء ، بينهم وبين السلاجقة ، ويبدو انه عز على الغزان يقتتلوا مع ابناء عمومتهم السلاجقة لمصلحة طرف ثالث غريب عنهم ، فانفصلوا عن الجيش البيزنطى .

وقد ملأ تصرف الغز هذا نفس الامبراطور رومانوس ديوجينيس بالشك والريبة فى ولاء باقى عناصر المرتزقة ، وقد اثبتت الأحداث التالية صدق شعوره ، ذلك أن الامبراطور أرسل على وجه السرعة لاستدعاء القوات التابعة للجيش البيزنطى والمحاصرة لمدينة خلاط فى محاولة لتعويض

---

(٢) ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٨ ، ص ٢٦١ .

ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٧

الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ٤٩ .

(2) Zonaras : op. cit.: p. 699.
Ioannis Scylitzae : op. cit. pp. 695 — 696.

النقص الذى سببه انسحاب الغز وكما سبق أن ذكرنا كانت هذه القوات من الفرنجة بقيادة روسيل باليول ، ولكن هذه القوات رفضت تنفيذ أوامر الامبراطور ، ورفضت الانسحاب من أمام خلاط (١) ، ولم يترك السلاجقة للامبراطور أية فرصة للتصرف ، وحسب خطتهم بدأوا هم بالهجوم وأشعلوا المعركة الفاصلة وكان ذلك بعد صلاة الجمعة يوم ٧ ذى القعدة سنة ٤٦٣ هـ (١٩ أغسطس ١٠٧١م) (٢) .

وقد حارب الامبراطور رومانوس ديوجنيس بشجاعة وبسالة شهد له بها جميع المؤرخين الذين تناولوا المعركة حتى بسيللوس نفسه ، ولكن مما أساء إلى موقفه اساءة بالغة ما حدث بعد ذلك ، فانه فى أوج اشتعال المعركة أخذ قائد الفرق البيزنطية اندرونيكوس دوقاس ، ينشر الاشاعات المغرضة بين صفوف الجند ، ومؤداها أن الجيش البيزنطى هزم وعليهم أن يسارعوا بانقاذ أنفسهم بالفرار ، فأخذ الجند يفرون طالبين السلامة لأنفسهم ، وساد الهرج بينهم مما أتاح للسلاجقة الفرصة لقتل وأسر الكثيرين منهم ، وأخذ اندرونيكوس الفرق البيزنطية التى تحت أمرته وسارع بالفرار ،وترك الجميع

---

(1) Ioannis Scylitzae : op. cit., P. 6965.

gibbon : op cit; vol. 6, p. 15.

(٢) ذكر المؤرخ ابن الأثير هذه المعركة فى حوادث سنة ٤٦٤ هـ ولم يذكر تاريخ اليوم بالتحديد ، ولكن الأصح ما ذكره كل من ابن العديم وابن الجوزى ، والحسينى ، وسبط ابن الجوزى من حدوث المعركة فى ذى القعدة ٤٦٣ هـ ، وهو يوافق أغسطس ١٠٧١ ، أنظر : ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ١٠٩

ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ص ٢٧ – ٢٨ .

ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٨ ، ص ٢٦٠ .

الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ٤٩ .

ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، حاشية ص ١٠٢ ، نقلا عن سبط ابن الجوزى .

راجع كذلك .

Ostrogorsky . op. cit P. 344.

الامبراطور مع قلة من أتباعه فى أرض المعركة ، ورغم ذلك ظل يقاتل حتى سقط عن فرسه ، وحين عرف السلاجقة شخصيته إقتادوه أسيراً إلى خيمة السلطان الب أرسلان (١)

وكان الامبراطور رومانوس ديوجنيس أول وآخر امبراطور بيزنطى يقع أسيراً فى يد المسلمين على امتداد التاريخ البيزنطى كله ، وقد غنم المسلمون غنائم كثيرة وعدداً وافره ويقول سبط ابن الجوزى فى هذا الشأن : «وغنموا (المسلمون) أموالهم بحيث تقاسموا الذهب والفضة بالرطل» (٢)

أما ابن العديم فيقول : «وغنموا (المسلمون) مالا يعد كثرة ولا يحصى عدداً وعدة .. وكانت مع الروم ثلاثة آلاف عجلة تحمل الاثقال والمنجنيقات وكان من جملتها منجنيق بثمانية أسهم تحمله مائة عجلة ، ويمد فيه ألف ومائتا

---

(١) تعرض المؤرخ البيزنطى المعاصر سكيليتزس لهذه الخيانة بقوله :

"A ndronicus caesaris filius imperatoris, patruelis ante meditatus insidias, ipse per se talem famam disseminavit, et cum milibus quos habebat cit ad castra se contulit, quem reliqui quoque imitati ad unum omnes fugere;"

Ioannis scylitzae : op. cit; P. 698.

وذكر نفس المعنى المؤرخ المعاصر ميخائيل الاطالياتى ، أنظر :

Michalis A ttaliottae : op. cit, P. 168.

أما المؤرخ زوناراس فيوضح الخيانة وما ترتب عليها من فرار الجند البيزنطيين وتركهم الامبراطور فى ساحة المعركة ، ووقوعه أسيراً فى يد الأعداء فيقول :

„Is igiture Andronicus, cum non minimae exercitus parti imperaret, statim eum suis equo concitato in vallum rediit, quae res ceteros quoque in fugam convertit, Quous cum ita perurbate reverti videret rex, substeerent sed obsurduerant omnes nec fugam remittebant cum antem hostes inopinatam Romanorum; fugam ex divina ira coortam intellegerent, megem statim invaserunt".

Zonaras : op. cit., p. 701.

(٢) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، حاشية ص ١٠٠ ، نقلا عن سبط ابن الجوزى .

رجل، وزن حجرة بالرطل الكبير قنطار، وحمل العسكر من أموالهم ما قدروا عليه ، وسقطت قيمة المتاع والسلاح والكراع ، حتى بيعت اثنتا عشرة خوذة بسدس دينار » (١) .

وقد أورد المؤرخون المسلمون (٢) وبعض المؤرخين البيزنطيين مثل سكيلتزيس (٣) ، الحديث الذى دار بين السلطان الب ارسلان والامبراطور الأسير رومانوس ديوجنيس .

وقد وبخه السلطان فى بداية الأمر لعدم قبوله الهدنة ثم أكرمه بعد ذلك وعقدت اتفاقية بينهما نصت على الشروط التالية : (٤)

١ — يدفع الامبراطور فداء لنفسه مليون ونصف مليون دينار (ألف ألف وخمسمائة ألف دينار) .

٢ — يدفع البيزنطيون للسلطان السلجوقى مبلغ ٣٦٠ ألف دينار جزية كل عام .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

(٢) ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٨ ، ص ص ٢٦٢ — ٢٦٤ .
ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٢ ، ص ص ٢٩ — ٣٠ .
ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ١١٠ .

(3) Ioannis Scylitzae : op. — cit, pp. 700 — 701.

(٤) أنظر نصوص الاتفاقية فى المصادر التالية :

Michaelis Attaliotae : op. cit., 166.

ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٨ ، ص ص ٢٦٣ — ٢٦٤ .
ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، الحاشية ص ١٠٣ ، نقلا عن سبط ابن الجوزى .
ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ٥ ، ص ٣٠ .
ابن الأثير : الكامل ، ج ٨ ، ١١٠ .

٣ — اطلاق سراح الاسرى المسلمين الموجودين بالبلاد البيزنطية .

٤ — ارسال الجيوش البيزنطية للخدمة العسكرية مع جيوش المسلمين إذا اقتضت الضرورة وفى أى وقت يطلبها السلطان .

٥ — حمل الألطاف والتحف إلى السلطان .

٦ — ان تكون مدة الهدنة بين الطرفين على هذه الشروط لمدة خمسين عاماً .

وبعد التصديق على هذه الاتفاقية من الجانبين ، شيع السلطان بنفسه الامبراطور ليعود إلى بلاده ، وقد بلغ من كرم اخلاق السلطان الب ارسلان أنه رفض أن يترجل له الامبراطور عند وداعه ، وعانقه مودعاً .

وقد سارع الحزب المدنى بالعاصمة البيزنطية باعلان نبأ وفاة الامبراطور ديوجنيس فى معركته مع السلاجقة ، أو على الأقل أسرة لفترة طويلة . وعلى الفور ، انتقل القيصر يوحنا دوقاس من أملاكه فى آسيا الصغرى إلى القسطنطينية حيث أخذ هو وبسيللوس فى تصريف شئون الحكم . وحين علما أن ديوجنيس فى طريق العودة للعاصمة ، صمما على مقاومته والحيلولة دون عودته ، ولكى يسدا الطريق أمامه أوعزا إلىّ مجلس الشيوخ باعلان ميخائيل السابع صاحب الحق الشرعى فى العرش ، امبراطوراً ، وكان ذلك فى ٢٤ اكتوبر ١٠٧١ (١) .

كانت تلك هى معركة منزيكرت كما روتها المصادر البيزنطية والعربية وبمقارنة وقائع المعركة كما أوردتها هذه المصادر بالنصوص التى أوردها المؤرخ البيزنطى المعاصر بسيللوس ، يتضح ان هذا المؤرخ قد أورد المعركة

---

(19) Ioannis scylizae : op. cit. p. 702.

بصورة مبتورة ومشوهة وحاول جاهداً القاء مسئولية الهزيمة على عاتق الامبراطور رومانوس ديوجنيس وحده ، واخفى الكثير من الحقائق التى كانت مسئوله إلى حد كبير عن الهزيمة فى منزيكرت ، ومن أمثلة ذلك مايلى

(أولا) لم يذكر تخلى الغز عن الجيش البيزنطى وانضمامهم للاتراك السلاجقة ، خاصة وان الغز كانوا يمثلون قوة لا يستهان بها فى الجيش ، وبلغ عددهم ١٥ ألف مقاتل كما سبق أن ذكرنا ذلك فى موضعه .

(ثانياً) اغفاله لاستدعاء الامبراطور رومانوس ديوجنيس لفرق الجيش المحاصرة لخلاط ، ورفض هذه الفرق الاستجابة لأوامر الامبراطور

(ثالثاً) أهم من ذلك كله أغفال بسيللوس لخيانة أندرونيكوس دوقاس ونشره الأكاذيب المضللة والإشاعات المغرضة عن هزيمة الجيش محرضاً بذلك الجند على الفرار وانسحابه من المعركة وفرار جنوده ، وقد تحدث المؤرخون البيزنطيون عن هذه الخيانة واعتبرها عدد كبير من المؤرخين المحدثين أهم أسباب هزيمة الامبراطور ديوجنيس فى معركة منزيكرت وأذكر منهم على سبيل المثال المؤرخون جيبون ، استروجورسكى ، فازيليف وهسى (١) .

ولم يكتف بسيللوس باغفاله لهذه الخيانة ، وانما راح فى موضع آخر ، وعند سرده للأحداث التالية لهزيمة ديوجنيس فى منزيكرت ، يكيل المديح

---

(19) Gibbon : The Decline and Fall of The Roman Empire, vol 6, p. 16.

Ostrogorsky .: History of the Byzantine Empire, p. 344 Vasiliev History of Byzantine Empire, vol; p. 356. Hussey : op cit., p. 209.

Vryonis : Byzantion and Europe, London, 1967, pp. 133—134.

ذلك تم تحريرهم . لكن نظراً لأنهم القدم ظلوا لا يتمتعون بكل حقوق المواطنين الأحرار ، ولا يستطيعون أن يقيموا إلا على بعد أكثر من مائة ميل من مدينة روما . وإلى جانب هؤلاء كان هناك طبقة المحررين Freedmen وهم الذين تم تحريرهم ولكنهم ظلوا مقيدين بالالتزامات التى كانوا يدينون بها سابقاً . ولم يكن باستطاعة أحد منهم أن يصبح Magistrate or Senator إلا بأمر خاص من الإمبراطور . كذلك لم يكن أحد منهم يستطيع أن يتزوج من سيده تنتمى إلى طبقة أعضاء مجلس الشيوخ .

وقد ألغى الإمبراطور جستنيان هذا كله ، وأصبح هناك من وجهة نظر القانون طبقتان فقط هما طبقة الأحرار وطبقة العبيد(١) .

وقد ظهر تأثير الإمبراطورة ثيودورا فى النواحى التشريعية فى تلك الحقوق التى منحها جستنيان للمرأة ، مثل حق الزوجة فى الحصول من زوجها على أملاك تعادل فى قيمتها بائنتها وحق الأرملة فى الوصاية على أطفالها ، وتقررت للأطفال حرية أوسع فيما يتصل بأشخاصهم وأملاكهم . وأصبح حرمانهم من الإرث فى المستقبل غير جائز ألا حسب قواعد ثابتة . ونص على أنه فى حالة حرمانهم يجب على الآباء أن يقرروا صراحة وبوضوح تام الأسباب التى بنى عليها حرمانهم ، كما أعيد صياغة قانون الوراثة ، وأصبحت قرابة الدم أساساً له ، كذلك أمن العبيد من قسوة سادتهم ، ومنحوا الحق فى مطالبة الحكام بحمايتهم(٢) .

وللحفاظ على تلك الأعمال التشريعية العظيمة ، وجه جستنيان اهتمامه

---

(1) Bury : History of the later Roman Empire, vol a, pp. 400 — 401.
Roby : Roman law, in C.M.H. ed Bury, vol II, pp. 64 — 65.
(2) Runciman : p. 76.

ولم يتحمل ديوجنيس كل هذه المآسى التى تعرض لها فتوفى بعد قليل فى عام ١٠٧٢ (١) .

وهكذا تتضح الأمور ، فقد قبض اندرونيكوس دوقاس ثمن خيانته للامبراطور ديوجنيس ، وبدلا من عقابه على تصرفه وخيانته ، كوفىء ورقى إلى أكبر منصب عسكرى فى الامبراطورية وهو قائد جيوش الشرق .

وهذا يدفعنا إلى القول ان الأمر لابد وأن يكون متفقاً عليه بين الحزب المدنى وبين اندرونيكوس دوقاس لخيانة الامبراطور ديوجنيس أثناء معركته مع السلاجقة كوسيلة للقضاء على ديوجنيس وابعاده عن العرش البيزنطى .

ومما يؤيد وجهة نظرنا هذه ان بسيللوس قد أرسل إلى الامبراطور المخلوع ديوجنيس بعد تكحيله رسالة خاطبه فيها بلفظ (ضحيّى) ، وأوضح له فى رسالته انه مثل الشهيد المحظوظ الذى حرمه القدر من نور بصره لأنه وجده مليئاً بالنور الالهى (٢) .

والواقع ان المؤامرات التى حاكها الحزب المدنى ضد شخص رومانوس ديوجنيس انما كانت فى حقيقة الأمر تآمر على سلامة وأمن الامبراطورية البيزنطية نفسها ، فبعد هزيمة البيزنطيين فى معركة منزيكرت وابعاد ديوجنيس عن العرش أصبحت اتفاقيته مع السلاجقة لاغية ، وقد اتخذ السلاجقة ذلك ذريعة للهجوم على الممتلكات البيزنطية وفى الفترة من ١٠٧١

---

(1) Ioannis Scylitzez : op. cit; pp. 702 — 705.

Michaelis Attaliatae : Historia, pp. 177 — 179.

Zonaras : Epitomae Historiarum, p. 706.

(2) Ostrogorsky : op. cit., P. 345.

Hussey : A history of Byzantine civilisation, pp. 323 — 324.

وهو تاريخ معركة منزيكرت ، وحتى ١٠٨١ عند اعتلاء الامبراطور اليكسيوس كومنينوس للعرش البيزيطى (١٠٨١ – ١٦١٨) أخذ السلاجقة يتقدمون على حساب الممتلكات البيزنطية فى آسيا الصغرى ، وانتشروا بها فى كل مكان ، فى قونيه ، نيقيه ، كريسوبوليس ، خلقيدونيه ، ولم يعد يفصل بينهم وبين القسطنطينية سوى مضيق البوسفور ، وانتهى الأمر بتأسيسهم لسلطنة الروم ، التى اتخذوا قونيه عاصمة لها .

ومما ساعد على تقدم السلاجقة ، الخلافات والحروب الأهلية التى نشبت بين البيزنطيين عقب اختفاء ديوجينيس من مسرح الحكم ، وقد استدعى البيزنطيون بأنفسهم السلاجقة لمساعدتهم فى حروبهم الأهلية مما فتح الباب على مصراعيه لهم للتقدم على حساب الممتلكات البيزنطية فى آسيا الصغرى ولم يكن لدى البيزنطيين لا القوة ولا الرغبة لمقاومة هذا الزحف المستمر على ممتلكاتهم .

ولم يبعد المؤرخ فازيليف عن الحقيقة حين قال : «هزيمة منزيكرت كانت الموت العاصف للسيادة البيزنطية فى آسيا الصغرى ، وبخاصة الأقاليم الجوهرية للامبراطورية البيزنطية» (١) .

أما المؤرخ الألمانى جلزر Gelzer فقد نعت معركة منزيكرت بأنها «ساعة الموت للامبراطورية البيزنطية العظيمة» ويستطرد قائلا «ونتائجها كذلك بكل أوجهها الكريهة لم تظهر فى آن واحد ، شرق آسيا الصغرى ، ارمينيا وقبادوقيا — وهى الولايات التى كانت مسقط رأس الكثير من الأباطرة المشهورين والأقوياء الذين ثبتوا عظمة الامبراطورية — فقدت كذلك ، والاتراك نصبوا خيامهم البدوية على حطام مجد الامبراطورية القديم ، مهد الحضارة سحدت للبرابرة المسلمين ، واكتملت

(1) Vasiliev : op. cit., vol., p. 356.

البربرية» (١)

وقد ازعج تقدم السلاجقة هذا ، الامبراطور ميخائيل السابع ، ولما كان الجيش البيزنطى قد دمر خلال معركة منزيكرت ، فقد لجأ ميخائيل للبابا جريجورى السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٥) طالباً المساعدة العسكرية ضد الأتراك السلاجقة ، ووعد البابا بأنه مقابل تلك المساعدة العسكرية فانه سوف يعمل على اتحاد كنيستى روما والقسطنطينية ، وازالة الخلاف بينهما . ولما كان هذا هو الحلم الذى سعت اليه البابوية دائماً وهو السيطرة على كنيسة القسطنطينية فقد أرسل البابا جريجورى إلى حكام غرب أوروبا يوضح لهم سوء موقف المسيحيين فى الشرق ، وما تعانيه الامبراطورية الشرقية من أخطار نتيجة لتوسع الأتراك المسلمين .

لكن دعوة البابا ذهبت ادراج الرياح ، كما شغلت البابوية فى تلك الفترة بالصراع العنيف الذى اشتعل بينها وبين هنرى الرابع امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة حول مشكلة التقليد العلمانى .

وقد تم عزل ميخائيل السابع فى ١٠٧٨ م . وحل محله نقفور بوتانياتيس Nicephorus BoTaniaTes (١٠٧٨ — ١٠٨١) ولم يلبث أن أطاحت به ثورة انتهت باعتلاء اليكسيوس كومنينوس العرش البيزنطى فى ١٠٨١ (٢).

وقد وجد اليكسيوس الموقف الخارجى على جانب كبير من الخطورة بسبب غزو النورمان بقيادة روبرت جويسكارد Robert Guiscard لأراضى

---

(1) Gelzer : Abriss der byzantinisch enKaisergeschichte, Munich, 1897, p. 1 010.

(2) Dvornik : Constantinople and Rome, in C.M.H. ed Hussey vol IV part I Cabrmidge, 1975, p. 464.

الامبراطورية فى البلقان ، وتهديد البجناك (١) لحدودها فى الشمال وتقدم السلاجقة المستمر فى اسيا الصغرى ، وبعد أن خاض صراعاً مريراً ضد النورمان ، وجد أن امكانيات الدولة العسكرية لن تتح لها وقف تقدم السلاجقة ، فأرسل للبابا ايربان الثانى (١٠٨٨ — ١٠٩٩) رسالة جدد فيها طلب ميخائيل السابع من البابوية من قبل والخاص بارسال نجدة عسكرية لانقاذ الامبراطورية البيزنطية من خطر السلاجقة ، وقد وجد البابا فى ذلك الفرصة المناسبة للدعوة للحروب الصليبية ضد المسلمين (٢)

وهكذا كانت معركة منزيكرت وما ترتب عليها من نتائج خاصة بتوسع السلاجقة على حساب البيزنطيين ، هى السبب المباشر لقيام الحروب الصليبية (٣) ، تلك الحروب التى استمرت لمدة قرنين من الزمان ، والتى

---

(١) البجناك عنصر من عناصر الأتراك ، وسكنوا السهول الجنوبية لروسيا وقد ذكرهم الامبراطور قسطنطين السابع با سم patzinacita وقد استخدمهم البيزنطيون منذ زمن بعيد كحلفاء لهم ضد اعداء الامبراطورية فى الشمال .وفى القرن التاسع الميلادى أصبحوا يمثلون ركناأساسياً من أركانالسياسة الخارجية جنوبالبيزنطة،إذ اعتمد عليهمفى مهاجمة البلغار وفى صد الروس عن التقدم نتوباً ، لكن الموقف تغير بعد أن فتحت بلغارياوضمت إلى املاك الامبراطورية ١٠١٨ م . فى عصر الامبراطور باسيل الثانى،إذ أنهار بذلك الحاجز الذى كان يحمىالامبراطورية من خطرهم وقد سببوا الكثير من المتاعب للامبراطورية بسبب هجماتهم على حدودها الشمالية . للمزيد عن هذا الموضوع أنظر :

Constantinus Porpherogenitus : De Thematilbus et de Administrando Imperio, pp. 164 — 167.

Ostrogorsky : op. cit., pp. 256, 292, 334, 343, 346.

(٢) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٧١ ، ص ص ١٣٠

(٣) مما لا شك فيه انه وجد لدى البابوية والغرب الأوروبى بصفة عامة من الأسبابوالدوافع ما جعل البابا يعلن الحروب الصليبية متخذاً من استنجاد اليكسيوس كومنينوس ذريعة لاعلا نهذه الحروب . انظر عن هذا الموضوع .

جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى، دار المعارف ١٩٦٧ ص ص ٣٧ — ١١٠ .

سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، جا ، ص ص ٢٧ — ٤٣ .

صاحبها الكثير من التغيرات الجوهرية فى منطقة الشرق الأدنى (١) .

ويبقى التساؤل قائماً .. لماذا اتخذ المؤرخ بسيللوس هذا الموقف العدائى من الامبراطور رومانوس ديوجنيس وكال له هذه الاتهامات وحمله وحده مسئولية هزيمة منزيكرت بأكملها ، واخفى الحقائق التاريخية الخاصة بهذه المعركة ؟ .

إذا استعرضنا تاريخ حياة المؤرخ بسيللوس والصراعات الداخلية فى بيزنطة فى تلك الفترة التاريخية ، لابد وأن نفهم الدافع وراء تصرفه هذا . ولنأخذ لمحة سريعة عن هذا الموضوع .

ولد قسطنطين بسيللوس فى عام ١٠١٨م . وكانت عائلته لا تتصف بالارستقراطية والثراء كباقى العائلات الكبيرة فى الامبراطورية ، ولكنها كانت عائلة تتصف بشدة التقوى والتماسك . وكان والده يعمل بالتجارة وقد تجشمت والدة بسيللوس الكثير من المتاعب لتربية ابنها تربية ممتازة بأمل أن يصبح عالماً من العلماء (٢) .

وكان بسيللوس لديه الاستعداد للاستيعاب ، واسع الاطلاع غزير المعلومات ، حاد الذكاء ، درس البلاغة والفلسفة ، وبدأ حياته العملية قاضياً فى فيلادلفيا فى اسيا الصغرى ، ثم عين سكرتيراً امبراطورياً فى عهد قسطنطين التاسع منوماخوس (١٠٤٢ — ١٠٥٥) وفى عام ١٠٤٥ أصبح رئيساً لكلية الفلسفة بجامعة القسطنطينية التى أعيد افتتاحها بناء على رغبة بسيللوس ، وكان يدرس بها الفلسفة الافلاطونية وفى عام ١٠٥٥ انسحب

---

(١) لقد انطوت صفحة الصليبيين الغربيين الذين غزوا المسلمين فى منطقة الشرق الأدنى فى عام ١٠٩٧ بعد قرنين تقريباً من الزمان ، ولكن ليس معنى ذلك انتهاء قصة الحركة الصليبية تلك القصة التى قدر لها ان تستمر قرنين آخرين هما القرنين الرابع عشر والخامس عشر .

(2) Jenkins : Social life in Byzantine Empire, in C.M.H. ed Hussey, vol IV, part, cambridge, 1967, P. 85.

إلى دير فى جبل اوليمبوس فى بيثينيا ، واتخذ اسم ميخائيل Michael الذى اشتهر به .

لكن الحياة الديرية لم تناسب طبيعته فعاد إلى الحياة العامة فى عام ١٠٥٦ واستأنف نشاطه الدنيوى ، وقد استحوذ بسيللوس على احترام معاصريه ، وأصبح واحداً من أكثر الشخصيات نفوذاً فى الامبراطورية .

عاد بسيللوس إلى التدريس فى جامعة القسطنطينية من جديد وإلى جانب الفلسفة كان يدرس البلاغة ، وقد تتلمذ عليه عدد كبير من الطلاب من عناصر مختلفة ، وقد كتب بسيللوس فى أحد رسائله يقول : «لقد سحرنا الكلت والعرب ، وسعوا الينا من القارتين على السواء ، النيل يروى الأرض عند المصريين ، وكلامى يروى أرواحهم ، احد الناس ينعتنى بشعاع الحكمة ،وآخر ينعتنى بالنجم الساطع ،وثالث ينعتنى بأكثر الأسماء جمالا»(١) .

وقد انجز بسيللوس الكثير فى حياته ، وخلف كتابات كثيرة فى اللاهوت ، الفلسفة (٢) العلوم الطبيعية ، التاريخ ، والقانون ، كما كتب بعض الشعر وعدد من الخطب والرسائل ، ويقول المؤرخ الألمانى هوسينج Haussing «ان بسيللوس لم يكن مبتكراً أو خالقاً ، وانما هو مفكراً نشاطه الأدبى يجلسه جنباً إلى جنب مع روجربيكون (٣) ، والبرت ماجنوس (٤) ،

(1) Vasiliev : op., cit., vol, p. 367.

(٢) عن دور بسيللوس فى احياء الفلسفة الافلاطونية راجع :
Hussey and Hart : Byzantine Theological Speculation and spirituality, in C.M.H. ed Hussey, cambridge, 1975, .vo lv, part'', pp. 1 194 — 195.

(٣) روجر بيكون Roger Bacon عالم انجليزى ، عاش فى الفترة المتوسطة من القرن الثالث عشر الميلادى (١٢٢٠ — ١٢٩٢) وهو ينتمى لعائلة ارستقراطية عريقة ، وحاز شهرة كبيرة أثناء عمله بالتدريس فى كلية الآداب جامعة باريس ، وخاصة عن طريق محاضراته عن فلسفة ارسطو وفى الفترة من ١٢٤٧ — ١٢٥٧ عمل بجامعة اوكسفورد وكرس نفسه من أجل رعاية العلوم الجديدة التى ادخلت فى جامعة أوكسفورد ، مثل اللغات ، الرياضيات ، علم البصريات ، الكيمياء وعلم الفلك . للمزيد راجع :
Encyclopedia Britannica, U.S.A. vol 1, pp. 527-528.

(٤) البرت ماجنوس Albertus Magnus (١٢٠٠ — ١٢٨٠) عالم ألمانى ، ولد فى

لكن تفكيره لم يكن أبداً بعمق تفكير هما» (١)

أما فازيلييف فيقول ان بسيللوس رجل آداب أكثر منه رجل تعليم يرجع اليه الفضل فى تطوير الثقافة البيزنطية فى القرن الحادى عشر مثلما طورها فوتيوس Photius فى القرن التاسع وقسطنطين السابع فى القرن العاشر (٢) .

وقد شارك بسيللوس فى الحياة السياسية فى عصره ، وعاصر تسع أباطرة فقد ولد فى عصر باسيل الثانى (٩٧٦ — ١٠٢٥) وتوفى فى ١٠٧٨ فى عصر ميخائيل السابع (١٠٧١ — ١٠٧٨) .

وقد تدرج بسيللوس فى وظائف البلاط ، كسكرتير للامبراطور ، وكبير الحجاب ، والمستشار الأول ، والوزير الأول ، ولقى الحظوة لدى العديد من أباطرة وامبراطورات هذه الفترة الزمنية ويقول بسيللوس ان الامبراطور قسطنطين التاسع كان معجباً أشد الاعجاب ببلاغته ، وكانت اذناه ملتصقتين دائماً بلسانه .

مدينة Padua فى اقليم سوابيا فى ألمانيا ، اشتغل بالفلسفة ، العلوم الطبيعية واللاهوت حتى أطلق عليه اسم Doctor Universalis لشمول معلومات فى كافة فروع المعرفة انضم لجماعة الدومنيكان الدينية فىLavingenفى ١٢٢٣ وقام بالتدريس فى مختلف الأديرة فى ألمانيا وخاصة فى مدينة كولونيا ثم انتقل حوالى سنة ١٢٤٥ إلى جامعة باريس حيث عمل بها أستاذاً فى كلية اللاهوت واكتسب شهرة عظيمة بفضل كتاباته فى اللاهوت والفلسفة ، وقال عنه معاصره روجربيكون الذى كان صديقاً له «انه الأكثر شهرة بين العلماء المسيحيين». وقد عبر البرت فى كتاباته عن وجهة النظر السائدة فى عصره فى اللاهوت، الفلسفة والتاريخ الطبيعى وكان هو الوحيد من بين فلاسفة العصور الوسطى الذى قام بعمل شروح لكل كتابات ارسطو فى الفلسفة .
للمزيد راجع :

Encyclopedia Brithannica, U.S.A. Vol. 1, PP. 527 — 528.

(1) Haussing : Ahistory of Byzantine civilisation, p. 324.

(2) Vasiliev : op. cit. vol', p. 368.

أما الامبراطور ميخائيل السادس فكان معجباً أشد الاعجاب بعمق تفكيره وذوقه «كما لو كان العسل يسيل من بين شفتيه» على حدتعبير بسيللوس نفسه (١) .

وقد شهدت هذه الفترة التاريخية التي عاصرها بسيللوس ضعف الامبراطورية البيزنطية وصاحبتها تغييرات كثيرة على العرش الامبراطورى وغالباً تغييرات فى السياسة العامة للدولة . وقد أظهر بسيللوس براعة كبيرة لكييف نفسه تبعاً لتغير الأحوال ، ولم يتردد فى استعمال التملق ، الخضوع الرشاوى ، وغيرها من الأساليب الملتوية لخدمة مصالحة الشخصية (٢)

وقد امتازت هذه الفترة التاريخية كذلك بسيطرة الحزب المدنى فى معظم الأحيان على مقاليد الحكم فى بيزنطه وكان بسيللوس أحد أعمدة هذا الحزب المدنى ، وقد لعب دوراً بارزاً فى تنصيب قسطنطين العاشر دوقاس على العرش الامبراطورى فى ١٠٥٩ م . والبسه الخف الارجوانى بيديه ، وكانت عائلة دوقاس تمثل الارستقراطية المدنية فى العاصمة . وقد أصبح بسيللوس المستشار الرئيسى للامبراطور والمؤدب الخاص لابنة وولى عهده ميخائيل وأصبحت له السيطرة على كل أوجه السياسة الامبّراطورية .

وقد اشتد اعجاب الامبراطور قسطنطين دوقاس بمستشاره المعلم الفيلسوف والخطيب البارع بسيللوس ، الذى عبر عن اعجاب الامبراطور به فى العبارة التالية :

---

(1) Vasiliev : op. cit; vol', p. 368.

Dolger : Byzantine literature, in C.M.H. ed Hussey cambridge, 1975, vol'v; part llp. 230.

(2) Haussing : op. cit; P. 323.

XXV.· Ἐπανεπαύετο δὲ ἐπ' οὐδενὶ τῶν ἄλλων ὡς ἐπ' ἐμοί· ὅθεν εἰ μὴ τῆς ἡμέρας πολλάκις ὀφθείην αὐτῷ, ἐδεινοπαθει καὶ ἤσχαλλε· ἐσέβετό τε διαφερόντως τῶν ἄλλων, καὶ διέκειτο ἀναπιμπλάμενος ἐμοῦ ὥσπερ νέκταρος·

«لم يكن يرتاح لشخص آخر مثلى ، كذلك إذا لم يرانى عدة مرات فى اليوم الواحد ، كان يشتكى ويغضب ، شرفنى تماماً على جميع الآخرين كان يرتوى منى مثلما يرتوى من الرحيق الالهى» .

أما الامبراطورة ايدوكيا فكانت تراه «كأنه اله» (٢) . وعند وفاة الامبراطور قسطنطين دوقاس ١٠٦٧ ، انتقلت الوصاية على ابنائه الصغار ميخائيل ، اندرونيكوس وقسطنطين إلى والدتهم الامبراطوره ايدوكيا ، ولكن السلطة الفعلية كانت فى أيدى بسيللوس ويوحنا دوقاس شقيق الامبراطور الراحل ، اللذين أخذا فى تصريف شئون الحكم والادارة فى الامبراطورية (٣) .

وفى أول يناير ١٠٦٨ تزوجت ايدوكيا من القائد رومانوس ديوجنيس الذى ينتمى إلى عائلة من أكبر العائلات البيزنطية فى اقليم قبادوقيا ، وكان شخصاً بارزاً وقائداً لامعاً شجاعاً ، ابلى بلاء حسنا فى الحروب ضد الباجناك وحاز مكانة مرموقة فى الحزب العسكرى ، وكان يمثل الاستقراطية العسكرية أصدق تمثيل ، وقد عارض بسيللوس ويوحنا دوقاس هذا الزواج ، ولكن ايدوكيا أصرت على اتمامه .

وهكذا انتقلت مقاليد الأمور من الحزب المدنى الذى كان يمثله القيصر يوحنا دوقاس وبسيللوس إلى الحزب العسكرى ممثلا فى رومانوس ديوجنيس

---

(1) Psellus : Çhronographie, vol II, p. 150.

(2) Ostrogorsky : op. cit. p. 341.

(3) Ostrogorsky : op. cit., pè 344.

ولم يكن هذا بالشيء الذى يرضى اعضاء الحزب المدنى وعلى رأسهم يوحنا دوقاس وبسيللوس بعد أن حرموا من النفوذ والسلطة . وقد اتخذوا من ديوجنيس موقف المعارضة وأخذوا يحيكون المؤامرات ضده (١) ، حتى واتهم الفرصة للقضاء عليه فى معركة منزيكرت ، وكان اندرونيكوس دوقاس أداتهم لتنفيذ المؤامرة ضد ديوجنيس كما سبق أن أوضحنا ذلك فى موضعه وقد نصبوا تلميذ بسيللوس ميخائيل دوقاس امبراطوراً ، وبذلك عادت لبسيللوس سلطاته الواسعة ومركزه المرموق خلال الفترة التى تولى فيها ميخائيل السابع الحكم ، وحتى وفاة بسيللوس فى ١٠٧٨ .

وهكذا يتضح السبب فى عداء بسيللوس للامبراطور رومانوس ديوجنيس ومحاولته القاء مسئولية الهزيمة فى منزيكرت عليه بكاملها ، وتشويهه للحقائق التاريخية الخاصة بهذه المعركة .

لذلك ، ورغم ان بعض المؤرخين يمتدحون بسيللوس كمؤرخ ويعتبرون مؤلفه التاريخى Chronographie من أهم مصادر هذه الحقبة التاريخية (٢) الا اننى أرى ان مشاركة بسيللوس فى الأحداث السياسية التى جرت فى عصره ، جعلته يتحيز لحزب ضد آخر ، وانعكس ذلك بالتالى فى تأريخه لهذه الفترة ، وهكذا فقد أهم صفه من صفات المؤرخ الحق وهى الحياد التام والبعد عن التحيز والاهواء الشخصية (٣) ، وبذلك فقد مؤلفه التاريخى هذا بعض أهميته ، ووجب على الباحث الا يتقبله ويسلم بما جاء به الا بعد مقارنته بغيره من المصادر من أجل الوصول للحقيقة التاريخية المجردة ، التى هى غاية كل باحث فى التاريخ .

---

(1) Hussey : The later macedonians, the comneni, in C.M.H. vol v, parti p. 209.

Ostrogorsky : op. cit., P, 344.

(٢) أنظر بداية هذا البحث ، ص٢٠٩ .

(٣) حسن عثمان : منهج البحث التاريخى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ص ١٩ .
محمد زيان عمر : البحث العلمى ، مناهجه وتقنياته ، الطبعة الثانية ، جدة ، ١٩٧٥ ، ص ١٤٠

مصادر ومراجـع البحث

المصادر العربية

– ابن الأثير : (على بن أحمد بن أبى الكرم)
الكامل فى التاريخ ، القاهرة ، مطبعة الاستقامة

– ابن الجوزى : (أبى الفرج عبد الرحمن بن على ابن محمد بن على)
المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ، الطبعة الأولى ، حيدر آباد
١٣٥٩ .

– ابن العديم : (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله)
زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، الجزء الثانى ، تحقيق الدكتور
سامى الدهان ، دمشق ١٩٥١ .

– ابن القلانسى : (أبو يعلى حمزة)
ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨ .

– أبو الفدا : (اسماعيل بن على عماد الدين)
تقويم البلدان ، باريس ، ١٨٤٠ .

– البندارى : تواريخ دولة آل محمد سلجوق ، القاهرة ، ١٩٠٠

– الحسينى : (صدر الدين أبى الحسن على)
زبدة التواريخ ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية ، تصحيح
محمد اقبال ، لاهور ، ١٩٣٣ .

– الشيرازى : (المؤيد فى الدين هبة الله)
السيرة المؤيدية ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة
رقم ٢٦٠٥٦ .

المراجع العربية

– أسد رستم : (دكتور)

الروم فى سياستهم وحضارتهم ودياناتهم وثقافتهم الجزء الثانى دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٥٥ .

– السيد الباز العرينى : (دكتور)

١ – الدولة البيزنطية (٣٢٣ – ١٠٨١) ، القاهرة ١٩٦٠ .

٢ – المغول ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٦٨ .

– جوزيف نسيم يوسف : (دكتور)

العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الأولى ، دار المعارف ، ١٩٦٧ .

– حسن ابراهيم حسن (دكتور)

تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٨ :

– حسن عثمان : (دكتور)

منهج البحث التاريخى ، الطبعة الثانية القاهرة ، ١٩٦٥ ؛

– سعيد عاشور : (دكتور)

الحركة الصليبية ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧١ ؛

— عمر كمال توفيق : (دكتور)

الامبراطورية البيزنطية ، الاسكندرية ١٩٦٧ .

— محمد سرور : (دكتور)

النفوذ الفاطمى فى بلاد الشام والعراق ، القاهرة ، ١٩٧١

— محمد زيان عمر : (دكتور)

البحث العلمى ، مناهجه وتقنياته ، الطبعة الثانية جدة ، ١٩٧٥

— نبيه عاقل : (دكتور)

الامبراطورية البيزنطية ، دمشق ، ١٩٦٩ .

المصادر والمراجع غير العربية

— Attaliota, M. : Historia, Emedatior, Bonnae, Meccci.

— Brehier, 1. vie et mort de Byzance, Paris, 1969.

— Dolger, F. · Byzantine literature, in C.M.H. ed Hussey, vol. v, part II. cambridge, 1967.

— Dvornik; F. Constantinople and Rome, in C.M.H. ed Hussey vol v, part', Cambidge, 1975.

— Encyclopedia Britannica U.S.A. Vol II, 1964.

— Gelzer : Abriss der byzantinischen kaisergeschichte, Munkch, 1897.

— Gibbon, E. : Decline and fall of the Roman Emfire, U.S.A. 1976.

— Haussing, H : Ahistory of Byzantine Civilisation English translation London, 1971.

— Hussey, y. : The tater Macedonians, The comneni and Angeli, LO25 — 1204, in c.M.H. vo. IV. Part, I ed. Hussay, cambeidge) 1966.

— Jenkins R; : Social lile in Byzantine Empire, in C. M.H., ed. Hussey Vol. IV, part II, Cambridge, 1967

— Ostrogerokj, G. : Histoiy of the byzantihe state, translated by Hussey, oxford, 1968.

— Porphrogenetus, C. : De Thematibus et de A dministrando Imperio, Bekk erus, Bonnae, Mdexxxl.

— Psellus, M., chronograhie, collection byzantine publié sous le paronage de l'association guillaume budé serie par renauld, pairs 1928.

— Reid : the reorganisation of the emprie, in C.M.H. Vol IV, part 1, cambridge 1975.

— Rostoutzeff : Ahistory of the ancienwtorld, oxford 1928.

— Runciman, S. : byzantine civilisation, seventh impression great Britain, 1975.,

— Schlumberger; Y. L'epopeé by zantine ,a la fin du dixieme siécle, paris, 1905.

— Scylitza, I; Excerpta Exbreviario Histoeive, Webri Bonnar Mdccc xxx'x.

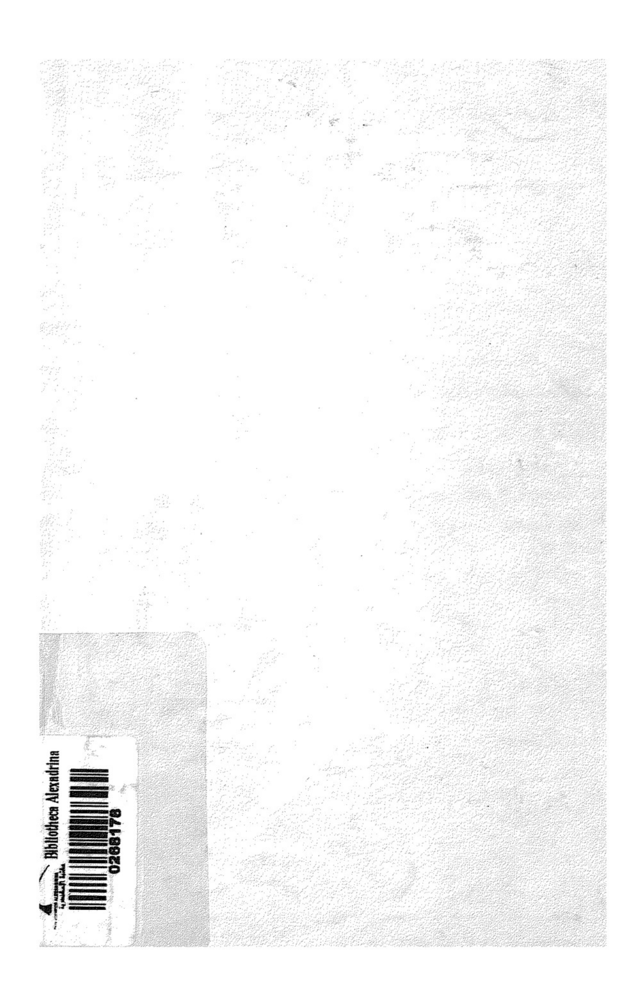
— Sinnigen, G. : AHistory of Rome to A.D. 565; U.S.A., 1977.

— Toumanoff; The bacground to Manzikert, in proceedings of the xIII th, international congress of.
Byzantine Studies, ed hussey, London, oxford, 1967.

— Vasiliev, A. : History of the Byzantine Empire, U.S.A. 1958.

— Vayonis, S. : Byzantium and Europe, London, 1967.

— Zonaras, I., Epitomae Historiarum, Weberi, Bonnae, Mdccxc VII.


Bibliotheca Alexandrina
0268178